

منتدى مكتبة الاسكندرية

الفيلسوف الإنكليزي

برتراند رسل

تعريب سمير شيخاني

غزو السعادة

كيف تصبح سعيدا

في

الحياة الزوجية * العمل * المجتمع

غزو السعادة

كيف تصبح سعيدا في الحياة الزوجية * العمل * المجتمع

الفيلسوف الإنكليزي

برتراند رسل

تعريب سمير شيخاني

دار الأمير

الطبعة الأولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

دار الأمير للثقافة والعلوم
طباعة - نشر - توزيع
بيروت لبنان ص.ب. ١١٣/٥٥٥١

مقدمة الناشر

أجمل ما في الحياة هو الجمال بأي موضع كان، وأجمل ما في الانسان أن يكون سعيداً فلكل جمال والكل سعادة، فجمال السعادة المحافظة عليها وسعادة الجمال ان تعيه النفس بكل خلجاتها وكما قال الشاعر الكبير إيليا أبو ماضي «كن جميلاً ترى الوجود جميلا». ونحن إذ ينطوي بنا هذا القرن بكل ما جاء به من تكنولوجيا ومادة وتطور نريد ان نسأل ما غاية الحياة؟ وإن وفرت المادة للفرد إختراق السموات بساعات أو ربما دقائق، وإن.. وإن.. لكن أين نفسه وجمالها من كل هذا؟ وأين كل هذا من واقع المادة التي يعيش؟ هذا الكتاب الذي بين أيدينا فيه جانب كبير من نتائج سيرة ذاتية لفرد ألا وهو الفيلسوف الإنكليزي الشهير رسل ونترك ما حوى الكتاب على أهميته للقارىء الكريم.

ونحن إذ نضع هذا الكتاب القيّم في طبعته العربية الأولى بين يدي القارىء الكريم آملين أن ينال حسن قبوله، نتوجه بالشكر والتقدير لجانب الاستاذ سمير شيخاني لما بذله من جهد في تعريب هذا السفر القيّم.

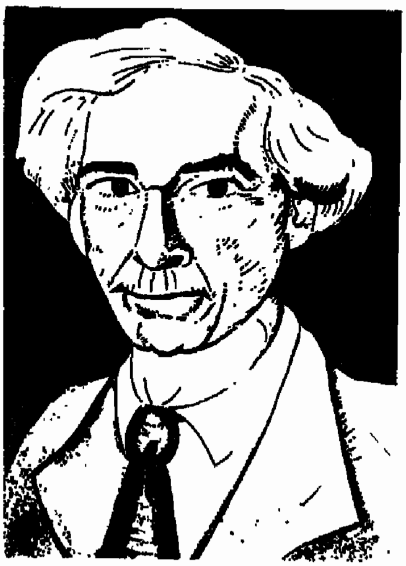
محمد حسين بزي

دار الأمير للثقافة والعلوم

١/٨/١٩٩٤م

تعريف

برتراند آرثر وليام رَسِلْ (١٨٧٢ - ١٩٧٠)



كان برتراند رسل واحداً من ألمع المفكرين في القرن العشرين وأكثرهم اصالة. وامتدت حياته العملية حوالي المئة عام، عبّر خلالها عن معتقدات متنوعة كثيرة، جرّ عليه معظمها الكثير من المشاكل والمضايقات.

هذا الفيلسوف الإنكليزي، شهير أيضاً بمناصرته البليغة للحرية الفردية التي تجعل مكانته في حياة عصره الفكرية شبيهة بحياة فولتير في القرن الثامن عشر أو بحياة دجون ستيوارت مِل في القرن العشرين.

ولد في ١٨ أيار ١٨٧٢، وأصابه اليتم في الثالثة من عمره، فربّته جدّته، وبدلاً من إرساله إلى المدرسة، تلقّى تعليمه على أيدي مربيات ومعلّمين، فاكتسب هكذا معرفة جيدة باللغتين الفرنسية والألمانية. ثم التحق للدراسة بكلية ترينيتي، في جامعة كيمبريدج.

كان ملحقاً في السفارة البريطانية في باريس في السنتين ١٨٩٤ و ١٨٩٥. وخلال حضوره مؤتمراً لعلماء في الرياضيات عقد في باريس سنة ١٩٠٠، شعر بأن ميله إلى المنطق ينمو ويتطور.

في سنة ١٩١٠، عُيّن أستاذاً للرياضيات في كلية ترينيتي، في جامعة كيمبريدج،وهو منصب فقده خلال الحرب العالمية الأولى (١٩١٤). فقد اشترك اشتراكاً فعّالاً في الحركة المناهضة للتجنيد. وحُكم عليه بغرامة قدرها مائة ليرة استرلينية لكتابته نشرة انتقد فيها حكماً بالسجن سنتين على أحد رافضي التجنّد. وصودرت مكتبته لتسديد الغرامة النقدية، فاشتراها أحد الأصدقاء، ولكن كثيراً من الكتب النفيسة فُقد. ومنعته الكلية التي كان يحاضر فيها من إلقاء المحاضرات. وجلس مرة خارج مقرّ رئاسة الوزارة في ١٠ داوننغ ستريت، احتجاجاً على ما يدافع عنه من نظريات ومبادىء، فأُلقي القبض عليه.

وعُرض عليه منصب تعليمي في جامعة هارفرد الأميركية، فلم تمنحه السلطات البريطانية جواز سفر. وعقد النية على إلقاء سلسلة من المحاضرات (نشرت في الولايات المتحدة الأميركية بعنوان « مثاليات سياسية » سنة ١٩١٨) ولكن السلطات العسكرية منعته من ذلك. وفي سنة ١٩١٨ حكم عليه بالسجن ستة أشهر لنشره مقالاً يدعو إلى السلام في جريدة «ترايبيونال». وقد وضع كتابه القيّم «مقدمة إلى الفلسفة الرياضية» (١٩١٩) في السجن. أما كتابه «تحليل العقل» (١٩٢١)، فهو حصيلة بعض المحاضرات ألقاها في لندن، وقد جمع بعض الأصدقاء مبلغاً من المال من أجل هذه الغاية. أما كتابه «الممارسة ونظرية البولشفية» (١٩٢٠) فقد كُتب عقب زيارة قام بها إلى روسيا، ولكنه لم يتأثر قط بالتطبيق العملي هناك لتعاليم كارل ماركس الذي كان يؤمن بنظرياته. وكان معارضاً للكثير من التقاليد الأخلاقية والزوجية في أوروبا الغربية.

وفي صيف السنة نفسها (١٩٢٠) قام بزيارة إلى الصين لإلقاء محاضرات في الفلسفة في جامعة بيينكغ. ولدى عودته في أيلول ١٩٢١، وبعد طلاقه من زوجته الأولى، اقترن بدورا بلاك. ثم شرع يكسب معيشته من إلقاء المحاضرات، والكتابة في الصحف، ووضع كتباً شعبية من مثل «ألف باء الذرّات» (١٩٢٣)، و «ألف باء النسبية» (١٩٢٥)، و «حول التربية» (١٩٢٦). ومن الكتب التي وضعها في هذه الحقبة كانت المقدمة للطبعة الثانية من «مبادىء الرياضيات» (١٩٢٥)، و «تحليل المادة» (١٩٢٧)، و «موجز

الفلسفة» (١٩٢٧)، و «التصوف والمادة» (١٩٢٧)، و «الزواج والأخلاق» (١٩٢٩). وفي سنة ١٩٢٧ أنشأ بالإشتراك مع زوجته مدرسة للصغار ظلاّ يديرانها حتى سنة ١٩٣٢. وطلّق زوجته سنة ١٩٣٥، واقترن في السنة التالية بباتريشيا هيلن سبنس التي نشر معها «أوراق أمبرلي» (١٩٣٧). ورحل إلى الولايات المتحدة الأميركية سنة ١٩٣٨، حيث درَّس في عدد من الجامعات هناك. ولما فسخ عقد تعيينه أستاذاً للفلسفة في كلية مدينة نيويورك سنة ١٩٤٠ بسبب آرائه حول الأخلاق، قبل رَسِلْ بعقد مدته خمس سنوات لمحاضر في مؤسسة بارنز، ولكن إلغاء هذا العقد أيضاً أُعلن في كانون الثاني ١٩٤٣.

بعد سنة ١٩٤٤، عاش رسل بصورة رئيسية في إنكلترا حيث غدا معروفاً كثيراً في أوساط كبيرة من خلال برامجه الإذاعية التي تضمّنت السلسلة الأولى من محاضرات «ريت» (السلطة والفرد، ١٩٤٩). وقد أُنعم عليه بوسام الاستحقاق البريطاني سنة ١٩٤٩، وفاز بجائزة نوبل للآداب سنة ١٩٥٠. وللمرة الثالثة طلّق زوجته، واقترن بإدث فِنْش. وظهرت له في سنة ١٩٥٣ مجموعة قصص قصيرة بعنوان «الشيطان في الضواحي».

وفضلاً عن الكتب التي ورد ذكرها في هذه العجالة، تضمّ مؤلفات رسل هذه النفائس: «تاريخ الفلسفة الغربية»، و «المعرفة البشرية: مجالها وحدودها»، و «العدالة زمن الحرب»، و «غزو السعادة»، و «دروب إلى الحرية»، و «القوة: تحليل اجتماعي»، و «فلسفة لايبنتس»، و «تحليل العقل»، و «الفكر الحرّ والدعاوة الرسمية» بالإشتراك مع سكوت ينرنغ، و «ومعرفتنا بالعلم الخارجي»، و «الإستشراف العلمي»، و «احتمالات الحضارة الصناعية»، و «التعليم والنظام الاجتماعي»، و «الحرية والتنظيم (١٨١٤ - ١٩١٤)»، و«مبادىء إعادة البناء الاجتماعي»، بالإشتراك مع دورا رسل، و «مقالات شكوكية»، و «إطراء الكسل»، و «البولشفيك والغرب»، و «قضية الصين»، الخ... وكلها طُبعت غير مرة!

* * *

يقول المفكر الإنكليزي برتراند رَسِلْ في مقدمة كتابه «غزو السعادة» (Conquest of Happiness) المنشور سنة ١٩٣٠ :

«هذا الكتاب لا يتوجّه إلى البحّاثة أو إلى أولئك الذين يجدون في قضية عملية مجرد موضوع للثرثرة. ففي الصفحات التالية، لن تجدوا فلسفة عميقة، أو تبحُّراً واسعاً. إن هدفي الوحيد كان جمع بعض الملاحظات المستوحاة مما أحسبه الفهم أو الإدراك السليم. والفضل الوحيد الذي أدّعيه بالنسبة إلى الصيغ المقدّمة إلى القارىء، يكمن في واقع أنها مؤكّدة بتجربتي الشخصية ومراقبتي، وأنها أثرت سعادتي في كل مرة تصرّفت وفقاً لها. ومن هنا، أجرؤ على أن آمل أن بعضاً من الرجال والنساء الذين يشكون دون أن يسرّوا في ألمهم، سيجدون تشخيص حالتهم وسبل معالجتها. واقتناعاً مني بأن الكثيرين من التعسين يستطيعون أن يجدوا السعادة بفضل مجهود حسن التوجيه، وضعت هذا الكتاب».

سمير شيخاني

أحسب أن بوسعي تبديل حياتي ،
والانصراف إلى العيش مع الحيوانات،
فهي جدّ ساكنة وصلبة،
أنا هناك وأتأملها طويلاً، طويلاً،
حالتها لا تجعلها ترغي وتزبد وتتأوه،
إنها لا تبقى مستيقظة ليلاً لكي تبكي خطاياها،
إنها لا تقززّني بمناقشاتها حول واجباتها تجاه الله،
ليس ثمة حيوان واحد غير راضٍ ،
ولا أحد يعرف جنون تملُّك الأشياء،
لا أحد يحتجُّ تجاه الآخر،
ولا أمام أمثاله من الذين عاشوا قبله بآلاف السنين،
لا أحد محترم، ولا بائس بأمر من العالم.

وولت هويتمان

القسم الأول

أسباب التعاسة

١

ماذا يجعل الناس تعسين؟

الحيوانات تظل سعيدة ما دامت في صحة جيدة، ويتوفّر لها الطعام الكافي. ويساورنا الشعور بأن الكائنات البشرية ينبغي أن تكون سعيدة أيضاً، ولكن تلك ليست حال الأكثرية في عالمنا الحديث.

وأنت شخصياً، إذا ما شعرت بأنك تعس، فستكون على الأرجح مهيّأً تماماً للإقرار بأنك لست استثناءً. وإذا كنت سعيداً، تتساءل كم من أصدقائك سعداء كذلك. وعندما تكون قد استعرضت بدقّة أصدقاءك، حاول اكتساب فن استقراء الوجوه؛ إنفتح على حالات أولئك الذين تصادفهم في الحياة كل يوم.

«في كل وجه، أرى ندبة».

آثار جرح الضعف، آثار جرح الألم، يقول الشاعر وليام بلايك.

ومع أن حالتهم قد تكون مختلفة، فإنك ستجد أُناساً تعسين في كل مكان. لنفرض جدلاً، للحظة، أنك في نيويورك، نموذج المدن الكبيرة الحديثة بالذات. أقم في شارع مزدحم في أثناء ساعات العمل، أو في أحد شرايين المواصلات خلال عطلة الأسبوع، أو أدخل مساءً أحد المراقص. تحرّر من «الأنا»، واسمح بأن تدخلك تدريجياً شخصية أولئك المحيطين بك. إنك ستتبيّن أن لكل فرد من هذا الجمع مشاكله الخاصة. في غمرة طائفة ساعات العمل، ستجد القلق، والتركيز المفرط، وعسر الهضم، وفقدان الاهتمام بكل الأمور خارج إطار الكفاح، والعجز عن اللهو، والتبلُّد في حضرة إخوانهم بني البشر. وفي عطلة الأسبوع، على الطرق العامة، ستجد رجالاً ونساءً، جميعاً ميسورين، وبعضهم جدّ موسرين، غارقين في السعي وراء المتعة. وهذا السعي يقوم به الجميع بسرعة مطردة، هي سرعة السيارة الأكثر بطئاً في الصف الطويل؛ من المستحيل رؤية الطريق بسبب السيارات. أو تأمُّل المنظر لأن حادثاً قد يطرأ إذا ما نظر المرء إلى جانب؛ والركاب في كل السيارات مستغرقون جميعاً في رغبتهم بتجاوز الآخرين، وذلك أمر لا يسعهم تحقيقه بسبب الحشد؛ وإذا ما ابتعدوا عن مشاغلهم، كما قد يحدث ذلك بالنسبة إلى الذين لا يقودون السيارة، فإن سأماً لا يُحتمل سيستولي عليهم، ويطبع ملامحهم باستياء تافه. وقد يحدث أن تبدي جماعة من الملونين، تقود سيارة، بهجة صريحة، ولكنها تثير الاستياء العام، وتنتهي بالوقوع بين أيدي رجال الشرطة إثر حادث سير: اللهو، في يوم عطلة، غير مسموح به.

إن أسباب مختلف مظاهر الألم مردّها في جزء ما، إلى النظام الاجتماعي، وفي جزئها الآخر إلى السيكولوجية الفردية، التي هي بذاتها، بالطبع، إلى حدّ بعيد، نتاج النظام الإجتماعي. واتفق لي من قبل أن تكلّمت على تغييرات في النظام الاجتماعي ضرورية لتنمية السعادة. وليس في نيتي التحدّث في هذا

الكتـاب عن إزالة الحـرب، والقضاء عـلى الاستغلال الاقتصـادي، والتعليم في ظـل الخوف والقسـوة. إن اكتشاف نـظام يتيـح تجنُّب الحـرب ضرورة حيـويـة بالنسبة إلى حضارتنا، ولكن ليس ثمـة لأي نظام فـرصة الصمـود ما دام البشر سيظلون تعساء إلى حدّ تفضيل فناء متبادل على التحمّل المتواصل لضـوء النهار. وإذا نحن شئنا أن تتضاعف حسنات الإنتاج الميكانيكي في نطاق معـيّن بالنسبـة إلى أولئك الذين يحتاجون إليها أكثر من سواهم يتعيّن وضـع حدّ للفقـر؛ ولكن ما الفائدة من جعل الجميع أغنياء، إذا كان الأغنياء أنفسهم تعساء؟ إن التعليم في ظـل الخوف والقسـوة سيّىء ،ولكن ليس بالـوسع تقـديم أي تعليم آخـر إلى الذين هم أنفسهم عبيد هـذه الانفعالات. وتجـرّنا هـذه الاعتبارات إلى مشكلة الفرد: ماذا يستطيع الرجل أو المرأة أن يفعلا في هذه الحالة المعيّنة، لكي يحققـا سعادتهما الشخصية في وسط مجتمعنا المليء بالحنين؟

وفي مناقشة هذه القضية ،سأحصر اهتمامي بأُولئك الذين ليسـوا ضحايـا شقاء مادي مفرط. سأقرّ بدخل كافٍ لتأمين الغذاء والسكن، وصحة جيـدة نوعـاً ما لكي تسمح بالنشاطات الطبيعية العادية.

ولن أحسب حساب الكوارث الكبيرة مثل الفضيحـة العامـة، أو بالنسبـة إلى الـوالـدين، فقـدان كـل أولادهمـا. هنـاك أمـور كثـيرة تقـال حـول هــذه الموضوعات، وهي جميعاً هـامة ولكنهـا تتعلّق بمجال آخـر مختلف، لن أهتمّ به. إن الغاية التي أضعها نصب عينيّ هي اقتراح عـلاج للشدة العـادية اليـومية التي تعاني منها أكثرية سكان البلدان المتحضّرة، والتي تبدو محتـومة، وبـالتالي تكـون معـاناتهـا أقسى لمجرد أنـه ليس لها أي سبب خـارجي ظاهـر. وأحسب أن هذه الظروف تتسبّب، في جزء كبير منها، عن أفكار خاطئة حول العالم، وعن آداب زائفة أو عادات حياتية أُسيء فهمها؛ كل هذا يحطّم هذه الشهية، وهذا التذوق الطبيعيين للأشياء الممكن تحقيقهـا، التي تتوقّف عليهـا في نهاية المطاف السعادة الكاملة بالنسبة إلى الإنسان والحيـوانات. إن هـذه الأشياء تتعلّق بقـدرة الفرد،

وأنوي أن أقترح التغييرات التي يمكن بواسطتها (مع افتراض مساهمة بعض الحظ) تحقيق سعادة الإنسان.

لعلّ أفضل تقديم للفلسفة التي أودّ التبشير بها هو بعض الأسطر من سيرتي الذاتية. أنا لم أولد سعيداً. كان نشيدي المفضّل وأنا صغير: «سَئِمٌ من الناس، ومفعم بالظلم». في الخامسة، عرفت أنني إذا كنت سأعيش حتى السادسة والستين، لا أكون قد عانيت إلاّ الجزء الرابع عشر من حياتي الكاملة، وشعرت بأن السأم اللانهائي الممتد أمامي يكاد لا يُحتمل. عندما كنت مراهقاً، كرهت الحياة، وكنت باستمرار على وشك الانتحار، وقد حالت دون تحقيق ذلك رغبتي بإتقان الرياضيات. والآن، على النقيض، أنا أُحبُّ الحياة، وبوسعي القول إن كل سنة تمرّ، أُحبها أكثر. وذلك مردّه جزئياً إلى أنني اكتشفت ما هي الأمور التي أرغب فيها أكثر من سواها، وفي الواقع، حصلت عليها شيئاً فشيئاً، في النهاية. وهذا يعود كذلك، جزئياً، إلى أنني أزحت بفعالية بعض الأمور التي رغبت فيها، بسبب كونها أساسياً بعيدة المنال، من مثل اكتساب معرفة مطلقة بالأمور وسواها.

غير أن ذلك يعود، في جزء كبير منه، إلى الاهتمام المتناقص بشخصي. ومثل الكثيرين ممّن تلقّوا تربية متزمّتة، اعتدت التفكير ملياً في خطاياي، وحماقاتي، وعيوبي. وبدوت لنفسي ـ بحق حتماً ـ أمرأً تعساً. ورويداً رويداً تعلّمت كيف أُظهر اللامبالاة تجاه ذاتي، وتجاه عيوبي؛ وتوصّلت إلى تركيز اهتمامي أكثر فأكثر على الأمور الخارجية: حالة العالم، ومختلف فروع المعرفة، والأشخاص الذين أُحس تجاههم بالمحبة. وأعترف بأن الاهتمامات الخارجية، تحمل كل منها احتمالات الألم الخاصة بها: قد يكون العالم غارقاً في الحرب؛ والمعرفة، في وجهة معيّنة، قد يكون من الصعب بلوغها؛ والأصدقاء قد يقضون. غير أن أحزاناً من هذا النوع لا تدمّر ميزة الحياة الأساسية مثلما تفعل تلك التي تنجم عن اشمئزاز المرء من نفسه. ويحثّ كل اهتمام خارجي على نوع من النشاط، الذي هو واقٍ من السأم طالما بقي هذا الاهتمام حياً. والاهتمام الذاتي أو الأناني، على النقيض، لا يؤدي إلى أي نشاط متقدِّم. كتابة المرء

يـومياتـه، وتحليله نفسه، أو ربمـا ترهُبـه ـ تلك هي النتائـج الممكنة لمثـل هـذا الموقف. غير أن الـراهب لن يكون سعيـداً طالمـا أن الروتـين في الديـر لا يُنسيه روحه الخاصة. والسعادة التي يعـزوها إلى الـدين، كان بـوسعه بلوغهـا فيها لـو عمل كنّاساً في الطرقات شرط أن يضطر إلى البقاء كذلك.

إن الـتربية الخـارجية هي السبيـل الوحيـد إلى السعادة بـالنسبة إلى هؤلاء القليلي الحظ الذين يكون اهتمامهم المفرط بأنفسهم جـدّ عميق بحيث لا يشفون بطريقة أخرى.

هناك أنواع كثيرة من المشاغل أو الاهتمامات الذاتية أو الأنانية. وبالـوسع اعتبار الخاطىء، والنـرجسي (عاشق ذاتـه)، والمصاب بمـرض العظمـة، ثلاثـة نماذج جدّ مألوفة.

عندما أتكلّم على الخاطىء، فأنا لا أفكّـر في من يرتكب خـطايا، بحسب تحـديدنـا لهـذه اللفـظة: الخـطايـا يـرتكبهـا الجميع أو الشخص. إني أفكّـر في الشخص المستغـرق بوعي خـطيئته. إن هـذا الشخص يتعـرَّض بـاستمـرار إلى استيائه الخاص، وإذا ما كان رجل دين، فـإنه يتـرجم ذلك كـأنـه سخط الله تعالى. ويرسم لنفسه صورة كما ينبغي أن تكون، وهي مناقضة دوماً لمعـرفته لـذاته كـما هو حقاً. وإذا كان في وعيه النيِّر قد نبذ منذ أمد بعيد المبـادىء التي تعلّمها وهـو على ركبتيّ أُمه، فإن الشعور بالذنب ربما يكون دفيناً عميقاً في عقله الباطن، فلا يبرز إلا عندما يكون ثملاً أو راقداً. وقد يكون هــذا الشعــور، مــع ذلــك، من القوة بحيث ينتزع منه طعم الحياة. وفي أعمق أعماق ذاته، تـراه يتقبّل بعـد محـظورات طفولتـه. الشتيمـة شرّ؛ الشراب شرّ؛ إظهـار المكـر في الاهتـمامـات العادية شرّ؛ ولا سيما اتّباع الغريزة الجنسية شرّ. الأمر الذي يعني، بالطبع، أنه يحرم نفسه من أي من هذه المتع، ولكن بهجتهـا مسمومـة بالنسبـة إليه للشعـور بأنها تحطّ من قدره. والسرور الوحيد الـذي يسعى وراءه بحتمية، هـو أن يكون حائزاً على رضى والدته وملاطفتها، وهما أمران يتذكّر أنه عرفهما في طفولته. ولمـا لم يعـد هذا السرور فـي متنـاوله. فإن كــل الأشيـاء تفقـد أهميتهـا بالنسبة إليــه؛ ومــا دام ينبغي له أن يخطىء، فإنــه يقـرّر أن يخطىء

بكل جوارحه. إذا أحبّ، فإنه يبحث عن الحنان الأمومي، ولكنه لا يستطيع القبول به لأن صورة والدته تمنعه من احترام المرأة التي يقيم معها علاقات جنسية. وتجعله خيبته قاسياً، ويندم على قسوته، وتبدأ من جديد الدورة الجهنمية للخطايا الخيالية والندامات الحقيقية. تلك هي سيكولوجية عدد كبير من الآثمين المحنّكين في الظاهر. وما يبعدهم عن الطريق الصحيح هو الإخلاص لشيء صعب المنال (الأمّ أو ما يمكن الحلول محلها)، والقانون الأخلاقي السخيف المفروض في الطفولة الأولى. والتخلّص من طغيان المعتقدات وتعلُّقات الطفولة، هي الخطوة الأولى نحو السعادة بالنسبة إلى ضحايا «الفضيلة» الأمومية هذه.

عشق الذات (النرجسية) هو، إلى حدّ ما، نقيض الشعور بالذنب؛ إنه يكمن في عادة إعجاب المرء بذاته، وفي الرغبة بأن يكون محطّ الإعجاب. وإلى حدّ معيّن، هو، بلا ريب، طبيعي، ولا ينبغي أن نرثي له؛ فهو لن يغدو شراً كبيراً إلّا عندما يكون مفرطاً. لدى الكثيرات من النساء، وبخاصة لدى اللواتي ينتمين إلى الطبقات الموسرة، تكون القدرة على الحب ناضبة تماماً، وهي مستبدلة برغبة قوية بأن يكنّ محبوبات من الرجال جميعاً. وعندما تكون مثل هذه المرأة واثقة من حب الرجل، فإنها تفقد كل اهتمام به. والشيء نفسه قد يحدث لدى الرجال، وإن يكن ذلك أقلّ وقوعاً. والمثال الكلاسيكي هو بطل رواية «العلاقات الخطرة». وعندما تبلغ الخيلاء هذا الحدّ، ينعدم وجود أي مكان للاهتمام المخلص بالغير، وبالتالي، لا يعود بوسع الحب اكتساب رضا حقيقياً. وتلقى اهتمامات أخرى إخفاقاً أكثر تدميراً.

إن عاشق ذاته، مثلاً، الذي يستلهم التكريم الذي يُقدَّم إلى الرسامين الكبار، قد يصبح طالب فن، ولكن لما كان الرسم لا يمثّل بالنسبة إليه إلا وسيلة لبلوغ غاية، فإن التقنية لا تغدو شيقة مطلقاً، وكل موضوع لا يُنظر إليه إلّا بالنسبة إلى شخصه ذاته.

وتكون النتيجة الإخفاق وخيبة الأمل؛ بدلاً من أن يُدلَّل كما كان يتوقَّع، فإنه يصبح مبعثاً للسخرية. وتلك هي حال هذه الروائيات (كاتبات الرواية)

اللواتي يجعلن أنفسهن مثاليات دوماً في الروايات التي يضعنها على صورة بطلات. إن كل نجاح جديّ في العمل يتوقف على الاهتمام المخلص في الموادّ المتعلّقة بهذا العمل. وإن مأساة الكثيرين من السياسيين الناجحين أنهم يُحلّون شيئاً فشيئاً شعوراً من النرجسية محل الاهتمام بالمجتمع والاهتمام بالوسائل التي يدافعون عنها. والشخص الذي يهتمّ، وحسب، بشخصه ذاته، ليس جديراً بالإعجاب، ولا أحد يعتبره كذلك.

وينجم عن ذلك أن الشخص الذي يقتصر همه في الحياة على أن يعجب به الناس، ليس على وشك بلوغ هدفه. ولكن، حتى إذا ما نجح، فإنه لن يكون سعيداً تماماً، ذلك بأن الغريزة البشرية ليست أبداً أنانية كلّياً، وعاشق ذاته ينحصر بصورة اصطناعية مثلما يفعل الشخص الذي يسيطر عليه الشعور بالذنب. إن الإنسان البدائي يمكن أن يشعر بالاعتزاز بأنه صيّاد ماهر، ولكنه يقدّر أيضاً نشاط الصيد. وإذا ما تجاوز الغرور حدّاً معيّناً، فإنه يقضي على السرور الناجم عن كل نشاط تكون غايته في ذاته، وهكذا ينطوي الغرور حتماً على البلادة والسأم. وغالباً ما يكون مبعثه فقدان الثقة، والعلاج هو تنمية احترام المرء ذاته. غير أن ذلك لا يمكن بلوغه إلاّ بنشاط مستوحى من اهتمامات موضوعية ومكلّلة بالنجاح.

المصاب بمرض العظمة يختلف عن عاشق ذاته في أنه يرغب في المجد أكثر من الارتياح بأن يروق للآخرين، وفي أنه يبحث عن السرور بأن يكون مرهوب الجانب بدلاً من أن يكون محبوباً.

إلى هذا النوع ينتمي عدد كبير من الغريبي الأطوار، ومعظم الرجال العظماء في التاريخ. وإرادة القوة، كالغرور، عنصر يحتلّ مقاماً كبيراً في طبيعة الإنسان العادي، وينبغي أن تُقبل على علّاتها؛ ولا تصبح مشوّومة إلا عندما تكون مفرطة، أو مقترنة بحسّ غير كافٍ من الحقيقة أو الواقع. في هذه الحالة، يكون الإنسان تعساً أو سخيفاً، إن لم يكن الاثنين معاً. والمعتوه الذي يحسب أنه أمبراطور أو ملك يمكن أن يكون سعيداً من بعض النواحي، ولكن سعادته

ليست السعادة التي قد يرغب فيها الإنسان السليم المعافى. كان الإسكندر الكبير ينتمي، سيكولوجياً، إلى نوع المعتوه ذاته، على الرغم من أنه كان يتمتع بالموهبة الضرورية لكي يحقق حلم المعتوه. ومع ذلك لم يسعه أن يحقق مطامحه الخاصة التي كان مداها يتّسع فور انتهائها. ولما أيقن أنه أشهر فاتح في العالم، استنتج أنه إله. هل كان سعيداً؟ إن إنشاءاته،وسورات غضبه الشديد، وعدم مبالاته بالنساء - كل ذلك يحمل على الاعتقاد بالعكس. ليس ثمة رضا كامل عندما نغذّي عنصراً من الطبيعة البشرية على حساب كل العناصر الأخرى، وليس ثمة أي رضا كامل، أيضاً، عندما نتصوّر العالم مادة خاماً من أجل تمجيد الأنا الشخصي.

إن المصاب بمرض العظمة، عادةً، سواء أكان غير طبيعي أم طبيعياً بالإسم، وحسب، هو نتاج إذلال مفرط. نابوليون عانى من الشعور بعقدة النقص تجاه رفاقه في الصفّ، الذين كانوا ارستقراطيين في حين لم يكن إلا صاحب منحة فقيراً. ولما سمح بعودة اللاجئين إلى فرنسا، لما صار صاحب السلطة، حظي بالرضا وهو يشاهد رفاق الدراسة القدامى ينحنون أمامه. يا للنشوة! غير أن ذلك قاده إلى الرغبة في الحصول على الترضية نفسها من القيصر، والانتهاء على جزيرة القديسة هيلانة، في المنفى. وما دام ليس بوسع أي شخص أن يكون كلّيّ القدرة، فإن حياة يسيطر عليها، وحسب، التعطش إلى السلطة، لا بدّ أن تصادف، عاجلاً أو آجلاً، عقبات منيعة. والوسيلة الوحيدة للحؤول دون أن يزعج هذا الشعور الضمير هو في اللجوء إلى شكل معيّن من العته، مع أن بوسع المرء إذا كان على قدر كافٍ من القوة، أن يسجن أولئك الذين يُبدون له هذه الحقيقة، أو أن يقضي عليهم. إن القمع السياسي، والقمع من الناحية التحليلية النفسية يتلازمان. وليس ثمة سعادة خالصة حيث هناك قمع تحليلي نفسي، بشكل أو بآخر. إن إرادة القوة،ضمن الحدود المعقولة، قد تسهم كثيراً في السعادة؛ ولكن إذا ما جُعلت غاية في الحياة، فإنها تعود إلى الانهيار الأخلاقي والأدبي، إن لم يكن الانهيار الخارجي.

إن الأسباب السيكولوجية لليأس هي، كما يعلم الجميع، كثيرة ومتنوعة.

ولكنها جميعاً تمثّل عاملاً مشتركاً. وقد توصّل نموذج سائد من الرجل التعس هو ذاك الذي حُرم في صباه من الرضا العادي، إلى تقدير هذه الترضية أكثر من سواها؛ وهكذا طبع حياته باتجاه أحادي الجانب، وهو يلحّ إلى أبعد حدّ على تحقيق الأنشطة التي ترتبط بها بدلاً من الأنشطة نفسها. وهناك، مع ذلك، تطوّر أكثر قوة، جد رائج في أيامنا هذه. فقد يشعر المرء أنه مغيظ إلى أبعد حدّ، بحيث أنه لا يبحث عن أي ترضية، ولكنه يرغب، وحسب، في التلهّي والنسيان. وعندها يغدو متحمساً، للسرور، الأمر الذي يعني أنه يجعل الحياة محتملة وهو يصبح أقلّ مرحاً. السكر، مثلاً، هو انتحار مؤقت: فالسعادة التي يجلبها هي سلبية صرف، وتوقُّف وقتيّ للشقاء. عاشق ذاته والمصاب بمرض العظمة يحسبان أن السعادة ممكنة، مع أنهما يستخدمان لبلوغها، الوسائل السيئة؛ غير أن الرجل الذي يسعى وراء التسمّم، في كل أشكاله، يكون قد تخلّى عن كل أمل، إن لم يكن عن الأمل بالنسيان. في هذه الحالة، إن أول ما ينبغي القيام به هو إقناعه بأن السعادة مرغوب فيها. فالأشخاص التعساء، مثل أولئك الذين لا ينامون جيداً، يتباهون دوماً بحالتهم. ولعلّ اعتزازهم هو اعتزاز الثعلب الذي فقد ذيله؛ فإذا كان الأمر كذلك، فإن العلاج يكون في أن نُظهر لهم كيف يسعهم إنبات ذيل جديد. وأحسب أن قلّة من الناس ترفض عمداً السعادة إذا ما رأت وسيلة ما لتكون سعيدة. ولا أنكر أن مثل هؤلاء الأشخاص يمكن أن يوجدوا، ولكنهم ليسوا كثيرين جداً لكي يؤخذوا بعين الاعتبار. إذاً، سأفترض أن القارىء سيختار السعادة. وليس في مكنتي معرفة ما إذا كنت أستطيع مساعدته على تحقيق هذه الرغبة، ولكن، على أي حال، فإن المحاولة لن تسبّب له أي أذى.

٢

الـداء البايروني

من المألوف في أيامنا هذه، كما كان مألوفاً في حقب عديدة في تاريخ العالم، الاعتقاد بأن الحكماء بيننا اكتشفوا تفاهة حماسات صباهم، وأدركوا أن لا شيء له أهمية في هذا العالم. إن الأشخاص الذين يفكّرون هذا التفكير هم تعساء بصدق، ولكنهم فخورون بدائهم الذي يعزونه إلى طبيعة الكون، وهم يعتقدون أن هذا الموقف هو وحده المنطقي بالنسبة إلى الإنسان المتنوِّر. والإعتزاز الذي يحسّون به لكونهم تعساء يجعل الأشخاص الأقل صقلاً ورهافة يرتابون بصحة هذا الموقف؛ وهم يعتقدون أن من يسّره أن يكون تعساً ليس تعساً. إن تفكيرهم مفرط كثيراً في التبسيط؛ هناك حتماً تعويض ضئيل في الشعور بالتفوق والتفهُّم الذي يسكن الأشخاص الذين يشكون من هذا الداء، ولكن ذلك لا يكفي لتعويض خسارة المباهج البسيطة جداً. بالنسبة إليّ، أنا لا أعتقد أن ثمة أي منطق متفوّق في الألم. والحكيم سيسرّه كذلك أن تسمح له الظروف بذلك،

وإذا ما ألفى تأمّل الكون مؤلماً كثيراً، سيحوّل أنظاره إلى مكان آخر. هوذا ما أودّ أن أبرهن عنه في هذا الفصل. أودّ أن أُقنع القارىء أنه مهما تكن الحجج، فإن العقل ليس عقبة في سبيل السعادة؛ وأكثر من ذلك، أنا مقتنع أن أولئك الذين يعزون آلامهم، بكل إخلاص، إلى نظراتهم حول الكون، إنما يضعون المحراث قبل الثيران: الحقيقة هي أنهم تعساء لسبب ليسوا واعين به، وهذا الداء يقودهم إلى الاسترسال طويلاً في المميّزات الأقل استساغة في العالم الذي يحيون فيه.

بالنسبة إلى الأميركيين في عصرنا هذا، فإن وجهة النظر التي أود أن أدرسها عرضها دجوزف وود كراتش في كتاب بعنوان «العقلية العصرية»؛ وبالنسبة إلى جيل أجدادنا، عرض وجهة النظر هذه الشاعر لورد بايرون؛ وبالنسبة إلى البشر في كل الأزمنة والعصور، عرضها مؤلف «سفر الجامعة»، من الكتاب المقدّس.

يقول كراتش: «قضيتنا قضية خاسرة، وليس لنا أي مكان في الكون الطبيعي، ولكننا لسنا حزانى بسبب ذلك لكوننا بشراً. نحن نفضّل أن نموت كرجال، على أن نحيا كحيوانات».

ويقول بايرون:

«ليس ثمة فرح يمكن العالم أن يقدّمه شبيهاً بالفرح الذي ينتزعه، عندما يتلف نزق الشباب في زوال الأحاسيس الكئيب».

ويقول مؤلف «سفر الجامعة»:

«فغبطت أنا الأموات الذين قد ماتوا منذ زمان أكثر من الأحياء الذين هم عائشون بعد، وخير من كليهما الذي لم يرَ العمل الرديء الذي عُمل تحت الشمس».

هؤلاء المتشائمون الثلاثة جميعاً وصلوا إلى هذه النتائج القاتمة بعد أن

عرضوا مباهج الحياة. كراتش عاش في الأوساط الفكرية الرفيعة في نيويورك؛ وبايرون اجتاز سباحة الهيلسبونت، وكانت له علاقات عاطفية كثيرة، ومؤلف «سفر الجامعة» عرف كذلك ملذّات أكثر تنوّعاً: تذوّق الشراب، والموسيقى، وكل أنواع المسرّات، وأنشأ البرك، وكان عنده خدم وخادمات، أبصر أولادهم النور في المنزل. ولكن، حتى في هذه الظروف، لم تتخلَّ عنه حكمته. ومع ذلك رأى أن كل شيء باطل، حتى الحكمة.

«وجّهت قلبي لمعرفة الحكمة ولمعرفة الحماقة ولمعرفة الجهل؛ فعرفت أن هذا أيضاً قبض الريح؛ لأن في كثرة الحكمة كثرة الغمّ، والذي يزيد علماً يزيد حزناً».

ويبدو أن حكمته، عاكسته؛ فبذل جهوداً للتخلص منها، ولكن بلا جدوى: «قلت أنا في قلبي: هلمَّ،أمتحنك بالفرح فترى خيراً، وإذا هذا أيضاً باطل».

ولكن حكمته لم تتخلّ عنه.

«فقلت في قلبي كما يحدث للجاهل، كذلك يحدث أيضاً لي أنا؛ وإذ ذاك فلماذا أنا أوفر حكمة. فقلت في قلبي هذا أيضاً باطل».

«فكرهت الحياة، لأنه رديء عندي العمل الذي عُمل تحت الشمس، لأن الكل باطل وقبض الريح».

من حسن حظ الكتّاب أن الناس لم يعودوا يقرأون المؤلفات الموضوعة منذ سنوات بعيدة، لأنهم لو فعلوا ذلك، لاستنتجوا أنه مهما أمكن القول عن البرك، فإن وضع كتب جديدة هو باطل حتماً. وإذا نحن توصّلنا إلى إثبات أن مبدأ «سفر الجامعة» ليس الوحيد المفتوح أمام الحكيم، فلن يكون ثمة حاجة لأن نقلق بالنسبة إلى التعابير اللاحقة من الحالة النفسية نفسها. وفي برهان من هذا النوع، ينبغي لنا التمييز بين حالة نفسية ما وتعبيرها الفكري. ليس بالوسع

النقاش مع الحالة النفسية؛ فقد تُعدَّل بفضل حدث سعيد، أو بتبدل في حالتنا الجسدية أو الطبيعية، ولكن لا تُعدَّل بواسطة برهان. أنا شخصياً، عانيت مراراً الحالة التي جعلتني أشعر أن كل شيء باطل؛ ولم أتغلّب عليه بأي فلسفة، بل بفضل حاجة ملحّة للتحرّك والتصرُّف. إذا كان ابنك مريضاً، بوسعك أن تكون تعساً، ولكنك لا تعاني الشعور بأن كل شيء باطل؛ إنك تشعر أن شفاء الولد هو قضية يتعينّ الاهتمام بها دونما الاهتمام بمعرفة هل ثمة قيمة نهائية في الحياة أم لا. الشخص الغنيّ قد يشعر (وغالباً ما يشعر) بأن كل شيء باطل، ولكن إذا ما اتفق أن فقد ماله، فإنه لن يجد وجبته التالية باطلاً. هذا الشعور ينطوي على ترضيه جدّ سهلة للحاجات الطبيعية. الحيوان البشري، مثل سائر الحيوانات، متكيّف مع الصراع من أجل الحياة الشديد نوعاً ما، وعندما يستطيع الإنسان (بوصفه نوعاً بيولوجياً)، بفضل ثروة طائلة إرضاء كل رغباته، يزيل مجرد فقدان الجهود في حياته عنصراً أساسياً للسعادة.

إن الشخص الذي يحصل بسهولة على أشياء لا يحسّ تجاهها إلا برغبة جد معتدلة، يخلص إلى الاستنتاج أن تحقيق الرغبة لا يحمل السعادة. إذا كانت له ميول إلى الفلسفة، فإنه يستخلص أن الحياة البشرية بائسة أساسياً، ما دام الإنسان الذي يمتلك كل ما يريد هو بعد بائس وتعس. وينسى أن الاستغناء عن بعض الأشياء التي نرغب فيها عنصر ضروري للسعادة.

هوذا ما كان ينبغي أن يُقال حول الحالات النفسية. مع ذلك هناك أيضاً حجج فكرية في «سفر الجامعة»:

«كل الأنهار تجري إلى البحر، والبحر ليس بملآن».

«ما كان فهو ما يكون، والذي صُنع فهو الذي يُصنع، فليس تحت الشمس جديد».

«ليس ذكرٌ للأولين، والآخرون أيضاً الذين سيكونون لا يكون لهم ذكر عند الذين يكونون بعدهم».

«فكرهت كل تعبي الـذي تعبت فيه تحت الشمس حيث أتـركه لـلإنسان الذي يكون بعدي».

إذا حاولنا ترجمة هذه الحجج بأسلوب فيلسوف حديث، فإننا نصل إلى ما يلي: أن الإنسان لا يفتأ يتعب باستمرار، والمادة هي في حركة دائمة، ومع ذلك ليس ثمة شيء دائم، على الرغم من أن ما سيكـون لا يختلف في شيء عما كـان ومضى. يمـوت الإنسان ويجني وارثـه ثمار تعبـه؛ الأنهار تجري إلى البحـر، ولكن ميـاهها لا تستـطيع أن تبقى فيـه. الناس، بعضهم وراء بعض، في حـركة بـلا نهاية وبلا هدف، البشر والأشياء تـولد وتمـوت دون أن يكون ثمـة أي تحسين، ودون أن نصل إلى نتيجة دائمة، ويوماً بعد يوم، وسنة إثر سنة. لو كان للأنهار حكمـة، لبقيت حيث هي. سليمان الحكيم، لـو كـان حكيـماً لمـا زرع أشجـاراً تصنع ثمارها سعادة ابنه.

ولكن في حالة ذهنية أخرى، لكم يبدو كل شيء مختلفـاً! لا جديـد تحت الشمس؟ أتنسى نـاطحات السحـاب، وبرامـج السياسيـين الإذاعية؟ مـاذا كان يعرف سليمان[١] عن كل هذه الأمور. لو أتيح له أن يسمع من الإذاعة خـطاب الملكة سبأ إلى رعاياها، لدى عودته إلى مملكته، ألم يكن تعزّى عن تفاهة مشاغله وسط أشجاره وبركه؟

لو كان تحت تصرّفه جهاز إعلام ليطلعه على ما تكتبه الصحافة عن جمـال هندسته المعمارية، ورفاهية نساء حريمه، وخيبات أمل منافسيه في الفلسفة، هـل كان استطاع الزعم أن لا جديد تحت الشمس؟ ربما ما كانت هـذه الأمور شفتـه كلياً من تشاؤمـه، ولكنه كـان اضـطر إلى التعبـير عن ذلـك بشكـل آخـر. في الواقع، إن أحد أسباب الاستيـاء الذي يبـديه كـراتش تجاه زمننـا، هو أن ثمـة كثيـراً من الأشياء الجـديدة تحت الشمس. وإذا كـان فقـدان أو وجـود الأشيـاء

---

(١) يتضح أن سفـر الجامعة لم يكتبه حقاً سليمان الحكيم، ولكن من الملائم أن نشيـر إلى المؤلف بهذا الاسم.

مزعجاً أيضاً، فيبدو من المشكوك فيه أن يكون أحدهما السبب الحقيقي للداء. من جديد، فكِّر في مقولة أن «كل الأنهار تجري إلى البحر، والبحر ليس بملآن؛ من أين تأتي الأنهار، هناك تلتقي». إذا ما نُظر إلى ذلك كحقل للتشاؤم، فمعنى ذلك أن السفر مكدِّر. الناس يقصدون الحمّامات المعدنية، ومع ذلك يعودون من حيث أقبلوا. هذا ليس معناه أن لا فائدة من الذهاب إلى حمّامات الاصطياف. لو كانت المياه مزوّدة بأحاسيس، لكانت قدّرت حتماً دورة المغامرات على طريقة سحابة الشاعر شيلّلي. أما بالنسبة إلى الألم لترك ممتلكاته لوارثه، فتلك مسألة يمكن مواجهتها من وجهتي نظر مختلفتين؛ من وجهة نظر الوارث، ذلك حتماً أقلّ شؤماً. ومجرد أن كل الأشياء تنقضي لا يمكن أن يشكّل كذلك أساساً للتشاؤم. إذا كانت أشياء سيئة تعقبها، فإن ذلك سيكون سبباً لاستنتاج التشاؤم، ولكن إذا أعقبتها أشياء أفضل، فهذا سبب لكي يكون المرء متفائلاً. ماذا ينبغي لنا أن نصدّق، إذا كانت تعقبها، كما يزعم سليمان، أشياء مماثلة تماماً؟ ألا يجعل ذلك العملية بأسرها تافهة؟ لا، البتة، ما لم تكن مختلف مراحل الدورة نفسها مؤلمة. إن عادة العيش في المستقبل، والاعتقاد أن كل معنى الحاضر يكمن في ما ينطوي عليه، هو موقف يجلب التعاسة. لا يمكن أن يكون ثمة من قيمة في الكل ما لم يكن هناك قيمة في الأجزاء. لا ينبغي تصوّر الحياة على طراز ميلودراما يجتاز فيها البطل والبطلة تعاسات لا تصدَّق يكافآن عليها بنهاية سعيدة. أنا أحيا، ولي حياتي، وابني يخلفني، وله حياته وابنه بدوره يخلفه، ماذا في ذلك كله يمكن أن يُعتبر مأساوياً؟ على النقيض، لو أنا عشت إلى الأبد، فإن مباهج الحياة ستصبح في نهاية المطاف بلا أي طعم. ولكن لمّا كانت الحال غير ذلك، فإنها تبقى يانعة إلى الأبد:

دفّأت يديّ على نار الحياة؛
إنها تنطفىء، وأنا مستعد للرحيل.

هذا الموقف منطقي مثلما هو منطقي السخط أمام الموت.

إذاً، لو كان ينبغي للحالات النفسية أن ينظّمها العقل، لكان هناك نقاط

في مصلحة السرور بقدر ما هناك من نقاط في مصلحة اليأس.

«سفر الجامعة» مأساوي؛ «العقلية الحديثة» للكاتب كراتش محزنة. كراتش، في الواقع، حزين لأن التأكيدات القديمة من القرون الوسطى انهارت مثل بعض التأكيدات ذات الأصل الأكثر حداثة. كتب يقول: «في ما يتعلّق بزمننا الذي يميّزه اليأس، المسكون بأشباح عالم ميت، ولا يشعر بعد بالراحة في عالمه، فإن موقفه يذكّر بموقف المراهق الذي لم يتعلّم بعد كيف يتجه دون أن يرجع إلى الميثولوجيا التي أمضى وسطها طفولته». هذا الإيضاح صحيح تماماً، إذا ما طُبّق على جماعة معيّنة من المفكرين، أي على أولئك الذين تلقّوا تربية أدبية ولا يعرفون شيئاً عن العالم؛ ولما كانوا علّموهم في صباهم أن يؤسسوا معتقداتهم على انفعالاتهم، فإنهم عاجزون عن الإنفصال عن رغبة طفولية في الأمن والحماية اللتين لا يسع عالم العلم توفيرهما له.

وكراتش، مثله مثل معظم الأدباء، تعذّبه فكرة أن العلم لم يفِ بوعوده. إنه لا يعلمنا، طبعاً، ماذا كانت هذه الوعود، ولكنه يبدو أنه يعتقد أنه قبل ستين سنة، كان أشخاص مثل داروين وهكسلي يتوقّعون شيئاً ما لم يقدّمه العلم. أنا اعتقد أن هذا ليس إلا وهماً غذّاه هؤلاء الكتّاب والكهنة الذين لا يريدون أن تُعتبر اختصاصاتهم قليلة القيمة. صحيح أن العالم في الوقت الحاضر يعجّ بالمتشائمين. وقد كان هناك دوماً كثيرون من المتشائمين حيث كان هناك أُناس تدنّى دخلهم. وكراتش، صحيح، أميركي، والمداخيل الأميركية، على العموم، تضاعفت بسبب الحرب، ولكن في أوروبا بأسرها، تألمت الطبقات الفكرية بصورة فظيعة، والحرب نفسها حملت إلى الجميع الشعور بعدم الاستقرار.

هذه الأسباب الاجتماعية مسؤولة عن عقلية عصر ما أكثر من النظرية التي يضعها أُناس العصر حول طبيعة العالم. قليلة هي العصور التي ميّزها اليأس أكثر من القرن الثامن عشر، علماً أنه في ذلك العصر، كان الإيمان الذي يأسف

له كراتش كثيراً مغذّى بشدّة من جانب الجميع، باستثنـاء الأمبراطـور، وبعض كبار النبلاء الإيطاليين.

وهكذا يكتب رودجر بايكون: «تسود في أيامنا خطايا أكثر ممـا ساد في أي عصر انقضى، والخطيئة لا تتـلاءم مع الحكمـة. لنتفحّص كل الحـالات في هذا العالم، ولنتفحّصها بدقّة في كل مكان بعناية؛ إننا نجد فساداً هائلاً، وقبـل كل شيء سنجـده في رأس الهرم... الفسق يشـين البلاط بـأسره، والنهم هو سيـد الجميع... إذا كان ذلك يحدث في الرأس، فماذا يحدث في الأعضاء؟ انـظر إلى الأسـاقفة: كيف يسعـون وراء المـال ويُهملون معـالجـة النفـوس... لننـظر إلى الأخـويات الـدينية: أنـا لا أستثني أحداً من الحكم الـذي سبق أن أصدرتـه. انـظروا كم هم بعيـدون جميعاً عمـا ينبغي لهم أن يكونـوا، والأخويـات الجديـدة (الـرهبان) قـد تجرّدوا من كـرامتهم الأولى بصورة رهيبـة. إن الأكليروس جميعاً يركّز تفكـيره على الكبرياء، والعجب، والفسق، والبخـل، وحيثما اجتمـع رجال الأكليروس، سـواء في بـاريس أو في أوكسفورد، فـإنهم يثـيرون الشعب بـأسره بحـروبهم، ونزاعـاتهم، وعيوبهم الأخـرى... لا أحد يهتمّ بمـا يجري، وكيف يجري، شرط أن يستطيع إرضاء طمعه».

ويكتب في موضوع الفلاسفة الوثنيين في العصور القديمة:

«كانت حيواتهم، بـلا أي مقارنـة، أفضل من حيـواتنا، سـواء من حيث الحشمة أو من حيث احتقارهم للعالم بكـل مباهجـه، وثرواتـه، وأمجاده، وكـل البشر يسعهم ملاحظة ذلك في أعمال أرسطو، وسينيكا، وتوليوس، وابن سينا، والفـارابي، وأفلاطـون، وسقـراط، وسـواهم، وهكـذا بلغـوا أسرار الحكمـة، واكتشفوا كل معرفة[١]».

---

(١) مستمد من كولتون «من القديس فرنسيس إلى دانتي» ص ٥٧.

لقد شاطر رودجر بايكون رأيه كل معاصريه الأدبيون؛ لم يكن رأي رجل كـان يحبّ العصر الذي عـاش فيه. أنـا لا أعتقد للحـظة واحدة أنـه كان لهذا التشـاؤم سبب ميتـافيـزيقي معيّن. لقـد كـانت الأسبـاب الحـرب، والشقـاء، والعنف.

إن أحد الفصول الأكثر إثارة للحزن في كتاب كراتش يتناول الحبّ. يبدو أن الفكتوريين كانوا يظهرون له إعجاباً شديـداً، ولكن نحن، بروحنـا المتكلّفة الحديثة، نظرنا من خلاله بوضوح. «بالنسبة إلى الأكثر تشككاً من الفكتوريين، كان الحب يملأ إحدى وظائف الله تعالى التي فقدوها. وبصلتهم بـه، كثيرون من ذوي النفوس الأكثر إيجابية غدوا، للمناسبـة، متصوّفـين. وجدوا أنفسهم أمـام شيء، شعـروا في أعمق أعـماق نفـوسهم، أن من واجبهم تقـديم الإخـلاص المطلق. بالنسبة إليهم كان الحب يتـطلّب، مثلما هي الحال مـع الله تعالى، كـل التضحيات؛ ولكن مثله كان يكافىء المؤمن بمنحه ظواهر الحياة معنى لم يكن بعد قد محقته التحاليل. ولقـد اعتدنـا ـ أكثر مما اعتادوا هم ـ عـلى كون بـلا إله، ولكننا لم نعتد بعـد كونـاً يكون أيضـاً بلا حب، ولن نفهم مـا معنى الإلحاد إلاّ عندما نبلغ هذه المرحلة». ومن الغـريب أن نلاحظ كم يبـدو العصر الفكتوري مختلفاً في نظر معاصر، أو في نظر شاب من جيلنا. أنـا أذكر سيـدتين عجوزين (كلتاهما تمثّل بصورة عجيبة بعض مظاهر ذلك العصر) عرفتهما جيداً في صباي. كـانت إحداهمـا متزمّتـة، وكانت الأخـرى فولتـيرية النـزعة. الأولى نعت عـلى الشعر معالجة الحب في معظمه، وهي تعتبر الموضوع بـلا أهمية. والثـانية كـانت تردد: «لا يسع أحداً أن يتقوّل عـلي بشيء، ولكنني أردد دوماً انـه يُستحسن أن يخالف المرء الوصية السادسة من الوصايا العشر بدلاً من الوصية السابعة، ذلـك بأن الوصية السادسة، على الأقلّ، تتطلّب مـوافقة الفـريق الآخر». لا رأي من هذين الرأيين كان تماماً ما قدّمه كراتش عـلى أنه فكتـوري نموذجي. ان أفكـاره مستمدّة من بعض الكتّاب الذين لم يكونوا منسجمين البتة مع محيطهم. وأفضل مثال، على ما أعتقد، هو مثال الشاعر روبرت براوننغ. ومع ذلك، لا يسعني أن أتحلّل من الاعتقاد بأن ثمّة شيئاًمغمّاً في الحب كما تصوّره.

«ليتمجّد الله! إن لأبسط مخلوقاته روحين: إحداهما لمجابهة العالم، والأخرى لإبرازها إلى المرأة عندما يحبّها».

إن هذا يحمل على الافتراض أن العدوانية هي الموقف الوحيد الممكن تجاه العالم عموماً. لأن العالم قاسٍ، كما يقول براوننغ. لأنه لا يحكم عليك بحسب قيمتك، كما نقول نحن. إن زوجين بوسعهما أن يكوّنا ـ كما فعل الزوجان الشاعران روبرت وإليزابث باريت براوننغ ـ شركة يكون فيها الإعجاب متبادلاً. إنه لمستحبّ كثيراً أن يكون في متناول اليد شخص يطري دوماً عملك سواء استحق الإطراء أم لا. وكان براوننغ يشعر حتماً أنه امرؤ جذّاب ورجولي عندما وشى، دون أن يقدّر عباراته، بفتزجيرالد لأنه لم يعجب باوروا لي. ولا يسعني الاعتقاد بأن فقدان روح النقد هذا من كلا الجانبين أمر رائع حقاً. إن ذلك سببه الخوف والرغبة في الاعتصام ضد النفثات المثلجة للنقد غير المتحيّز. كثيرون من العازبين المتقدمين في السن يتعلّمون كيف يستمدّون الترضية نفسها من ركنهم الخاص بالقرب من الموقد. لقد عشت شخصياً زمناً طويلاً في العصر الفكتوري لكي أعتبر عصرياً بحسب معايير كراتش. لم أفقد بتاتاً إيماني بالحب، ولكن الحب الذي أؤمن به ليس ذلك الذي أعجب به الفكتوريون؛ إنه يحب المغامرة، وهو متيقّظ؛ وفي الوقت نفسه الذي يعلّم فيه الخير، فهو لا يفرض نسيان الشر. إن عزو هذه الخلال إلى الحب كما كان مثار إعجاب، كان نتيجة التحريم المتعلّق بالحياة الجنسية. لقد كان الفكتوري مقتنعاً بعمق بأن غالبية الأمور الجنسية كانت لا أخلاقية، وكان ينبغي له أن يحمّل بنعوت مبالغ فيها الحب الذي قد يكنّه. كان هناك قابلية جنسية أكثر مما هناك في أيامنا هذه، وقد جعلت هذه الحالة، بلا أدنى ريب، الناس يبالغون في أهمية الجنسانية مثلما فعل النسّاك دوماً. ونحن نجتاز في هذه الأيام أزمة مشوّشة بعض الشيء، وقد نبذ كثيرون المعايير القديمة دون أن يحصلوا على معايير جديدة. ويقودهم هذا إلى قلاقل مختلفة، ولما كان لا شعورهم، في معظم الوقت، ما يزال يعتقد بالمعايير القديمة، فإن الاضطرابات، عندما تحدث، تنطوي على اليأس، والندم، والتهكم. أنا لا أعتقد أن الأشخاص الذين يحدث لهم ذلك كثيرون، ولكن

صوتهم هو الذي يتردد أكثر من سواهم في أيام الناس هذه. وأنا أحسب أننا إذا قارنّا متوسط الشبّان الميسورين في هذه الأيام بمتوسط الشبّان في العصر الفكتوري، لتبيّن لنا أن الحب حالياً ينطوي على الكثير من السعادة؛ ونؤمن به بصدق أكثر مما كنا عليه منذ ستين سنة. إن الأسباب التي تؤدي ببعض الأشخاص إلى التهكم مشدودون إلى الطغيان الذي تمارسه المثل القديمة على اللاشعور، وإلى فقدان علم أخلاق منطقي يستطيع أناس عصرنا أن يسوّوا عليه سلوكهم. ولا يكمن العلاج في النحيب وفي الحنين إلى الماضي، ولكن في قبول أكثر شجاعة للعقلية الحديثة، وفي القرار لاستئصال الخرافات المنبوذة ظاهراً من مخابئها المعتمة.

ليس من السهل أن توضح بإيجاز الأسباب التي من أجلها تمنح قيمة للحب؛ ومع ذلك، سأحاول القيام بهذه التجربة. أولاً، ينبغي أن يكون الحب معتبراً ـ وهذا، على الرغم من عدم كونه قيمته الكبرى، ضروري لكل ما تبقّى ـ بصفة كونه في حدّ ذاته مصدر غبطة.

آه! أيها الحب! إنهم غير منصفين تجاهك،
أولئك الذين يقولون إن حلاوتك مُرّة،
في حين أن ثمرتك الغنية هي
أعذب من أي شيء آخر.

إن صاحب هذه الأسطر المجهول لم يبحث عن حلّ للإلحاد، أو عن مفتاح للغز الكون، كل ما فعله هو أنه اغتبط. وليس الحب، وحسب، مصدر غبطة، بل إن فقدانه هو أيضاً مصدر ألم. في المقام الثاني، ينبغي أن يكون الحب معتبراً لأنه يُثري المسرّات والمباهج الأكثر رهافة، مثل الموسيقى، وشروق الشمس فوق الجبال، والبحر في ضوء القمر. والشخص الذي لم يتذوّق قط رؤية الأشياء الجميلة برفقة المرأة المحبوبة لم يحس تماماً بالقوة السحرية التي تتمتع بها هذه الأشياء. وفضلاً عن ذلك، فإن الحب قادر على تحطيم قشرة الأنا القاسية، ما دام نوعاً من التعاون على الصعيد البيولوجي حيث الانفعالات والمنجزات الأدقّ التي تفرضها الغريزة لدى الشريكين، ينبغي أن تتكامل.

كان في العالم، في عصور مختلفة، فلسفات شتّى لمتوحـدّين؛ بعضها كـان شديد النبل، والبعض الآخر كان أقلّ نبلاً. فالرواقيون (أو الزينيّون، نسبـةً إلى زينـونٍ الرواقي) والمسيحيـون الأوائل، كـانوا يعتقـدون أن الإنسان بـوسعه أن يُحقق أقصى الخير الذي تستطيع الحياة البشرية تقديمه بواسطة إرادته الشخصية، أو على الأقلّ، بلا أي مساعدة بشرية؛ وآخـرون اعتبروا السلطة غـاية الحيـاة، والبعض الآخـر، كذلـك، اعتقدوا أن الغـاية كـانت، بكل بسـاطـة، الملذات الشخصية. كل هذه الفلسفات هي فلسفـات متوحّـدين، بمعنى أن الخير ينبغي أن يُحقق في كل شخص، وليس، وحسب، في مجتمع أفراد على جانب معينّ من الأهميـة. وفي رأيي، إن كل وجهـات النظر هـذه خاطئـة، ليس، وحسب، إذا اعتُبرت نظريــة أخلاقية، ولكن أيضاً كتعبير عما هـو الأكثر نبـلاً في غرائـزنا. إن الإنسان يتعلّق بجاره. وقد حبته الطبيعة ـ وإن بقدر غير كافٍ حقاً ـ بجهاز غرائز يمكن أن ينطوي على الحنان الضروري للتعاون. والحب هو الشكل الأول والمألوف أكثر للانفعال الذي ينطوي على التعاون، وأولئك الذين أحسّوا به بقوة لن يسعهم الاكتفـاء بفلسفة تقـول إن أكـبر اهتـمامـاتهم مستقـل عن اهتـمامـات الشخص المحبوب. في هذا الصـدد، إن حب الوالـدين لأولادهـم هو إحسـاس أقـوى بعد، ولكننـا لا نجد هـذا الإحساس في شكله الأنقى إلا إذا تسبّب عن حبّ الوالدين المتبادل.

أنـا لا أزعم أن الحب في شكله الأسمى هـو شيء مـألـوف، ولكنني أُصرّ على أنه في هذا الشكل يكشف قيماً، ستبقى من دونه، مجهـولة، وأزعم كـذلك أن له قيمة لا تؤثر فيها الشكـوكية، عـلى الرغم من أن النـاس الذين يعجـزون عن الإحساس به يُغرون بأن يعزوا، احتقاراً، عجزهم إلى شكوكيتهم.

الحب الحقيقي هو نار مستديمة
في الفكر مشتعلٌ دائماً،
حيّ دائماً، لا يموت أبداً، ولا يبرد أبداً،
ووفيّ دائماً لذاته.

وأصل الآن إلى ما كتبه كراتش حـول موضـوع المأسـاة (التراجيـديا) إنـه

يـزعم، وهنا لا يسعني إلا أن أوافقـه، إن مسرحية «الأشبـاح» لهنريـك إبسن، أدنى مستوى من مسرحية «الملك لير» لشكسبير. «ليس ثمـة قوة تعـابير مكـثّرة، ولا بلاغة أسمى، يمكنهما أن تحوّلا إبسن إلى شكسبير. فالمواد التي صنع بها هذا الأخير أعماله ـ مفهومه للكرامـة البشرية، وإدراكـه أهمية الانفعـالات البشرية، ورؤيته لسعة الحيـاة البشرية ـ لم تـوجد، ولم يكن ممكنـاً أن توجـد لدى إبسن، مثلما لم توجد ولم يكن ممكناً أن توجد لدى معاصريه. إن الله تعـالى، والإنسان، والطبيعة، قـد صغّروا جميعـاً، إذا صحّ القـول، خلال هـذه القرون الأخـيرة، العقيدة الواقعية للفن الحديث لكي لا تجعلنا نبحث عن الأشخاص البـين بين، ولكن لأن هذه الحقارة في الحياة البشرية فُرضت علينا نوعاً ما بـالعملية نفسهـا التي أنتجت فيها نظريات واقعية حول الفن يمكن أن تبرّر رؤيتنا».

ومن الأكيد أن نوع المسرحية الذي عفّى عليه الزمن، والـذي يضع عـلى المسرح أمـراء، ويصوّر شجـونهم، لم يعد ينـاسب عصرنا، وعنـدما نحـاول أن نعالج، بـالطريقـة نفسها، شجـون امرىء مغمـور، لا يكون التـأثير هـو إياه. والسبب، مـع ذلـك، ليس في انحـطاط في مفهـومنــا للحيـاة، والعكس هـــو الصحيح. إن هذا التبـدّل مردّه إلى أننـا لم نعد نستـطيع أن نعتـبر بعض الأفراد ـ العـظماء عـلى الأرض ـ الـوحيـدين الـذين يحقّ أن يكـون لهم انفعــالات مأساوية، في حين أن كل ما تبقّى ينبغي، وحسب، أن يكدّ ويتعب لكي يُسهم في جلال هذه النخبة. يقول شكسبير:

عندما يموت المتسولون، لا يظهر أي مذنّب،
السموات نفسها، ملتهبة، تعلن موت الأمراء.

في زمن شكسبير، لم يكن هذا الشعور، إذا لم يؤخذ بالمعنى الحرفي ـ أقلّ تعبيراً عن مفهوم كان عامّاً تقريباً. وكان شكسبير نفسه يؤمن بـه بعمق. وينجم عن ذلـك أن مـوت الشـاعـر هــزلي ومضحـك، في حين أن مــوت كـل من قيصر، وبروتوس، وكاسيوس مأساوي. إن المعنى الكـوني لموت شخص ضـائع بالنسبة إلينـا، ذلك بـأننا غـدونا ديمقـراطيين، ليس ظـاهريـاً، وحسب، بل في قنـاعاتنـا الأكثر حميميـة أيضاً. وفي أيـامنا هـذه، يُستحسن أن تـدرس المـأسـاة

(التراجيديا) الكبرى مصير الجماعة،لا مصير الفرد. ولتوضيح وجهة النظر هذه، سأورد مثل «ماسرمنش» لإرنست تولر (مسرحي وسياسي ألماني (١٨٩٣ - ١٩٣٩). أنا لا أريد القول ان هذا العمل هو من عيار أفضل أعمال الماضي، ولكنني أؤكد أن بالوسع مقارنته بها بحقّ. إنه نبيل، وعميق، ومعاصر، حركته بطولية، وهو «يطهّر القارىء بالشفقة والرعب»، كما ينصح بذلك أرسطو. وهناك مع ذلك أمثلة قليلة من هذا النوع من التراجيديات الحديثة، ذلك بأن التقنية القديمة، والتقاليد القديمة ينبغي أن تُهمل دون أن تُستبدل بأفكار عامة كتبية صرف. لكتابة تراجيديا، ينبغي للمرء أن يكون لديه الحس التراجيدي (المأساوي). ولكي يتوفّر له الحس المأساوي، ينبغي له أن يكون واعياً العالم الذي يعيش فيه، ليس بفكره، وحسب، بل بدمه وبأعصابه.

وكراتش، في كتابه جميعاً، وفي فترات منتظمة، يتحدث عن خيبة الأمل، ونحسّ بأننا متأثرون بقبوله البطولي بعالم كئيب، طابعه الموحش يعود إلى إنه ومعظم الكتّاب الآخرين لم يتعلّموا بعد الإحساس بالانفعالات القديمة ردّاً على المثيرات الجديدة. المثير موجود، ولكن ليس وسط التكتلات الأدبية. فليس للتكتلات الأدبية الاتصال الحيوي مع حياة الجماعة، وهذا الاتصال ضروري إذا شئنا أن تكتسب المشاعر البشرية هذه الجديّة وهذا العمق اللذين ينجم عنهما في آن معاً التراجيديا والسعادة الحقيقة.

إلى كل هؤلاء الشبّان الممتلئين موهبة الذين ينطلقون وراء المغامرة، معتقدين أنه ليس ثمة من عمل في هذا العالم، أقول: «لا تحاولوا الكتابة؛ على النقيض، حاولوا ألاّ تكتبوا. جوبوا أرجاء العالم؛ كونوا قراصنة، وملك بورنيو، احرثوا حقول روسيّا السوفيات؛ كرّسوا وقتكم لحياة يحتفظ فيها إرضاء أو إشباع الحاجات الجسدية الأكثر بدائية كل طاقاتكم تقريباً».أنا لا أوصي بهذه الطريقة كل واحد، ولكن، وحسب، أولئك الذين يشكون من الداء الذي شخّصه كراتش. وأعتقد أنه بعد بضع سنوات من هذه الحياة، سيشعر المفكر أنه على الرغم من جهوده، لا يعود بوسعه كبح حاجته إلى الكتابة، وعندما تحين اللحظة، لن تبدو له الكتابة تافهة!

٣

روح المنافسة

إذا سألت أميركياً أو رجل أعمال عصرياً ما يُفسد أكثر من سواه سروره في الحياة، فإنه سيجيبك: «الصراع من أجل الحياة». يقول ذلك بكل إخلاص، وهو يؤمن بذلك. إن ذلك صحيح، من بعض النواحي؛ ولكن، من ناحية أخرى، وهي ناحية مهمة، فإن هذا التأكيد خاطىء كثيراً. إن الصراع من أجل الحياة، بالطبع، هو حدث يمكن أن يقع. إذا ما عاكسنا الحظ، فإنه يتعينّ على كل واحد منا أن يضطر إلى الصراع من أجل حياته. وهذا حدث، مثلاً، لفولك، بطل الروائي البريطاني، جوزف كونراد، عندما وجد نفسه على متن سفينة مهجورة؛ كان واحداً من اثنين من طاقم السفينة اللذين يمتلكان أسلحة نارية، ولم يكن ثمة مهرب من التهام رفاقه. وعندما فرغ الرجلان من تناول وجباتهما التي استطاعا الإتّفاق عليها، نشب بينهما صراع حقيقي من أجل الحياة. وكسب فولك، ولكنه ظل نباتياً طوال ما تبقّى من حياته. إذاً، ليس

ذلك ما يعنيه رجل الأعمال بعبارة الصراع من أجل الحياة. إنها عبارة غير صحيحة التقطها لكي يسبغ الكرامة على شيء تافه أساساً. سله كم عرف من الأشخاص الذين ينتمون إلى طبقته الإجتماعية قضوا جوعاً. سله ماذا حلّ بأصدقائه الذين أفلسوا. الجميع يعرفون أن رجل الأعمال الذي أفلس هو أوفر حظاً بالنسبة إلى الرفاه المادي من الرجل الذي لم يكن يوماً غنياً كفاية لكي يحالفه الحظ بالإفلاس. إذاً، ما نعني بالصراع من أجل الحياة هو، في الواقع، الصراع من أجل النجاح. إن ما يخشاه الناس عندما يتورطون في الصراع، ليس أنهم سيُحرمون من الفطور صبيحة اليوم التالي، ولكن لأنهم لن يستطيعوا بزّ جيرانهم أو التفوق عليهم.

من الغريب أن نلاحظ كم من الأشخاص يبدون أنهم يعون أنهم لم يسقطوا في شرك آلية لا مخرج منها؛ وهم لا يرون أنهم إذا ما راوحوا مكانهم في عمل روتيني، فلأنهم لم يفهموا أن هذا العمل عاجز عن رفعهم. إني أُشير، بالطبع، إلى كبار رجال الأعمال، إلى أولئك الذين لديهم دخل حسن، وبوسعهم، إذا ما رغبوا، أن يعيشوا مما لديهم. إن مثل هذا التصرّف يبدو مخجلاً بالنسبة إليهم، وسيكون لديهم الانطباع بالفرار من الجيش أمام العدو، ولكن إذا ما سألتهم أي قضية عامة يخدمون بعملهم، عجزوا عن الإجابة، بعد أن يكونوا قد استنفدوا كل التفاهات في الدعاية التي تُنسج حول حياة كلها جهد.

تفحّص حياة رجل مماثل. لنفرض أنه يمتلك منزلاً جميلاً، وله زوجة وأولاد ظرفاء. إنه يستيقظ باكراً في الصباح بينما هم ما يزالون نائمين، ويسرع إلى مكتبه. هناك، يضطر إلى إبراز خاصياته كرئيس كبير؛ يُبدي مظهر الشخص المصمِّم، ويؤثر طريقة في الحديث لا تنتظر أي ردّ، ومظهر التحفّظ الفطن، وكل ذلك للتأثير في الجميع، باستثناء الحاجب في المكتب. يُملي الرسائل، ويتخابر تليفونياً مع أشخاص كثر مهمين، ويدرس أوضاع السوق، ويُنهي فترة ما قبل الظهيرة بغداء برفقة بعض الزملاء ممن يتناقش وإياه في صفقة

ممتازة. ويتكرر ذلك طوال ما بعد الظهيرة. ويعود إلى المنزل، متعباً، في الوقت الذي ينبغي له أن يبدّل ملابسه لتناول العشاء. وعلى العشاء، هو ورجال آخرون متعبون، يتعينّ عليهم التظاهر بأنهم يجدون سروراً في رفقة السيدات اللواتي لم تُتح لهن فرصة الشعور بالتعب بعد. ويستحيل التكهّن بالساعات التي ينبغي أن يقضيها الرجل المسكين قبل أن يتاح له التخلّص. وأخيراً يأوي إلى سريره، ولبضع ساعات، يلطّف التوتر.

إن لحياة هذا الرجل من ناحية العمل طابعاً سيكولوجياً لسباق المائة متر؛ ولكن لما كان للسباق الذي يشترك فيه القبر بمثابة هدف، يصبح التركيز الذي يلائم جيداً نوعاً ما سباق المائة متر في النهاية مفرطاً قليلاً. ماذا يعرف عن أولاده؟ إنه، خلال الأسبوع، يلازم المكتب؛ يوم الأحد يكون في ملعب الغولف. ماذا يعرف عن زوجته؟ عندما يغادرها صباحاً، تكون مستغرقة في النوم. خلال السهرة، يكون الإثنان مرهقين بالواجبات الاجتماعية التي تحول دون أي حديث حميم. ليس له، ربما، أصدقاء حقيقيون، على الرغم من أن له بعضهم ممن يكّن لهم وداً يودّ الإحساس به. إنه لا يعرف لا الربيع ولا الخريف، إلا بالنسبة إلى تأثير هذين الفصلين في السوق؛ ولعلّه شاهد بلداناً أجنبية، ولكن بعينيّ رجل يسأم سأماً عميقاً. الكتب تبدو له تافهة، والموسيقى تتجاوزه. وسنة بعد سنة، يغدو أكثر عزلة، ويصبح اهتمامه متركّزاً أكثر فأكثر، وتجفّ حياته خارج إطار الأعمال أكثر بعد. رأيت الأميركي من هذا النوع الذي يقارب الستين، وقد أمَّ أوروبا برفقة زوجته وابنتيه. ومما لا شك فيه، أنهنّ أقنعن الرجل المسكين بأن الأوان آن لكي يمنح نفسه عطلة، وأن يتيح لابنتيه فرصة زيارة العالم القديم. وتحيطه زوجته وابنتاه بإعجاب شديد، ويلفتن انتباهه إلى كل تفصيل جديد يبدو لهن متميّزاً. وربّ الأسرة، المضنى كثيراً، يتساءل ماذا يجري الآن في مكتبه، أو ماذا يحدث في عالم البيسبول. وينتهي الأمر بأن يتخلّى عنه العنصر النسائي في أُسرته، ويصل إلى الاستنتاج أن كل الذكور غير مثقّفين أو غير مستنيرين. فلا يخطر أبداً ببالهن أنه ضحية نهمهن؛ وهذا لا يشكّل الحقيقة الراهنة، مثل السوتية التي ليست حقاً ما تبدو في عينيّ الأوروبي.

(السوتية هي الأرملة الهندوسيّة التي تحرق نفسها في محرقة زوجها المتوفى علامةً على إخلاصها له).

ربما كانت الأرملة الهندوسية، في تسع حالات من عشر، ضحية طوعية، مستعدة لأن تُحرق حباً بالمجد، ولأن الدين يأمر بذلك. إن دين رجل الأعمال ومجده يفرضان أن يكسب المال الوفير؛ ولذا، على غرار الأرملة الهندوسية، يشكو من العذابات، وليس لديه هَمّ. وإذا شاء رجل الأعمال الأميركي أن يغدو أكثر سعادة، يتعينّ عليه تغيير دينه. ما دام هو راغب في النجاح، وهو مقتنع تماماً بأن من واجب الإنسان أن يطارد النجاح، وما دام مقتنعاً بأن الإنسان الذي لا يتصرّف على هذا النحو مخلوق مسكين، فإن حياته تبقى جدّ متوترة، وقلقة، ولا تعرف السرور. إليك مثلاً سهلاً، هو الاستثمار. يفضّل كل الأميركيين تقريباً الحصول على ٨ بالمائة من استثمار خطر، بدلاً من ٤ بالمائة من استثمار أكيد. وتكون النتيجة خسائر مالية متكررة، وهموم، متواصلة. من ناحيتي، إن ما أرغب في الحصول عليه من المال، هو أوقات الفراغ والشعور بالأمن. غير أن غاية الرجل العصري النموذجي هي تحصيل المال، والمزيد من المال بحيث يستطيع التباهي بالبذخ وبزّ الذين كانوا حتى ذلك الحين أقرانه. إن السلّم الاجتماعي، في أميركا، غير دقيق، ومتقلّب باستمرار. وينجم عن ذلك أن كل الانفعالات السطحية تصبح أكثر زعزعة مما لو كان النظام الاجتماعي ثابتاً؛ وعلى الرغم من أن المال وحده قد لا يكفي لجعل الناس ذوي أهمية، فمن الصعب أن يكون المرء مهمّاً دون مال. من جهة أخرى، يُقاس الذكاء بالنسبة إلى المال الذي يكسبه المرء. فالشخص الذي يكسب كثيراً هو امرؤ ذكي؛ والشخص الذي لا يفعل ذلك، ليس ذكياً. لا أحد يحبُّ أن يُعتَبر أحمق. ومن هنا، عندما تتعرض السوق إلى تقلُّبات، يستشعر ما يستشعره الطلاب الذين ينبغي لهم خوض الامتحانات.

في رأيي، ينبغي الاعتراف بأن عنصر خوف حقيقي، من نتائج الإفلاس ـ مهما يكن غير معقول هذا الخوف ـ يدخل غالباً في اضطرابات رجل الأعمال

الفكـرية. وعـلى الرغم من ثـراء بطل إحـدى روايات آرنـولـد بينيت، المسمّى كلايهانغر، فقد ظل يطارده الخوف من الانتهاء في المأوى. أنا مقتنع بأن أولئـك الذين ذاقوا فقراً مدقعاً وعانوا منه الأمرّين في طفولتهم، تطاردهم الخشية من أن يعـرف أولادهم المصير نفسـه، ويبدو لهم من المستحيـل تقـريبـاً جمع المـلايـين الضرورية لبناء حاجز ضد هذه الكارثة.

إن هذه المخاوف، ربما كانت محتـومة في الجيـل الأول، ولكن ثمة فـرصاً أقلّ لكي تعذّب أولئـك الذين لم يعـانوا فقـراً شديـداً. إنها في كل الحـالات في المشكلة، عنصراً استثنائياً، وقليل الأهمية.

إن كل الشر متأتٍّ من أننا نشدّد كثيـراً على النجـاح في المنافسـة على أنـه المصدر الرئيسي للسعادة. أنا لا أُنكـر أن الشعور بـالنجاح يجعـل الحياة أحـلى. لنأخذ مثل الرسّام الذي كان مغموراً طوال شبابـه؛ طبعاً، سيشعـر بالسرور إذا ما اعتُرف بموهبته. ولست أنكر أيضاً، أن المال قادر، إلى حدّ ما، على مضاعفـة السعادة؛ ولكن أبعد من هذا الحدّ، أعتقد أنه لا يعود فعّالاً. ومـا أقول بـه هو أن النجـاح لا يمكن أن يكـون سـوى عنصر بسيط من عنـاصر السعـادة، ولا يسـاوي الثمن الذي دفعنـاه فيه إذا مـا تمّت التضحيـة بكـل العنـاصر الأخـرى للحصول عليه.

إن مصدر هذا الشر هو الفلسفة التي نكوّنها في بعض الأحيان عن الحياة والأوساط التجارية. في أوروبا، هناك حقاً أوسـاط أخرى لهـا اعتبار. في بلدان عـدة، هناك ارستقـراطية؛ في كـل البلدان هناك مهن حـرّة (يُستثنى منهـا بعض البلدان القليلة الأهمية)، وفي كل البلدان يتمتع الجيش والبحرية باحـترام كبير. ولكن، ما دام صحيحاً أن عنصر المنـافسة يـدخل في النجـاح، فلا أهميـة لمهنة الإنسان؛ ومن ناحيـة ثانيـة، مع ذلـك، إن ما نحـترمه ليس وحسب النجـاح، ولكن الجدارات التي يعود إليها الفضل في النجاح، مهما تكن. إن العالِم بوسعه أن يكسب المال أو أن لا يكسب؛ إنه حتماً لا يُحترم أكثر إذا ما كسبـه. ولا أحد يُدهش إذا ما صادف جنرالاً أو أميرالاً مشهورين، ولكنهـما فقيران. في الـواقع،

الفقر في هذه الحالات، هو، كما يقولون، شرف في حدّ ذاته. لهذه الأسباب، يقتصر الصراع في أوروبا، وحسب، على كسب المال على بعض الأوساط التي ليست، ربما، من بين الأوساط الأكثر نفوذاً والأكثر احتراماً. في أميركا، لا تُطرح القضية على هذه الصورة. الوظائف العامة تمثّل دوراً صغيراً جداً في الحياة القومية لكي يكون لقيمها شيء من التأثير أو النفوذ. اما في ما خصَّ المهن الحرة، فلا يسع أي شخص عادي جاهل بأصول فن أو علم القول ما إذا كان طبيب ما أو محامٍ يتقنان حقاً مهنتهما، ولذا يسهل أكثر الحكم على جدارتهما من المداخيل المستنتجة من نهج حياتهما. أما في ما يتعلّق بالأساتذة، فهم خدم مأجورون لدى رجال الأعمال، ولأنهم كذلك، تراهم يتمتعون باحترام أقلّ من الاحترام الذي يتمتع به زملاؤهم في البلدان الأقل شباباً. وينجم عن كل ذلك أن المهن الحرة في أميركا تحذو حذو رجال الأعمال، ولا تشكّل، كما في أوروبا، طبقة منفصلة. لذلك، لا نجد في كل الطبقات الميسورة، شيئاً يمكن أن يلطّف الصراع البدائي جداً الذي يُخاض من أجل النجاح المالي.

يشعر الصبيان الأميركيون في طفولتهم المبكرة، أن هذا الشيء هو الوحيد الذي يحسب له حساب، ولا يرغبون في تعليم مجرّد من كل قيمة مالية. في الماضي، كان التعليم يُتصوّر خصوصاً، تدريباً بقصد البهجة، وعندما أقول بهجة أفكّر في الاستمتاع بهذه المباهج الأكثر أناقة ورهافة التي ليست في متناول ذوي العقول الجاهلة. في القرن الثامن عشر، كانت إحدى خصائص «الجنتلمن» أن يجد متعة في الأدب، والرسم، والموسيقى. في أيامنا الحاضرة، بوسعنا ألا نتفق وهذا الميل، ولكن لنعترف بأنه كان مخلصاً على الأقل. وقد أوجد الرجل الثري في أيامنا هذه، نموذجاً مختلفاً. إنه لا يقرأ البتة. وإذا أراد اقتناء مجموعة من اللوحات الفنيّة بنيّة إثراء مجده، تراه يلجأ إلى خبير لكي يختار لوحاته؛ والسرور الذي يجنيه منها لا يتأتّى من تأمُّل هذه اللوحات، ولكن من كونه يحول دون أن يمتلكها رجل ثري آخر. وفي ما يتعلّق بالموسيقى، فإذا كان يهودياً، فقد يكون له حكم مخلص؛ وإلا كان جاهلاً مثلما هو جاهل بالنسبة إلى سائر الفنون. وينتج من ذلك كله، أنه لا يدري ما يفعل بأوقات فراغه. وبقدر

ما تتضاعف ثروته، تتضاعف كذلك سهولته في كسب المال، حتى يبلغ الحدّ الذي تجلب له خمس دقائق في اليوم من الثروة أكثر مما يسعه إنفاقه. وهكذا يجد المسكين نفسه متفرّغاً تماماً. وينبغي أن يحدث ذلك حتماً ما دام النجاح، في حدّ ذاته، سيُعتبر هدفاً في الحياة. وإذا لم يتعلم المرء كيف يتصرّف بنجاحه، فإن النجاح سيدعه حتماً فريسة للسأم.

إن عادة التنافس تغزو بسهولة المناطق التي هي غريبة عنها عموماً. خذ، مثلاً، قضية المطالعة. نقرأ كتاباً ما لسببين اثنين: الأول هو المتعة التي توفّرها قراءة الكتاب؛ والآخر هو الغرور الذي نشعر به لدى التحدث عنه. لقد أصبح من الظرف والأدب بالنسبة إلى بعض السيدات، في أميركا، أن يقرأن كل شهر (أو التظاهر بالقراءة) بعض الكتب؛ البعض منهن يقرأنها، الأخريات يتصفحن الفصل الأول، والباقيات يطالعن المراجعات لهذه الكتب، ولكن جميعهن لديهن هذه الكتب على طاولاتهن. ومع ذلك لا يقرأن أي رائعة أدبية. لم تختر «أندية الكتب» قط في أي شهر مسرحية «هملت» أو «الملك لير» لشكسبير، ولم يمرّ شهر قط مسّت الضرورة للاهتمام بدانتي. وتكون النتيجة أنه لا تُقرأ سوى كتب حديثة، أو كتب لا قيمة لها، دون أي من الروائع على الإطلاق. وهذا أيضاً هو نتيجة روح التنافس؛ وهذه النتيجة ليست، ربما، سيئة كلياً ما دامت غالبية النساء المشار إليهن، إذا ما تُركت وشأنها، وإذا لم تقرأ روائع أدبية، فإنها تقرأ كتباً أقلّ جودة من الكتب التي اختارها لها رعاتها الدينيون والأسياد الأدبيون.

إن أهمية روح المنافسة في الحياة العصرية هي ذات صلة بالانحطاط العام في مستوى الثقافة، مثلما كان حتماً أن يحدث ذلك في روما، بعد عصر أغسطس. فالرجال والنساء يبدو أنهم غدوا عاجزين عن تقدير مباهج فكرية أكثر. ففن المحادثة، مثلاً، الذي رُفع إلى مرتبة الكمال في الصالونات الأدبية الفرنسية في القرن الثامن عشر، كان بعد، قبل أربعين سنة، تقليداً حيّاً. كان فناً من أُلطف الفنون يُشرك قوى الذهن الأكثر رفعة، وذلك من أجل شيء زائل

كلياً. ولكن مَنْ، في أيامنا هذه، سيهتمّ بعمل قليل الجدية؟ في الصين، كان هذا الفن ما يزال مزدهراً في أوائل القرن العشرين، ولكنني أحسب أن الحماسة التبشيرية للنظام قد محته كلياً مذ ذاك. إن معرفة الأدب الجيد التي كانت شيئاً سائداً في أوساط المثقفين قبل خمسين سنة أو مائة سنة غدت في أيامنا ميزة بعض الأساتذة. وأُهملت كل المباهج الأكثر هدوءاً. لقد حملني بعض الطلاب الأميركيين على القيام بنزهة، في الربيع، في غابة على تخوم معسكرهم. وكانت تنبت هناك بوفرة زهور بريّة، ولكن أحداً من أدلائي لم يكن يعرف اسم واحدة منها، على الأقلّ. ما هي فائدة مثل هذا العلم؟ إنه لا يضيف شيئاً، بحسب اعتقادهم، إلى مداخيلهم.

ليس في الوسع إلقاء مسؤولية هذه العلة على الفرد، والإنسان وحده ليس محصّناً ضد هذه العلة.

إن العلة متأتية من فلسفة الحياة التي نتقبّلها عموماً، والتي تشاء أن تكون الحياة صراعاً، ومنافسة يستحق فيها المنتصر الاحترام. فينجم عن هذا التصوّر أننا نغذّي بصورة غير منصفة الإرادة على حساب الحواس والذكاء. ومن الممكن أننا بقولنا هذا، نضع المحراث أمام الثيران، كما يقول المثل الفرنسي السائر، أي أن نبدأ بالنهاية ونقلب الموضوع. لقد مجّد الأخلاقيون المتزمّتون دوماً الإرادة. في حين أنهم، أصلاً، شدّدوا على الإيمان. ولعلّ هذه القرون من التزمّت قد ولّدت جنساً تطورت فيه الإرادة إلى أقصى حدّ، بينما ذبلت الحواس والذكاء، وتبنّى هذا الجنس فلسفة الصراع على أنها الأكثر ملاءمة لطبيعته. مهما يكن من أمر، فإن نجاح هذه الدينوصوريات الحديثة الهائل (الدينوصوريات هي حيوانات زاحفة منقرضة) التي تفضّل، على غرار شبيهاتها التي عاشت في عصور ما قبل التاريخ، القوة على الذكاء ـ هذا النجاح يجعل منها نموذجاً يُقلّد عالمياً: لقد باتت النموذج للرجل الأبيض في كل بقاع الكرة الأرضية، وهذا الأمر سيزداد بنسب مطردة في السنوات المائة المقبلة. وأولئك الذين ليسوا من أتباع الزي الشائع (الموضة)، بوسعهم أن يتعزّوا لدى التفكير في أن الدينوصوريات لم تنتصر؛ وقد أُبيدت، وورث مملكتها مشاهدون أذكياء.

إن دينوصورياتنا الحديثة تحضّر موتها شخصياً. فهم لا يُرزقون، في المتوسط، إلا ولداً واحداً في زواجهم؛ وهم لا يحبّون الحياة كفاية لكي يرغبوا في إنجاب الأولاد. هنا، تكشّفت الفلسفة الصارمة إلى حدّ مفرط، تلك التي نقلها إليهم أجدادهم المتزمّتون، عن أنها لا تلائم العالم. وأولئك الذين يوفّر لهم تصوّرهم الحياة القليل من السعادة بحيث لا يرغبون في إنجاب الأولاد، محكوم عليهم بيولوجياً. وسرعان ما يتحتّم استبدالهم بشيء ما يكون أكثر مرحاً وغبطة.

إن روح المنافسة المعتبر المحرّك الرئيسي للحياة، جدّ قاتم، وجدّ عنيد، ومؤلف من الكثير من العضلات المشدودة والإرادة المتوترة لكي يكون القاعدة الممكنة للحياة خلال جيل أو جيلين، على أبعد تقدير. بعد هذه الفترة، ينبغي أن يولّد تعباً عصبياً، ومحاولات عدة للهرب، وسعياً وراء الملذات متوتراً ومتعباً مثل العمل (ما دامت الراحة باتت مستحيلة)، وفي النهاية اختفاء للجنس بسبب العقم.

وليس العمل وحده الذي تسمّه الفلسفة التي تمجّد روح المنافسة، فأوقات الفراغ هي كذلك بالقياس نفسه. ويؤول نوع الراحة التي تهدّىء الأعصاب إلى التسبّب بالسأم. وينتج حتماً تسارع متواصل تكون نهايته الطبيعية المخدّرات والانهيار. ويكمن العلاج في تقبّل غبطة سليمة وهادئة كعنصر أساسي لهدف متوازن في الحياة.

٤

السأم والإثـــارة

نال السأم، بما هو يشكّل عاملاً في سلوك الإنسان، في رأيي، اهتماماً أقلّ مما يستحق. فقد كان، على ما أحسب، إحدى القوى المحركة الكبيرة في تـاريخ العالم، وهو في أيامنا الحاضرة، أكثر ممـا سبق أن كان. ويبـدو أن السأم انفعـال بشري صرف. صحيح أن الحيوانـات الأسيرة تصبح بليدة، وتـذرع أقفاصهـا متثائبة ، ولكنهـا في الحالـة الطبيعيـة، أنا لا أحسب أنها تُحسّ بـأي شيء مماثـل للسأم. ففي معظم الأوقات، تترصّد العدو، والطعام، إن لم يكن الإثنين معاً؛ ويتفق لها أن تتزاوج وتبحث عن الدفء. ولكن حتى عندما تكون تعسـة، فإنني لا أعتقـد أنها تحسّ بالسـأم. لعل القـردة الشبيهـة بـالإنسـان تمـاثلنـا من هـذه الناحية، مثلما تماثلنا في أُمـور كثيرة سـواها؛ إلا أنني مـا دمت لم أُعش بينها، لم تتح لي فرصة اختبار ذلك. وإحدى علامات السأم الأساسيـة هي التناقض بـين الحالات الراهنة وحالات أخرى سائغة أكثر تمارس ضغطاً لا يقاوم على مخيّلتنـا. وثمـة خصيصة أخـرى للسأم هي ألا يكـون عقل الإنسـان منشغـلاً كليـاً. إن هربك من الأعداء الذين يحـاولون القضـاء عليك، أُمـر كريـه على مـا أتصوّر،

ولكنه ليس مضجراً. فالمرء لا يسأم أثناء إعدامه ما لم تكن لديه شجاعة فوق القدرة البشرية تقريباً. وكذلك، لم نرَ قط خطيباً يتثاءب، وهو يلقي في مجلس اللوردات، أول خطاب في حياته السياسية، ما لم يكن الراحل دوق ديفونشير الذي حظي، من أجل ذلك، بإعجاب أصحاب السيادة - أسياد الإقطاعات. والسأم هو أساساً رغبة مضادة للمغامرات التي ليست بالضرورة سائغة، ولكنها تتيح لضحية السأم تمييز اليوم عن الآخر. ونقيض السأم ليس في النتيجة السرور، ولكنه الإثارة.

إن للحاجة إلى الإثارات جذوراً عميقة في الكائنات البشرية، ولا سيما في الرجال. ويقيني أنه في عصر الصيد، كان الإنسان يكتفي بسهولة أكثر مما اكتفى من قبل. كان الصيد أخّاذاً، وكانت الحرب أخّاذة، وكان الحب أخّاذاً. ويتدبّر الهمجي أمره لارتكاب خطيئة الزنا مع امرأة يكون زوجها راقداً إلى جانبه، عالماً أن ذلك بالنسبة إليه يعني الموت الفوري إذا ما استيقظ هذا الزوج. إن هذا الموقف، في رأيي، لا يولّد سأماً. ولكن مع ظهور الزراعة، باتت الحياة رتيبة، باستثناء، بالطبع، حياة الأرستقراطيين الذين ظلّوا، ويظلّون بعد في مرحلة الصيد. وغالباً ما نسمع الحديث عن رتابة المكننة، ولكنني أعتقد أن السأم الذي تولّده الزراعة الممارسة بطرق عفّى عليها الزمن لهو، على الأقل، قوي أيضاً. وفي الواقع، خلافاً لآراء الكثيرين من محبّي البشر، أسارع إلى القول إن عصر الآلة قد خفّض كثيراً مجموع السأم في العالم.

الأجراء لا يعرفون العزلة خلال ساعات العمل، وبوسعهم تخصيص سهراتهم لممارسة أنواع اللهو والتسلية المختلفة، وهو أمر، كان في الماضي، مستحيلاً في القرية الصغيرة.

ولندرس الآن التغييرات التي طرأت على حياة بورجوازي صغير. في الماضي، فور انتهاء وجبة العشاء، كانت الزوجة والفتيات في المنزل، ينظّفن المائدة، وكان الجميع يتحلّقون، ويقضون - كما كان يقال آنذاك - «سهرة عائلية لطيفة». هذا يعني أن الأب كان يأوي إلى سريره، وأن الأم كانت

تنصرف إلى حياكة الصوف، وأن الفتيات كنّ يفضّلن إما أن يقضين، أو يكنّ في تومبوكتو. لم يكن يُسمح لهنَّ لا بالمطالعة ولا بمغادرة الحجرة لأن الأدب في ذلك الوقت كان يقضي بأن يتحادث الأب معهن، وكل الذين كان يتوجّه إليهم كان ينبغي أن يُبدوا السرور والرضا. وإذا ما حالفهن الحظ، كنّ ينتهين إلى الزواج، ويجدن الفرصة لفرض فتوّة مغمّة مثل فتوّتهن على أولادهن. وإذا لم يبتسم لهن الحظ، انقلبن إلى عوانس، ولعلهنّ ينتهين إلى السقوط، وهو مصير مرعب كمصير ضحايا الهمجيين. وبتفحُّص العالم قبل مائة سنة، لا ينبغي لنا إهمال كل ثقل السأم هذا؛ وبقدر ما نتوغّل في الماضي، نرى السأم يتفاقم.

تصوّر سأم الشتاء في قرية في القرون الوسطى. لم يكن البشر آنذاك يعرفون القراءة أو الكتابة، ولم يكن لديهم سوى الشموع لكي يستضيئوا بها لدى هبوط الليل، ودخان نارهم الوحيدة كان يملأ القاعة الواحدة التي لم تكن باردة. وكانت الطرق تقريباً غير سالكة، ومن حسن الحظ أن الناس نادراً ما كانوا يختلفون إلى القرية المجاورة. ولا يدهشنّ أحد إذا ما كان هذا السأم، وعوامل أخرى قد دفعت الناس إلى مطاردة الساحرات، ذلك بأن تلك كانت التسلية الوحيدة التي استطاعت إدخال البهجة إلى سهرات الشتاء.

نحن نسأم أقلَّ مما كان يسأم أجدادنا، ولكننا نخشى السأم أكثر. وقد توصّلنا إلى أن نعرف، أو أن نعتقد أن السأم ليس جزءاً من قدر الإنسان الطبيعي، وأن بالوسع تجنّبه ببحث نشيط كفاية عن الأحاسيس. في أيامنا الحاضرة، تكسب الفتيات شخصياً معيشتهن، وبصورة رئيسية لأن ذلك يتيح لهن السعي وراء التسليات مساءً، والتفلّت من «الزمن السعيد الذي يُقضى مع الأسرة» الذي اضطرت جدّاتهن إلى تحمّله. ويعيش في المدينة كل الذين يستطيعون ذلك؛ وفي أميركا، أولئك الذين لا يسعهم ذلك، يقتنون إما سيارة أو على الأقل درّاجة نارية، تقلّهم إلى دار السينما. وبالطبع، لديهم جهاز الراديو في المنزل. ويلتقي الشبّان والصبايا بسهولة أكبر مما كان عليه ذلك في السابق، وليس هناك خادمة واحدة لا تتوقّع، ولو مرة في الأسبوع، أحاسيس كثيرة جداً،

كانت تكفي بطلة من بطلات الكاتبة دجين أوستن، في رواية كاملة.

إن ارتفاع مستوانا الاجتماعي يطابق حاجة إلى الأحاسيس تزداد حدّة. وأولئك الذين يستطيعون السماح بها لأنفسهم يتنقّلون باستمرار، حاملين معهم البهجة، والرقص، وملذات الشراب، ويتوقّعون دوماً ـ ونحن نعرف لماذا ـ أن يجدوا هذه المباهج أكثر حدّة في مكان جديد. وأولئك الذين يتعيّن عليهم كسب معيشتهم، لديهم حصتهم من السأم والموجبات خلال ساعات العمل، ولكن أولئك الذين لديهم المال الكافي ليحيوا من دون عمل، يمنحون أنفسهم كمثال أعلى أو هدف أسمى حياة محرّرة تماماً من السأم. إنه هدف أسمى نبيل، وما أبعدني عن قدحه، ولكنني أخشى أن يكون صعب التحقيق، مثل كل الأهداف السامية، أكثر مما يعتقد المثاليون. على كل حال، فإن الصبيحات مملة بقدر ما كانت الأمسيات مسلّية. سيكون هناك سن النضوج والشيخوخة ربما. في العشرين يحسب المرء أن الحياة تنتهي في الثلاثين. في سنّي شخصياً، لا يسعني بعد أن أشاطر وجهة النظر هذه. ولعلّه من التهوّر أن يتلف المرء رأسماله الحيوي، وكذلك رأسماله المالي. وربما كان عنصر من السأم ضرورياً للحياة. الرغبة في الفرار من العدو طبيعية؛ وكل الأجناس البشرية أظهرت، في الواقع، هذه الرغبة عندما سنحت الفرصة. وقد وجد الهمجيون في النهاية علاجاً للسأم قديماً قدم العالم، بتذوّقهم المشروبات من أيدي البيض، وما لم تكن الحكومة لتتدخل لسكروا حتى يقضوا وسط العنف.

وكانت الحروب، والمجازر، والاضطهادات جميعاً ملاذاً ضد السأم؛ حتى النزاعات مع الجيران فُضِّلت على الرتابة اليومية.

ومن هنا كان السأم مشكلة حيوية بالنسبة إلى العالِم الأخلاقي، ما دام الخوف من هذا الشر مسؤولاً، على الأقلّ، عن نصف خطايا البشرية.

مع ذلك، لا ينبغي النظر إلى السأم على أنه مصدر شرّ، وحسب. هناك نوعان منه: الأول مثمر، والآخر مرهق. النوع المثمر هو نتيجة غياب المخدرات، والآخر هو غياب الأنشطة الحيوية. أنا لا نيّة لديَّ للقول إن

المخـدّرات لا يمكن أن تلعب أي دور ملائم في الحيـاة. فهناك حـالات، مثلاً، يصف فيها الطبيب المتمرّس مخدِّراً ما، وأعتقد أن هذه المناسبات تتكرر أكـثر مما يتصور القائلون بالمنع أو التحـريم. غير أن التعـطش إلى المخدِّرات لا يمكن أن يُترك دونْ ما مراقبة أو إشراف بـالنسبة إلى الإغـراء الطبيعي. ولا يسعني إلا أن أنصح بعلاج الوقت للشخص الذي كان يتعاطى المخدّرات، وحُرم من عادته. وما ينطبق على المخدِّرات، ينطبق كذلك، مع حفظ النِسب، على كل نـوع من الإثارة. فالحياة الغنية جـداً بالأحـاسيس هي حياة منهكـة، تحتاج بـاستمرار إلى منشِّطات أقوى لتوفير هذه الرعشة التي تواضعوا على اعتبارها ضرورية للسرور. والشخص المعتاد على عدد كبير من المثيرات يشبه ذاك الذي يشعر برغبة مـرضية بـالنسبة إلى الفلفـل، حتى أنه يصبح عاجـزاً عن تذوّق طعم كميـة من الفلفل تكفي لإهلاك كل شخص آخر. وإننا لنحسّ دوماً ببعض السأم إذا نحن تجنّبنا عـدداً كبيراً من المثـيرات، والكثـير من المثـيرات لا تُضعف الصحـة، وحسب، ولكنهـا تجعل كـل ملذات المذاق تبـدو ضعيفة، بـاستبدال الرغبـات بـالمباهـج العميقة، والمهارة بالذكاء، والانطباعات العابرة بـالجمال. أنـا لا أودّ المبالغـة في خطر الإثارة أكثر من اللازم. فكميـة معيّنة منهـا ربما كـانت صحية، ولكن مثلما هي الحال في كل شيء آخر، تكمن المشكلة في الكمية. فجرعة جدّ صغيرة قـد تُحدث رغبات مـرضية. والإفـراط قد يـولّد الإنهاك. إذاً، إن قـدرة معيّنة عـلى تحمُّل السأم لا غنىً عنهـا للحياة البشريـة، وهذا من الأمـور التي ينبغي تعليمها للشبيبة.

إن كل الكتب العظيمة تحتوي على مقاطـع مملة، وكل الحيـوات العظيمـة عرفت فترات غير مهمة. تصوَّر ناشـراً أميركيـاً في أيامنـا هذه حُملت إليـه للمرة الأولى مخطوطة جديدة من العهد القديم من الكتـاب المقدّس من أجـل نشرها. ليس من الصعب التكهن بما ستكون عليـه تعليقاتـه، مثلاً، حـول السلالات. سيقول:

«يا سيدي العزيز، هذا الفصل تعوزه الحماسة؛ ولا يسعك أن تطلب من

قارئك أن يُبدي اهتماماً بسرد عادي لأسماء أعلام لا تقدِّم عنها إلا تفاصيل قليلة. اعترف بأنك بدأت قصّتك بأسلوب جميل، وفي البداية كان الانطباع لديّ جدّ ملائم، ولكنك تخطىء حقاً في الرغبة في رواية كل شيء. اختر المقاطع البارزة، وانتزع كل ما هو حشو، وعد إليّ بمخطوطاتك بعد أن تكون جعلتها معقولة من حيث الطول».

هكذا يتكلم ناشر عصري يدرك الخوف الذي ينتاب قرّاءه من السأم. وسيقول الشيء نفسه عن الأعمال الكلاسيكية، مثل أعمال كونفوشيوس، ورأس المال لكارل ماركس، وكل الكتب المقدّسة الأخرى التي برهنت أنها الأكثر رواجاً (بست سيللر). ولا ينطبق هذا القول على الكتب المقدسة وحسب. فإن أفضل الروايات تحتوي جميعاً على مقاطع مملّة. وبالوسع التأكّد من أن رواية جيدة من الصفحة الأولى إلى الصفحة الأخيرة ليست كتاباً جيداً. ولم تكن حياة العظماء كذلك كثيرة الحركة إلا في لحظات عظمة نادرة. كان سقراط يجد لذة في حضور المآدب بين الفينة والفينة، وتحت تأثير الشوكران، كان ينبغي أن يجد ترضية كبيرة من حواره؛ ولكنه عاش في القسم الأكبر من حياته في سكينة مع شريكة حياته زنتيبه، وكان يقوم بعد ظهيرة كل يوم بنزهته الصحية، مقابلاً أصدقاءه في هذه المناسبة. ويزعمون أن المفكر الألماني قنط لم يبتعد، طوال حياته، عن مدينة كونكسبرغ أكثر من عشرة فراسخ. وداروين، بعد أن قام بجولة حول العالم، أمضى بقية أيامه في منزله. وكارل ماركس، عقب إيقاده نار بعض الثورات، قرّر أن يقضي ما تبقّى من حياته في المتحف البريطاني.

وعلى الجملة، بالوسع أن نتبينّ أن حياة هادئة هي ميزة الرجال العظماء، وأن مسرّاتهم لم تكن من تلك التي تبدو مثيرة للاهتمام في عيون الناس. ليس ثمة عمل كبير ممكن دون عمل مثابر، يتطلب الاستغراق الكبير، ويكون جدّ شاق، بحيث لا يتبقّى إلّا قليل من الطاقة للأحاسيس الأقوى، باستثناء تلك التي تُستخدم، خلال العطل، لاستعادة الطاقة الجسدية: وتسلُّق الجبال هو أفضل مثال.

إن القـدرة على احتـمال حياة رتيبـة بعض الشيء، ينبغي أن تُكتسب منذ الطفولـة. في هذا الصـدد، يقع اللوم الشـديد عـلى الوالـدين العصريين؛ إنهم يقدّمون إلى أولادهم الكثير من التسليات السلبية من مثل العـروض المسرحية أو السينمائية والحلوى، ولا يدركون كم هـو مهمّ بالنسبـة إلى الولـد أن تتشابـه كل أيامه، ما عدا، بالطبع، في بعض المناسبات النادرة. وعموماً، ينبغي أن تكـون مباهج الـولد، وحسب، تلك التي يسعـه انتزاعهـا شخصياً من محيـطه بواسـطة بعض الجهد وخيال معيّن. فالمباهج التي تثير والتي لا تتطلب أي جهد جسماني، من مثل المسرح، لا ينبغي أن تقدَّم إلا نـادراً جداً. إن الإثـارة لهي من طبيعة المخدِّر الذي يتطلّب أن يُتعاطى دوماً بكميات أكـبر، والسلبية الجسـدية، طـالما استمرت الإثارة، هي نقيض الغريزة. إن الولد ينمو بصورة أفضل، مثل النبتة الصغيرة، عندما ندعها تنمو على هواها في التربة نفسها. فكثرة التنقّل، والكثـير من الانطباعات المتنوعة، ليست جيدة بـالنسبة إلى الـولد، فهي تجعله عـاجزاً، عندما يكبر، عن احتمال رتابة مثمرة.

أنا لا أريد القول إن الرتـابة هي ميـزة في حد ذاتهـا؛ كل مـا أودّ قولـه، وحسب، أن بعض الأشيـاء ليس ممكناً دون درجـة ما من الـرتابـة. لنتفحّص، مثلاً، «استهلال» الشاعر وليام وردزويرث. يتبيّن بوضوح لكل قارىء أن ما هو ثمين في أفكار وردزويرث ومشاعره كان يمكن أن يكـون غريبـاً كلياً بـالنسبة إلى ساكن مدينة متصنّع.

إن ولداً أو شاباً يضع نصب عينيه أهدافـاً بنّاءَة وجـدّية، يتحمَّـل طوعـاً جرعة كبيرة من السأم إذا مـا أدرك أن ذلك قـد يكون ضروريـاً له إذا مـا دعت الحاجة. سوى أن المشاريع البنّاءَة لا تتكـوّن بسهولـة في دماغ الـولد الـذي يحيا حياة اللهو والمجون، ذلك بأن أفكاره في هذه الحالة ستكون دائـماً موجّهـة شطر اللذة المباشرة بدلاً من الهدف البعيد. وتكون النتيجة أن جيلاً عاجزاً عن تحمّل السأم سيغدو جيل رجال بَيْنَ بَيْن، رجال قطعوا خطأً كـل صلة بعملية الـطبيعة البطيئة، رجال تذبل كل دوافعهم الحيوية ببطء كما لو كـانت زهوراً مقـطوعة في إناء.

أنا لا أُحبُّ اللغة المجازية أو الرمزية، ومع ذلك أجد صعوبة في التعبير عما أودُّ قوله دون استعمال كلمات لها رنين شعري أكثر منه علمي.

مهما أردنا أن نعتقد، نحن كائنات على الأرض؛ حياتنا هي جزء من الأرض، وهي تغذّينا كما تغذّي النباتات والحيوانات. إن إيقاع حياة الأرض بطيء، ففصلا الخريف والشتاء ضروريان لها ضرورة فصلي الربيع والصيف، والراحة بالنسبة إليها أساسية مثل الحركة. ومن الضروري للولد، وكذلك أكثر بالنسبة إلى المراهق، أن يحافظ على الصلة مع المدّ والجزر في الحياة الأرضية. والجسم البشري، عبر العصور، تكيّف مع هذا الإيقاع، وأشرك فيه الدين مظهراً في عيد الفصح المجيد. أذكر أنني رأيت طفلاً في الثانية من عمره (لم يغادر قط لندن) حُمل للمرة الأولى للتنزه في الريف، وكان الوقت شتاءً، والريف رطب وموحل. في نظر البالغ لم يكن ثمة شيء يستطيع أن يُحدث البهجة في نفسه، ولكن نمت في نفس الصغير نشوة غريبة؛ ركع على الأرض الرطبة، وخبّأ وجهه في العشب، وراح يرسل صيحات الغبطة نصف الواضحة.

كانت الغبطة التي شعر بها بدائية، وبسيطة، وعظيمة. والحاجة العضوية التي أرضاها جدّ عميقة، بحيث أن الذين ماتت فيهم هذه الحاجة قلّما يكونون طبيعيين تماماً. كثير من اللذات، وبينها نستطيع أن نعتبر اللعب مثلاً جيداً، ليس فيها أي عنصر من هذه الصلة مع الأرض.. فاللذات، عندما تتوقّف، تخلّف للإنسان طعم الرماد، وانطباعاً من الاستياء، وتعطُّشاً لا يعرف غرضه. على النقيض، إن لهذه اللذات التي تقيم صلة بيننا وبين الحياة على الأرض، شيئاً مرضياً كثيراً؛ نهايتها لا تجرّ معها اختفاء السعادة التي جلبتها، على الرغم من أن شدتها كان يمكن أن تكون أقلّ من شدة الأحاسيس الحادة. والتمييز الذي أودّ أن أُقيمه يصحّ على سلّم الملذات بأسرها، من أبسطها إلى أكثرها رهافة. والطفل الذي سبق أن تحدّثت عنه حقّق الاتحاد الأكثر بدائية والممكن مع حياة الأرض. ولكن بشكل أكثر رفعة، قد توجد هذه الظاهرة في الشِعر. إن ما يجعل قصائد شكسبير الغنائية رائعة، هو أنها مطبوعة بالغبطة ذاتها التي

دفعت الطفل إلى معانقة العشب. فكّر في «إصغ، إصغ، إلى القبّرة» أو «تعالَ إلى هذه الرمال الشقراء»؛ ستجد في هذه القصائد التعبير الحضاري للانفعال نفسه، الذي لم يستطع ابن السنتين الاثنتين أن يعبّر عنها إلا بإخراج صيحات مفككة من فمه. أو فكّر، كذلك في الفارق بين الحب والشهوة الجنسية. الحب هو اختبار يتجدد به كياننا كله، وينتعش كما تتجدد النباتات وتنتعش بالمطر، بعد الجفاف. ولسنا نرى شيئاً من ذلك في العلاقات الجنسية حيث لا يمثل الحب أي دور. وعندما تنتهي اللذة العابرة، لا يبقى سوى التعب، والاشمئزاز، والشعور بأن الحياة فارغة. إن الحب لهو جزء من حياة الأرض! والشهوة من دون الحب ليست كذلك.

إن السأم الخاصّ الذي يشكو منه سكان المدن الحديثة مرتبط ارتباطاً حميماً بانفصالهم عن حياة الأرض، إنه يجعل حياتهم خانقة، مغبّرة، وقاحلة، أشبه بالحج في الصحراء. والسأم الذي لا يُطاق والذي هو سمة أولئك الذين هم من الغنى بحيث يختارون نمط حياتهم، يعود، على الرغم من التناقض الذي قد يبدو، إلى خوفهم من السأم. وهم بدفعهم السأم المثمر، يغدون فريسة ما هو أسوأ بعد. إن الحياة السعيدة ينبغي أن تكون، في جزء كبير منها، حياة ساكنة، وادعة، لأنه في جو هادىء، وحسب، يمكن الغبطة الحقيقية أن تنمو.

٥

التعب

قد يكون هناك أنواع عدة من التعب، وبعضها عائق أكثر خطورة من البعض الآخر بالنسبة إلى السعادة. التعب الجسدي الصرف، شرط ألا يكون مفرطاً، هو أفضل الحالات بالنسبة إلى السعادة؛ إنه يوفّر نوماً سليماً وشهية جيدة، ويمنح اللذات طعماً بوسع العُطل أن توفّره. غير أن التعب إذا كان مفرطاً، فإنه يُمسي خَطِراً جداً. الفلاّحات، باستثناء مثيلاتهن في المجتمعات الأكثر تطوراً، يهرمن في نحو الثلاثين، بعد أن ينهكهنّ العمل المضني. وفي سنوات العصر الصناعي الأولى، كان نمو الأولاد يتأخر، وغالباً ما كانوا يُقتلون في طفولتهم الأولى، بسبب العمل المفرط. وما يزال الشيء نفسه يحدث في الصين واليابان حيث ما يزال التصنيع في بداياته، وإلى حدّ ما، في دول أميركا الجنوبية. والتعب الجسماني، يغدو عذاباً مبرّحاً إذا ما كان مفرطاً، ولطالما جعل الحياة لا تطاق. ولكنه في البلدان الأكثر تقدّماً في عالمنا الحديث، تم تخفيض

التعب الجسماني إلى أقصى حدّ بفضل تحسين الظروف الصناعية. والتعب الذي يمثّل في الوقت الحاضر أكثر الأخطار في المجتمعات المتقدمة، هو التعب العصبي. وهذا التعب، على ما فيه من غرابة، هو المألوف كثيراً في أوساط الطبقة الميسورة، وهو يميل إلى الانتشار،بالحري، بين رجال الأعمال والمفكرين أكثر منه بين أصحاب الأجور.

وليس الهرب من التعب العصبي الناجم عن الحياة العصرية أمراً سهلاً. أولاً، العامل المديني، طوال يوم عمله، وأكثر بعد، في الفترة بين عمله وعودته إلى المنزل، معرّض إلى الضجة التي يتعلّم كيف يسجل بطريقة لاشعورية، القسم الأكبر منها. وهذا ينهكه لأنه مضطر إلى بذل جهد لا واعٍ أو باطني لكي لا يسمع هذه الضجة. وسبب آخر يثير التعب من دون أن نلحظه، هو وجود الأغراب المتواصل. إن الغريزة الطبيعية لدى الإنسان، كما لدى الحيوانات، هي تفحُّص كل غريب من جنسه، بنيّة تقرير ما إذا كان عليه التصرّف إزاءه كعدو أو كصديق. إن هذه الغريزة يجب أن تُطرد من قبل أولئك الذين يتنقّلون في حافلات المترو في ساعات الازدحام، وهذا الطرد يسبّب إحساسهم بغيظ عام ومتفشّ تجاه كل الأغراب الذين اتصلوا بهم اضطراراً. وهناك كذلك العجلة للوصول إلى القطار في موعد انطلاقه صباحاً مع ما تجرّه من عسر الهضم. وتكون النتيجة أن هذا الشخص، ما ان يبلغ مكتبه ويبدأ عمله اليومي، حتى يكون قد أتلف أعصابه، ومال إلى اعتبار الجنس البشري آفة أو كارثة. ويصل رب عمله كذلك في الحالات نفسها، ولا يعمل شيئاً لكي يطرد هذه الحالة الذهنية من نفس مستخدمه. ويُجبر الخوف من الطرد إلى سلوك أو تصرّف لائق، ولكن هذا الموقف غير الطبيعي إنما يزيد في التوتر العصبي. وإذا ما سُمح للموظفين، مرة في الأسبوع، أن يشدوا أنف ربّ العمل، أو أن يُبدوا بطريقة أخرى رأيهم فيه، فإن توترهم العصبي سيسكن، ولكن بالنسبة إلى ربّ العمل الذي لديه همومه كذلك، فإن ذلك لن يعدّل شيئاً في وضعه. إن الخوف الذي يستشعره الموظف من فكرة الطرد من العمل، يستشعره رب العمل من فكرة الإفلاس. صحيح أن البعض من القوة بحيث لا يصابون بعدوى هذا

الخوف. ولكن لكي يبلغوا هذا الحد، يكونون قد عانوا، عموماً، سنوات من الكفاح القاسي، واضطروا خلالها إلى البقاء باستمرار على صلة بأحداث العالم بأسره، وإفشال دسائس منافسيهم بصورة مستمرة. وينجم عن ذلك كله أنه عندما يصيب المرء نجاحاً وفيراً مكافأة له، يكون قد أصبح كتلة من أعصاب، ويكون قد اعتاد على القلق بحيث أنه لا يسعه التخلص منه، حتى لو لم تقض الضرورة بذلك. صحيح أن هناك أبناء أشخاص موسرين، ولكنهم ينجحون عموماً، في صنع هموم تشبه كثيراً الهموم التي كان ينبغي أن يعانوها، فيما لو لم يولدوا أغنياء. وبالمراهنة والمقامرة، يتعرّضون إلى استياء والديهم، وبتقليل ساعات نومهم لإدمان اللهو، يضعفون صحتهم، وعندما يتعقّلون في نهاية المطاف، يكونون قد غدوا غير قادرين على التنعّم بالسعادة مثلما عجز آباؤهم عن توفيرها لأنفسهم. إن معظم الناس في أيامنا، طوعاً أو اضطراراً، واختياراً أو بداعي الحاجة، يحيون حياة موهنة ومهيّجة للأعصاب، وهم دوماً متعبون بحيث لا يسعهم التسلّي دون اللجوء إلى تناول الكحول.

لندع جانباً هؤلاء الأغنياء الذين هم حمقى، بكل بساطة، ولنتفحّص الحالة المألوفة لدى أولئك الذين يقترن التعب بمهنتهم التي تتطلّب جهداً مضنياً. إن مثل هذا التعب مردّه، إلى حدّ كبير، إلى القلق الذي يمكن اتقاؤه بفلسفة حياة أكثر سويّة، ونظام ذهني أوفر. إن البشر، في غالبيتهم، لا يتمتعون بالرقابة الضرورية على أفكارهم. أقصد بذلك أن البشر لا يسعهم التوقف عن التفكير في كل ما يمكن أن يعذّبهم عندما لا يكون بالوسع مواجهة أي عمل فعّال. وهذا القلق، في مجال الأعمال، يحمله المرء إلى السرير، وفي الليل، وعندما ينبغي له أن يستعيد قواه ويجدّدها لكي يكافح مشاكل اليوم التالي، يروح يجترّ باستمرار في ذهنه مشاكل ليس لها، في الوقت الحاضر، أي حلّ. إنه يفكّر فيها دون أن يستطيع إيجاد خط تصرّف معقول لليوم التالي، لأن تفكيره يتصرّف على هذا النحو شبه المجنون الذي يميّز تأملات الأرَق المضطربة. وفي الصباح، يتعلّق شيءما من هذا الجنون الليلي بعد به، الأمر الذي يجعل كل عقبة تسبّب له الجنون.

العاقل لا يفكر في همومه إلا عندما يجد مصلحة في ذلك؛ وإلّا فكّر في شيء آخر، أو إذا كان راقداً في السرير، فإنه لا يفكّر في شيء البتة.

ولا يفهمنّ أحد أنني أودّ أن أُوحي بأنه في لحظات الأزمات الكبرى، عندما يكون الانهيار محتوماً مثلاً، أو عندما يكون لدى أحدهم أسباب معقولة للاعتقاد بأن زوجته تخونه، قد يكون ممكناً طرد العذاب إذا لم يكن ثمة من وسيلة لمعالجة الوضع، باستثناء بعض النفوس المنتظمة بصورة خاصة. إلّا أنه ممكن جداً إزاحة الهموم اليومية الصغيرة عندما لا نكون مضطرين إلى مجابهتها. ومن المذهل أن نعرف كم تتضاعف السعادة والفعالية بالنسبة إلى ردود فعلنا إذا حرصنا على أن يكون لنا فكر منتظم، يفكر بفعالية في مشكلة ما في الوقت الملائم، وليس بطريقة غير كافية في كل ساعات اليوم. وعندما تضطر إلى اتخاذ قرار صعب، فكّر فور توفّر المعطيات الضرورية لديك في القضية جيداً، واتخذ قرارك؛ وبعد أن تتخذ القرار، إحرص على عدم التراجع عنه ما لم تتوافر لديك وقائع جديدة. ليس ثمة ما هو مضنٍ مثل التردد، ولا أكثر تفاهة وبطلاناً.

كثير من الهموم يمكننا التقليل منها إذا عرفنا كم هو قليل الأهمية السبب الذي يثير القلق. في الماضي تحدّثت في مناسبات عدة أمام الجمهور. في البداية، كان كل جمهور يخيفني، وكانت العصبية تجعلني أُغمغم؛ وكنت أتهيّب كثيراً المحنة، وكان يتولاني دوماً الأمل بأنني ربما حطمت ساقاً قبل حلول الموعد المحدَّد، وكنت أشعر لدى انتهاء الخطاب بأنني منهك من فرط التوتر العصبي. ورويداً رويداً، علّمت نفسي التفكير في أنه لا أهمية مطلقاً لتحدّثي بصورة جيدة أو سيئة، فالعالم سيبقى هو إياه في الحالتين. وأدركت أنني بقدر ما لا أُبالي بمعرفة ماذا كنت أتكلم بطريقة جيدة أو سيئة، يكون كلامي أقلّ سوءاً؛ وشيئاً فشيئاً اختفى التوتر العصبي كلياً تقريباً. بالوسع الكفاح بالأسلوب نفسه ضد الكثير من المتاعب العصبية. فأعمالنا ليست بمثل الأهمية كما نعتقد طبيعياً. في نهاية المطاف ليس ثمة أهمية كبيرة لنجاحنا أو لإخفاقنا. بالوسع حتى تجاوز الآلام الكبيرة، والآلام التي تبدو أنها تقضي على السعادة الأرضية إلى الأبد،

تكمد مع الوقت حتى يغدو مستحيلاً تقريباً تذكّر عنفها. ولكن أهمّ من هذه الاعتبارات الذاتية أو الأنوية، هو كون الأنا لا يحتل مركزاً كبيراً جداً في الكون. فالشخص الذي يستطيع تركيز أفكاره وآماله على شيء سامٍ بالنسبة إلى شخصه أو ذاته، يمكنه بلوغ نوع من السلام وسط الهموم المعتادة في الحياة، الأمر الذي يستحيل على الأناني البحت.

قليلة هي الدراسات التي خُصّصت لما يمكن تسميته صحة الأعصاب. صحيح أن علم النفس المطبّق على الصناعة قام بتحقيقات متقدمة في مشكلة التعب، وبيّن بواسطة إحصاءات موضوعة بدقة، انك إذا قمت بعمل ما في فترة طويلة بصورة كافية، يؤول بك الأمر إلى الشعور بالتعب ـ وهي نتيجة كان بالوسع توقّعها دون الكثير من العرض العلمي. إن دراسة التعب كما يقوم بها علماء النفس، تتناول بصورة رئيسية التعب العضلي، مع أن هناك كذلك عدداً من الدراسات حول التعب لدى الطلاّب. ولكن، مع ذلك، لا تهتم أي منها بالمشكلة الأهم.

في أيامنا هذه، التعب الذي يمثّل الأهمية الكبرى هو دوماً ذو طبيعة عاطفية؛ ذلك بأن التعب الفكري الصرف، وكذلك التعب العضلي الصرف، يجدان علاجهما الخاص في النوم. إن كل شخص ينبغي له القيام بعمل فكري طويل مجرد عن الإنفعال ـ لنقل، مثلاً، حسابات مجهّزة ـ يزيل في رقاده التعب المتراكم خلال النهار. والأذى الذي يُعزى إلى الإرهاق ليس هذا سببه مطلقاً، ولكن المسؤول هو القلق أو الغمّ. وما يجعل التعب العاطفي جدّ خطر، هو أنه يزعج الجسم. وبقدر ما يتعب الإنسان، يحسّ بالألم بالنسبة إلى التوقّف عن ذلك. وأحد أعراض الإنهيار العصبي المحتوم هو الاقتناع بأن العمل الذي نقوم به مهم جداً، وأن التمتع بعطلة سيؤدي إلى كل أنواع الكوارث. ولو كنت طبيباً لوصفت العطلة لكل مريض يعتبر عمله مهمّاً. ويتسبّب الانهيار العصبي الذي يبدو أنه نتيجة العمل، في الواقع، في كل الحالات التي درستها عن كثب، من بعض الاضطراب العاطفي الذي يحاول

المريض التخلص منه بواسطة العمـل. إنه يشعـر بالنفـور من التخلّي عن عمله لأنه، إذا ما فعل ذلك، يفقد كل ما يحوّل إليه أفكاره عن محنته أو سوء طـالعه. بالطبع، قد يكـون القلق الخوف من الإفـلاس، وفي هذه الحـالة، يكـون عمله مرتبطاً مباشرة بقلقه؛ ولكن، حتى في هذه الحالة، يستطيع القلق أن يُكرهه على العمل فترة أطول بحيث يصبح حكمه غامضاً، ويحدث الدمار بأسرع مما لو كان اشتغـل أو عمـل أقـلّ. وفي كـل الحـالات، إن مـا يُحـدث الانهيـار هـو القلق العاطفي، لا العمل.

إن سيكـولـوجيــة القلق ليست سهلة البتـة. لقــد سبق أن تحـدَّثت عن التنظيم الذهني، أي عادة التفكير في الأمور في الوقت المناسب.

إن لذلك أهميته، أولاً لأن مثل هذا التنظيم يجعل يوم العمل يمرّ بأقلّ مـا يمكن من إنفاق الأفكار، وثانياً لأنه يقدّم دواءً للأرق، وثالثاً لأنه ينمّي الفعـالية والضمان بالنسبة إلى القرارات. غـير أن مثل هـذه الأساليب لا تبلغ، لا العقـل الباطن ولا اللاشعور، وإزاء القلق الخطير، ليس ثمة طريقة مفيدة إذا لم تتـوغل تحت عتبة الوعي. وهناك دراسات سيكولوجية كثيرة حول انعكاسات اللاشعـور على الوعي، ولكن الدراسات حول تأثير الوعي على اللاشعور أقلّ كثيـراً. ومع ذلك، فإن هذه الدراسة الأخيرة مهمة جداً في قضيـة الصحة الـذهنية، وينبغي أن تُفهم جيـداً إذا ما شئنـا أن تعمل القنـاعات المعقـولة في مجـال الـلاشعـور. وينطبق هذا، بصـورة خاصـة، على مشكلة القلق. من السهـل القول إن هـذه التعاسة أو تلك لن تكـون جدّ رهيبـة فيها لـو حدثت، ولكن مـا دامت ستبقى وحسب قنـاعة واعيـة، فإن لا شيء يمكن أن يؤثـر في الليـالي المؤرَّقة، أو يمنـع حدوث الكوابيس. وأنا مقتنع بأن فكرة واعية يمكن زرعها في الـلاشعور إذا مـا وضع المرء ما يكفي من القوة والشدة. إن قسماً كبيـراً من اللاشعـور يتكوّن ممـا كان في الماضي أفكاراً واعية مشحونة بقوة بالإنفعالات، وهي الآن مخبوءة. ومن الممكن القيام بتروٍّ بعملية الطرد، وبذلك يمكن حمل اللاشعور على القيام بالكثير من العمـل المفيـد. لقـد لاحـظت، مثـلاً، أنني إذا كـان ينبغي لي أن أكتب في

موضوع صعب نوعاً ما، فإن أفضل طريقة هي في التفكير فيه بحدّة كبيرة ـ أكبر حدة في مكنتي ـ خلال بضع ساعات، أو بضعة أيام. وفي نهاية هذه الفترة، إصدار الأمر (إذا صحّ القول) بأن يُنجز هذا العمل لا شعورياً. وفي نهاية بضعة أشهر، أعود بصورة واعية إلى موضوعي، وأتأكد من أن العمل أنجز. وقبل اكتشافي هذه التقنية، اعتدت أن أقضي بالقلق الأشهر المنصرمة، لأنني لم أكن أتقدّم البتة. ولم تكن همومي تجعلني أكتشف الحلّ بصورة أسرع؛ والأشهر التي كنت أقضيها هكذا، كانت مهدورة، بينما أنا أستطيع الآن أن أكرّسها لأنشطة أخرى. إن مثل هذه العملب المتشابهة في الكثير من النواحي، يمكن اعتمادها تجاه القلق. عندما يهددك الشقاء، فكّر باهتمام وبتأنٍ في الأسوأ الذي قد يصيبك. وعقب تأمّل هذا الشقاء المحتمل مواجهةً بطريقة جيدة، امنح نفسك أسباباً جيدة للتفكير في أن ذلك لن يكون مخيفاً جداً في النهاية. إن مثل هذه الأسباب موجودة دوماً ما دام في وضع الأمور في حالة السوء، لا شيء مما يصيبنا يكون له أهمية هزلية. وعندما تكون قد فكّرت طوال بعض الوقت بحزم في الاحتمال السيّىء، وتكون صارحت نفسك باقتناع حقيقي: «حسناً، ليس لذلك أهمية البتة، في نهاية المطاف»، ستلاحظ أن قلقك قد انخفض إلى درجة كبيرة. وقد يكون ضرورياً تكرار العملية مراراً ولكن في النهاية، إذا كنت لم تهمل شيئاً في مواجهتك الاحتمال السيّىء، سترى أن قلقك يختفي كلياً لكي يحلّ محله نوع من البشاشة أو الابتهاج.

إن ذلك يؤلّف جزءاً من تقنية أعمّ لتجنّب الخوف. فالقلق هو شكل من أشكال الخوف، وكل خوف يسبّب التعب. فالإنسان الذي يكون قد تعلّم ألا يحسّ بالخوف سيجد تعب الحياة اليومية قد انخفض كثيراً. إلا أن الخوف، في أشكاله الأكثر ضرراً، يولد عندما يكون ثمة خطر لا نودّ مجابهته. وفي ساعات البطالة، تعبر خاطرنا أفكار رهيبة؛ وهي تتباين أحياناً تبعاً للأشخاص، ولكن الجميع تقريباً لديهم خوف مخبوء. بالنسبة إلى البعض، هو السرطان، وبالنسبة إلى البعض الآخر، هو الدمار المادي، وبالنسبة إلى شخص ثالث هو اكتشاف سرّ مخجل، والرابع تعذّبه شكوك الغيرة، والخامس تقضّ مضجعه قصص

العذابات في الجحيم التي كانت تروى له في طفولته التي ربما كانت حقيقية. ولعلَّ جميع هؤلاء الأشخاص يستخدمون التقنية السيئة للصراع ضد الخوف؛ وفي كل مرة يجول الخوف في خاطرهم، يحاولون التفكير في شيء آخر؛ إنهم يحوّلون أفكارهم شطر الملاهي أو العمل، أو شطر أمور أخرى بعد. إلا أن كل خوف يسوء أكثر إذا لم يتفحّصه المرء.

والجهد الذي يبذله المرء لإبعاد أفكاره هو الثمن المدفوع إلى رعب الشبح الذي يحوّل عنه نظره؛ والسبيل الواجب اتباعه لمكافحة كل خوف، هو في التفكير فيه بهدوء وبعقلانية، ولكن بتركيز كبير حتى يصبح مألوفاً تماماً. وفي النهاية، ستخمد العادة ما في الخوف من رهبة؛ ويصبح الموضوع بأسره مملاً، وتتحوّل عنه أفكارنا ليس بالجهد والإرادة كما في السابق، ولكن بمجرد فقدان الاهتمام بالقضية. وإذا أنت شعرت بأنك تميل إلى تغذية أفكار قاتمة حول كل الأمور، فإن أفضل طريقة هي أن تفكّر فيها أكثر مما تفعل عادة، حتى يُستنفد الافتتان المرضي.

إن مشكلة الخوف هي واحدة من المشاكل التي يعتبر فيها علم الأخلاق الحديث الأكبر عيباً. صحيح أن الشجاعة المادية، وبخاصة في زمن الحرب، مطلوبة من الرجال، ولكن أشكالاً أخرى من الشجاعة ليست مطلوبة منهم، ولا يُطلب من النساء أي شجاعة. المرأة الشجاعة ينبغي أن تخفي هذه الحقيقة إذا هي شاءت أن تروق للرجال. نحن نسيء الظن في الرجل الذي لا يخاف شيئاً، باستثناء الخطر المادي. واللامبالاة تجاه الرأي العام تعتبر تحدّياً. والمجتمع يفعل كل ما بوسعه لكي يعاقب من يجرؤ على تحدّي سلطته. إن كل هذه الأمور هي نقيض ما ينبغي أن تكون. وكل شكل من أشكال الشجاعة، سواء أكانت لدى الرجل أو لدى المرأة، ينبغي أن تكون مثار الإعجاب، مثلما نعجب بشجاعة الجندي المادية. ويثبت توافر الشجاعة المادية لدى الشباب جيداً أن الشجاعة يمكن أن تنجم تلبية لطلب الرأي العام. ولو انه كان ثمة المزيد من الشجاعة، لكان ثمة قلق أقلّ، وبالتالي تعب أقلّ، ذلك بأن نسبة كبيرة من

المتاعب العصبية التي يشكو منها الرجال والنساء في أيامنا هذه، مردّها إلى المخاوف الواعية أو اللاشعورية.

إن مصدراً كثير الانتشار من التعب هو حب الإثارة. ولو استطاع الإنسان أن يخصّص أوقات فراغه للرقاد، فإنه سيبقى متوازناً جداً؛ ولكنه، وقد أنهكه العمل، يشعر بالحاجة إلى الطيش خلال ساعات حريته. وما يبعث على السأم هو أن الملذات الأسهل من حيث الحصول عليها، والأكثر سطحية، والأكثر اجتذاباً هي في معظم الأوقات مضنية ومنهكة. والرغبة في الانفعالات القوية، التي تتجاوز حداً معيّناً، هي الدليل إما على فكر مفتول، أو على استياء غريزي. في الفترات الأولى من الزواج السعيد، لا يشعر معظم الرجال بالحاجة إلى مثيرات، ولكن في أيامنا الحاضرة، ينبغي أن يؤجل الزواج إلى تاريخ جدّ بعيد، بحيث أنه عندما يغدو ممكناً من الناحية المادية، تكون الإثارة قد أصبحت عادة لا يمكن إحباطها إلا لفترة قصيرة. وإذا كان الرأي العام سمح للرجال بالزواج في سن الحادية والعشرين دون التعرّض إلى الأعباء المالية المرتبطة اليوم بالزواج، فإن كثيرين من الرجال لن يعتادوا على تطلّب ملذات مضنية كعملهم. وإنه لأمر لا أخلاقي، مع ذلك، الإيحاء بأن ذلك ممكن التحقيق، استناداً إلى حالة القاضي لندسي الذي غدا هدفاً للاغتياب، على الرغم من حياة طويلة ومشرّفة في حقل القضاء، وذلك للجرم الوحيد، وهو أنه أراد تجنيب الشبان التعاسات التي تنتظرهم نتيجة لتعصّب من هم أكبر سناً منهم. ولن أتوسع في هذا الموضوع، في الوقت الحاضر، ما دام يتعلّق بمجال الحسد الذي سنعالجه في ما بعد.

يصعب على الفرد الذي لا يسعه تعديل القوانين والمؤسسات التي تدير حياته، الكفاح ضد الوضع الذي خلقه الأخلاقيون الطغاة، ويجعلونه يدوم. ومع ذلك، من المفيد أن نعرف أن الملذات المفرطة لا تقود إلى السعادة، على الرغم من أن الإنسان يجازف في رؤية الحياة بالكاد محتملة دون مساعدة المثيرات ما بقيت المباهج المرضية بعيدة المنال. إن الأمر الوحيد الذي يستطيع الإنسان

الفطن القيام به في هذه الحالة هو أن يُكره نفسه على عدم الانغماس بقدر من الملذات التي قد تنهكه، وتضعف صحته، أو تزعجه في عمله. والعلاج الجذري للسأم لدى الشبان يكمن في تغيير الأخلاق العامة. بانتظار ذلك، يُحسن الشاب صنعاً في التفكير أنه في يوم ما سيصبح في وضع الزواج، وأنه من غير الحكمة أن يحيا حياة تجعل الزواج السعيد مستحيلاً؛ وهو أمر قد يحدث بسهولة إذا ما أُتلفت أعصابه، وإذا ما فقد القدرة على تذوُّق الملذات الأكثر لطفاً.

إن ما يجعل التعب العصبي بمثل هذه الخطورة، هو أنه يعمل كنوع من الحاجز بين الإنسان والعالم الخارجي. وتُصيبه الانطباعات كما لو كانت مخمّدة أو مصمّتة. إنه لا يعود يراقب الناس إلا لكي يهتاج من الحيل والتصنّعات الصغيرة؛ ولا تعود وجبات طعامه أو إشراقة الشمس تمنحه أي سرور، ويميل إلى التركيز على بعض الأمور النادرة، ويصبح لا مبالياً بالنسبة إلى سائر الأشياء. إن وضع الأمور هذا لا يتيح له أن يرتاح، بحيث أن التعب ينمو باستمرار حتى يبلغ مستوى يغدو فيه العلاج الطبي مفروضاً. كل ذلك هو في الأساس عقاب لأنه فقد هذا الاتصال بالأرض الذي سبق أن تحدّثنا عنه في فصل مضى. ولكنه ليس من السهل مطلقاً أن نرى كيف يمكن أن نحافظ على هذا الاتصال في تجمّعاتنا المدينية الكبيرة. ولكن هنا، نجد أنفسنا مجدداً وجهاً لوجه أمام قضايا اجتماعية واسعة، لا أنوي بحثها في هذا الكتاب.

٦

الحسد

يبقى الحسد، بعد القلق، أحد أقوى أسباب الألم. والحسد، في رأيي، هو أحد الانفعالات الأكثر شمولية والأعمق تجذّراً في الإنسان. نجده غالباً لدى الصغار الذين لم يبلغوا سنتهم الأولى، وينبغي معالجته من جانب كل المربّين بأرقّ احترام. ذلك بأن أدنى تفضيل يُبدى لطفل على حساب طفل آخر، سرعان ما يُلاحظ ويُشْعَر به. ينبغي الحفاظ على تجرّد مطلق، وقاسٍ، لا يتغيّر من جانب كل الذين يُعنون بالأطفال. ولكن الأطفال ليسوا إلا أكثر صراحة من الراشدين في إظهار الحسد والغيرة (التي هي شكل خاص من الحسد). والانفعال منتشر كذلك بين الراشدين والأطفال على السواء. لاحظ، مثلاً، قضية الخدم: أذكر أنه عندما أصبحت إحدى خادماتنا المتزوجة، حاملاً، وأعفيت من حمل الأثقال، كانت النتيجة المباشرة أن سائر الخادمات رفضن رفع الأثقال، فاضطررنا إلى القيام بمثل هذه الأعباء بأنفسنا. إن الحسد هو في أساس

الديمقراطية. فقد صرّح هراقليطس بأن مواطني أفسس ينبغي أن يُشنقوا جميعاً لأنهم قالوا: «ليس بيننا شخص أول». إن الحركة الديمقراطية في الدول اليونانية القديمة ربما استلهمت كلياً تقريباً هذا الانفعال. ويصدق ذلك على الديمقراطية الحديثة. صحيح أن ثمة نظرية مثالية تفيد أن الديمقراطية هي أفضل أنواع الحكم. في رأيي، إن هذه النظرية صائبة. غير أنه في السياسة العملية، ليس ثمة مجالات للنظريات المثالية لكي تكون من القوة بحيث تُثير تغييرات كبيرة. عندما تحدث الاضطرابات الخطيرة، تموِّه النظريات التي تبرِّرها دوماً الانفعال. والانفعال الذي منح النظريات الديمقراطية الدفع، هو الحسد بلا جدال. إقرأ مذكرات مدام رولان التي غالباً ما توصف بالمرأة النبيلة التي استلهمت الإخلاص للشعب. وستدرك أن ما يجعلها ديمقراطية متحمسة هي أنها أُدخلت إلى غرف الخدمة لدى زيارتها قصراً لبعض الأرستقراطيين.

يمثّل الحسد دوراً هائلاً لدى غالبية النساء المحترمات. إذا كنت جالساً في المترو، ومرّت في الحافلة امرأة حسنة اللباس، فإنك ترى أن كل النساء، وربما باستثناء اللواتي أفضل منها لباساً، يتابعن بنظرهن السيِّء النية هذه المرأة، ويجتهدن، مهما كلّف الأمر، في استخلاص النتائج المُذلّة بالنسبة إليها. إن حب الفضيحة هو مظهر من سوء النية العام هذا. وكل قصة تروى عن المرأة هي مقبولة بصورة مباشرة، حتى لو كانت الأدلة تافهة.

والشيء نفسه يمكن ملاحظته لدى الرجال، ولكن مع هذا الفارق، وهو أن النساء يعتبرن كل النساء الأخريات منافسات، في حين أن الرجال، عموماً، لا يتبنّون هذا الموقف إلا تجاه من يقومون بالحرفة نفسها. هل اتفق لك، أيها القارىء، أن أشدت يوماً بفنّان أمام فنّان آخر؟ هل أشدت قط بسياسي أمام سياسي آخر من الحزب نفسه؟ هل أطريت يوماً عالِماً بالآثار المصرية أمام عالِم آخر بالآثار المصرية؟ إذا كان الجواب بالإيجاب، فإنك، لا ريب، قد أحدثت تفجُّراً للغيرة. في المراسلة التي جرت بين العالِمين لايبنتس وهيجنز، هناك عدد من الرسائل ترثي لجنون العالِم نيوتن المزعوم. كتب واحدهم إلى الآخر: «أليس

محزناً أن يحجب فقدان العقل عبقرية نيوتن التي لا مثيل لها؟» وهذان الرجلان اللامعان، في رسائل عديدة، يذرفان دموع التماسيح بسرور بادٍ.

الحقيقة هي أن الحدث الذي يرثون له برياء لم يجرِ قط، على الرغم من أن بعض التصرّفات الغريبة التي صدرت عن نيوتن قد أثارت الشائعات.

من بين كل عناصر الطبيعة البشرية، يبقى الحسد الأكثر إزعاجاً. فالحاسد لا يريد، وحسب، التسبّب بالمصيبة، ويقوم بذلك في كل مرة يكون الأمر في متناوله دون أن يناله العقاب، بل إنه شخصياً يجعل نفسه تعساً بسبب هذا الحسد. وبدلاً من أن يجد السرور مما يمتلك، تراه يجني الألم مما يمتلكه الآخرون. وإذا استطاع، لحرم الآخرين من منافعهم، وهو أمر بالنسبة إليه مرغوب فيه كما لو كان أمّن لنفسه هذه المنافع. وإذا أطلق العنان لانفعاله لأصبح انفعاله مضراً إلى أبعد الحدود، وحتى بالنسبة إلى أفضل تطبيق دقيق بصورة استثنائية. لماذا يُسمح للعالِم أن يلازم حجرة مدفّأة بينما ينبغي للآخرين أن يجابهوا الشوادن (مختلف العوامل الجوية غير المألوفة أو غير العادية)؟ لماذا يُعفى الشخص الذي يتمتع بموهبة نادرة وقيّمة بالنسبة إلى مستقبل العالم من القيام شخصياً بتدبير شؤون منزله؟ عن مثل هذه الأسئلة لا يجد الحسد جواباً. من حسن الطالع أن في الطبيعة البشرية انفعالاً معوّضاً هو الإعجاب. إن كل الذين يودّون مضاعفة السعادة البشرية ينبغي لهم أن يريدوا ازدياد الإعجاب وتناقص الحسد.

ما هو علاج الحسد؟ القديس يستطيع مداواته بنكران الذات، علماً بأنه حتى بالنسبة إلى القديسين، ليس الحسد أمراً مستحيلاً في ما بينهم. وبغضّ النظر عن هؤلاء، تبقى السعادة العلاج الوحيد للحسد بالنسبة إلى الرجال والنساء العاديين؛ والمزعج هو أن الحسد نفسه يمثّل عقبة كبيرة في سبيل السعادة. ويقيني أن التعاسة التي تصيب المرء في الطفولة تسهم إلى حدّ كبير في تنمية الحسد.

فالطفل الذي يرى أن أخاً له أو أختاً يُفضّلان عليه يكتسب عادة الحسد،

وعندما يكبر تراه يتوقّع ظلامات يكون هو ضحيتها، ويلاحظها فوراً إذا ما حدثت، ويتصوّرها إذا هي لم تحدث. إن مثل هذا الشخص تعس حتماً، ويغدو مزعجاً بالنسبة إلى أصدقائه الذين لا يسعهم دوماً الحرص على تجنّب مواجهات خيالية. بعد أن يبدأ بالاعتقاد أن لا أحد يحبّه، ينتهي إلى تبرير هذا الاعتقاد بتصرّفه. والمصيبة الأخرى التي تُحدث النتائج نفسها هي أن يكون للشخص في طفولته والدان مجرَّدان من الحنان. ومن دون أن يكون له أخ أو أخت مفضَّلان بطريقة غير منصفة، يستطيع الطفل أن يشعر بأن أطفال سائر الأسر محبوبون أكثر من جانب ذويهم. وهذا يجعله يكره الأطفال الآخرين ووالديه، وعندما يكبر يشعر بأنه بات له نفسية إسماعيل. (إسماعيل هو ابن إبراهيم الخليل من هاجر. وأخوه إسحق من أبيه إبراهيم وسارة. ومعروف أن إبراهيم الخليل اختار اسماعيل للتضحية به تلبية لطلب الله تعالى).

إن قدراً من السعادة هو القسمة الطبيعية لكل واحد منا، والشخص المحروم منها يصبح حتماً منحلّاً وعنيفاً.

غير أن الحاسد قد يجيب: «ما الفائدة من أن يقال لي إن علاج الحسد هو السعادة؟ أنا لا يسعني أن أجد السعادة ما دمت أشعر بالحسد، وأنت تقول لي إنه لا يسعني التوقّف عن كوني حاسداً، ما دمت لم أجد السعادة». سوى أن الحياة الحقيقية ليست منطقية إلى هذا الحدّ. إن نظر المرء، وحسب، إلى أسباب حسده، هو الابتعاد عن العلاج. وعادة التفكير في حدود المقارنة هي عادة مشؤومة.

إن كل حدث سارّ ينبغي أن يُقدَّر تماماً، ولا ينبغي التوقّف للتفكير في أن هذا السرور ليس مستحباً كالسرور الذي يمكن أن يصيب الجار. يقول الحاسد: «أجل، الشمس تسطع، إنه الربيع، والعصافير تزقزق والزهور تتفتّح، ولكن يقولون لي إن الربيع في صقلية أجمل ألف مرة وأروع، وإن زقزقة العصافير في غابة هيليكون الصغيرة أعذب، وأن رياحين شارون أجمل من كل الورود في حديقتي.»(هيليكون سلسلة جبال في بويسيا، في وسط اليونان

الشرقي، وهي الموطن الأسطوري للموزيات، أو عرائس الوحي التسع؛ وشارون سهل في فلسطين على ساحل المتوسط بين يافا وقيصرية). وفي الوقت نفسه الذي ترهقه فيه هذه الأفكار، تُحجب الشمس، وتغدو زقزقة العصافير زقزقة فارغة من المعنى، ولا تبدو الأزهار جديرة بأن تشاهد. إنه يعتبر كل مباهج الحياة الأخرى بالطريقة نفسها. سيقول بينه وبين نفسه: «أجل، إن حبيبة قلبي فاتنة، أحبها وتحبني، ولكن كم كانت أكثر سحراً ملكة سبأ! آه، حبذا لو أتيح لي حظ سليمان!...».

إن كل هذه المقارنات سخيفة وغير معقولة؛ أن تكون ملكة سبأ أو جارتنا سبب الاستياء، ذلك تافه أيضاً. العاقل لا يتوقف عن حبّ ما يملك إذا رأى أن جاره يملك خيراً آخر.

الواقع أن الحسد هو شكل من النقيصة، في قسم منه أخلاقي، وفي قسم آخر فكري، يجعلنا ننظر إلى الأمور ليس على ما هي عليه، ولكنْ، وحسب، بالنسبة إلى الأمور الأخرى. أنا أكسب أجراً يسدّ حاجاتي. ينبغي لي أن أكون مكتفياً وراضياً، ولكنني أعلم أن شخصاً ما، هو في رأيي، ليس أفضل مني، يحصّل مرتّباً يبلغ ضعفي مرتّبي. إذا كنت نزّاعاً إلى الحسد، فإن السرور الذي يتعينّ عليّ أن أصيبه مما لديّ يُحجَب على الفور، وأغدو فريسة التآكل بالشعور بالظلم. والعلاج الفعّال بالنسبة إلى كل ذلك هو التربية الذهنية، وعادة عدم خلق المرء لنفسه أفكاراً لا طائل منها. في نهاية المطاف، ما هو مشتهى أكثر من السعادة نفسها؟ وإذا كان باستطاعتي شفاء نفسي من الحسد، أصبح في حالة تمكنني من اكتساب السعادة، ومن أن أصبح جديراً بالحسد. إن من يكسب أجراً مضاعفاً بالنسبة إلى أجري هو حتماً معذّب بالتفكير في أن شخصاً آخر يحصّل مرتّباً هو ضعف مرتّبه، وهكذا دواليك. إذا شئت المجد، بوسعك أن تحسد نابوليون. ولكن نابوليون كان يحسد قيصر، وقيصر كان يحسد الإسكندر، والإسكندر، إذا تجرأت على القول، كان يحسد هرقل، وهرقل لم يوجد قط. وهكذا لا يسعك أن تتجنّب الحسد من طريق النجاح وحده، ذلك بأنه ستوجد

دوماً شخصية تاريخية أو أسطورية نجحت أكثر منك. قدّر المباهج التي تعرض لك، وقم بالعمل المطلوب منك، ولا تقارن نفسك بأولئك الذين تعتقد، ربما، خطأ أنهم أسعد منك ـ تلك هي أفضل السبل لتجنّب الحسد.

يمثّل التواضع في غير موضعه دوراً كبيراً في الحسد. التواضع يُعتبر فضيلة، ولكنني لا أحسب أنه في أشكاله القصوى، يستحق هذه التسمية. إن المتواضعين ينبغي أن يكونوا مطمأنين غالباً، ولا يجرؤون على القيام بأعمال هم قادرون تماماً على إنجازها على خير وجه. المتواضعون يعتقدون أنهم محجوبون من أولئك الذين يعاشرونهم. لذا تراهم يميلون بصورة خاصة إلى الحسد، والحسد يجرّ الاستياء والإرادة السيئة. أنا أوافق على أن ثمة أشياء تقال في صالح تربية تعوِّد الطفل على الاعتقاد بأنه إنسان طيب. ولا أعتقد أن طاووساً يحسد ذيل طاووس آخر، لأن كل طاووس مقتنع بأن ذيله هو الأجمل في العالم.

وينجم عن ذلك أن الطواويس طيور مسالمة. تصوّر كم تكون حياة الطاووس تعسة فيما لو تعلّم أن يفكر في أن تكوين فكرة سيئة عن نفسه هو شرّ. ففي كل مرة يشاهد فيها طاووساً يستدير على نفسه، سيقول بينه وبين نفسه: «لا ينبغي لي أن أتصوّر أن ذيلي أجمل من ذيله، لأن ذلك سيكون بلا طائل، ولكن آه! لكم أودّ لو كان الأمر كذلك! هذا الطير الكريه واثق تماماً من روعته! هل سأنتزع منه بعض ريشه؟ ربما عندئذ لن أعود أخشى أن أُقارَن به». أو لعله ينصب له فخّاً لكي يُثبت أنه كان طاووساً خبيثاً، وكان قادراً على التصرّف تصرّفاً غير لائق، ويشي به إلى جمعية الزعماء. وشيئاً فشيئاً، تراه يضع مبدأ أن الطواويس ذات الذيل الجميل بصورة مميّزة، هي دوماً خبيثة تقريباً، وأن الرئيس العاقل في مملكة الطواويس، يتعينّ عليه البحث عن طير متواضع لا يكون في ذيله سوى بضع ريشات غير نظيفة. وبعد أن يعمل على جعل هذا المبدأ مقبولاً، يقضي بالموت على كل الطيور الأكثر جمالاً، وفي النهاية، سيصبح الذيل الرائع حقاً ذكرى باهتة جداً. ذلك هو النصر الذي يحرزه الحسد عندما يتخذ قناع الفضيلة. ولكن كل عملية الطرد هذه لا تفرض نفسها فيما لو اعتقد

كل طاووس أنه أجمل من الطواويس الأخرى.

إن كل طاووس يتوقّع أن يكسب الجائزة الأولى في المباراة، وكل طاووس يعتقد أنه فعل ذلك لأنه يعتبر أنثاه.

الحسد مرتبط ارتباطاً وثيقاً، طبعاً، بروح المنافسة. فنحن لا نحسد مصيراً نعتقد أنه بعيد عن متناولنا. في عصر تُحدَّد فيه المراتب الاجتماعية، لن تحسد الطبقات الدنيا الطبقات العليا ما دام مقبولاً الاعتقاد بأن التفريق بين الفقراء والأغنياء هو إرادة الله تعالى. فالمتسولون إذا ما حسدوا متسولين آخرين نجحوا أكثر منهم، فإنهم لا يحسدون أصحاب الملايين. في أيامنا هذه،إن تقلقل وضعنا الاجتماعي والنظريات المنادية بالمساواة في الديمقراطية والإشتراكية ـ كل ذلك ضاعف كثيراً مجال عمل الحسد. وفي الوقت الحاضر، هذا شرّ ينبغي أن يُعانى لكي يتسنّى بلوغ نظام اجتماعي أكثر عدلاً وإنصافاً. وإذا نحن تفحّصنا فقدان المساواة بطريقة عقلانية، فإنه يبدو على الفور أنه غير عادل ما لم يرتكز على التفوّق في المهارات. فإذا ما نُظر إليه في هذا الضوء، فإن علاج الحسد الوحيد الذي ينجم عن ذلك هو في إزالة الظلم.

إذاً، فالحسد يحتلّ مقاماً رئيسياً في عصرنا. الفقير يحسد الغني، والبلدان الفقيرة تحسد البلدان الغنية، والنساء يحسدن الرجال، والنساء العفيفات يحسدن النساء اللواتي لا يعاقَبن، مع انهن لسن عفيفات. وإذا كان صحيحاً أن الحسد هو العامل الرئيسي الذي يقيم العدالة بين مختلف الطبقات، ومختلف الدول، والأجناس، فإنه صحيح كذلك أن العدالة التي تنجم عن الحسد ستكون بوجه الاحتمال من أسوأ الأنواع، وأعني بذلك أنها ستكون عدالة تُنقص من مباهج المحظوظين أكثر مما تضاعف مباهج المحرومين. إن الانفعالات التي لا تخلق إلا الضرر في الحياة الخاصة، إنما تفعل ذلك في الحياة السياسية.

لا ينبغي لنا أن نتوقّع أن ينبثق الخير من شر كبير كالحسد. وكذلك، فإن أولئك الذين يرغبون، من أجل غايات مثالية، في حدوث تغييرات عميقة في

نظامنا الاجتماعي، وفي نمو كبير في مجال العدالة، ينبغي لهم أن يرجوا أن تُستخدم في هذه التعديلات قوى أخرى غير الحسد.

إن كل الأشياء المؤذية متصلة اتصالاً وثيقاً بعضها ببعض، وكلها قابلة لأن يكون لها انعكاسات متبادلة. والتعب، بصورة خاصة، هو سبب جدّ مألوف للحسد. فإذا ما شعر المرء بأنه عاجز عن إنجاز عمله، فإنه يحسّ باستياء عام يميل إلى ارتداء مظهر الحسد تجاه أولئك الذين يكون عملهم أقلّ تطلُّباً. وإحدى السبل الآيلة إلى تناقص الحسد هي، إذاً، في تخفيض التعب. ولكن ما هو أكثر أهمية، تأمين حياة يمكن أن ترضي الغريزة. والكثير من الغيرة التي تبدو مهنية صرفاً هي في الحقيقة من النوع الجنسي. فالشخص السعيد في حياته العائلية لا يمكن أن يحسد الآخرين على غناهم أو نجاحهم، ما دام باستطاعته تنشئة أولاده على النهج الذي يعتبره الأفضل. إن كنه السعادة البشرية بسيط، وبسيط جداً بحيث أن الأناس «السنوب» لا يسعهم أن يعزموا على الاعتراف بما يعوزهم حقيقة. إن النساء اللواتي تحدَّثت عنهن سابقاً، واللواتي ينظرن بحسد إلى كل النساء المرتديات أفضل لباس، لسن سعيدات، كن واثقاً من ذلك. فالسعادة الغريزية أمر نادر في البلدان الناطقة بالإنكليزية، وبخاصة بين النساء. ويبدو أن الحضارة، من هذه الناحية، تحيد عن السبيل السويّ. وإذا شئنا أن يتناقص الحسد، ينبغي أن نجد علاجاً، وإذا لم يسعنا أن نجد مثل هذا العلاج، فإن حضارتنا مهددة بأن تتحوَّل إلى عالم من الحقد يكون دماره وشيك الوقوع. في الماضي، كان الناس يحسدون جيرانهم، وحسب، لأنهم لم يكونوا يعرفون إلا القليل عن الآخرين. في أيامنا هذه، وبفضل التعليم والصحافة، تراهم يعرفون كثيراً من الأمور بطريقة محسوسة عن طبقات كثيرة من البشرية التي لا يعرفون منها أي فرد شخصياً. وبفضل السينما، يحسبون أنهم مطّلعون على حياة الأغنياء؛ وبفضل الصحف، يطّلعون على شرور البلدان الأخرى؛ وبفضل الدعاية، يطّلعون على العادات الكريهة لدى أولئك الذين يختلف لون بشرتهم عن لون بشرتهم هم. الصفر يحسدون البيض، والبيض يحسدون السود، وهكذا دواليك.

ستقول ان هذا الحقد كله تؤججه الدعاية، غير أن توضيحك سطحي نوعاً ما. لماذا تكون الدعاية مسرورة جداً عندما تشجع على الحقد، أكثر منها عندما تشجع على المشاعر الرقيقة؟

السبب في ذلك حتماً هو أن القلب البشري، كما شكّلته الحضارة العصرية، ميّال أكثر إلى الحقد منه إلى الصداقة. وهو أكثر ميلاً إلى الحقد لأنه غير مكتفٍ، ولأنه يشعر بعمق، وربما لا شعورياً حتى، أنه لم يستطع أن يجد معنى الحياة، وربما سوانا أمّنوا لأنفسهم الأشياء الجميلة التي تقدّمها الطبيعة إلى الإنسان من أجل سروره. وإن المجموع الإيجابي للمسرات في حياة الإنسان العصري لهو بلا جدال، أكبر مما كان عليه في المجتمعات الأكثر بدائية، ولكن وعي ما يمكن أن يكون ما فتىء ينمو أكثر فأكثر. عندما تصطحب إبنك إلى حديقة الحيوان، يمكنك أن تلاحظ في عيون القرود، عندما لا تقوم بمآثر بهلوانية، أو تكسر الجوز، حزناً غريباً. وبوسعنا أن نعتقد تقريباً أنها تشعر بواجب أن تصبح بشراً، ولكن لا يسعها أن تكتشف السر لبلوغ ذلك. على طريق التطور، ضلّت طريقها؛ فتقدّم أبناء عمومتها، وتركوها خلفهم. وإننا لنجد قليلاً من هذا التوتر، وهذا القلق في نفس المتمدن. إنه يعلم أن ثمة شيئاً يتفوّق عليه، ويكاد يكون في متناول يده، ومع ذلك لا يدري إلى أين يتجه، ولا يدري كيف يجده. في حالة اليأس، تراه يستشيط غضباً على شبيهه الذي هو مثله ضائع وتعس. لقد بلغنا في تطورنا مرحلة ليست المرحلة النهائية. يتعيّن علينا تجاوزها بسرعة لأننا إذا لم نفعل ذلك، سيهلك عدد كبير منا، في هذه الأثناء، وسيتيه الآخرون في غابة من الشك والخوف. لذا فإن الحسد، على أذاه في حدّ ذاته وفي نتائجه، ليس من عمل الشيطان كلياً. إنه في قسم منه التعبير عن ألم بطولي، ألم أولئك الذين يسيرون على غير هدى في الليل، ربما شطر مسكن أكثر أماناً، وربما نحو الموت والدمار. وللعثور على الطريق التي تُخرج الإنسان المتحضر من عالم اليأس هذا، ينبغي له أن يُغني قلبه مثلما وسّع فكره. عليه أن يتعلّم كيف يتجاوز نفسه، وبعمله هذا، يتعلّم كيف يكسب حرية الكون.

قالوا في الحسد!

هذه الآنْ طائفة مما قالت العرب نثراً وشعراً، جمعها المعرّب تعمياً للفائدة.

● قال سليمان التيمي: الحسد يُضعف اليقين ويُسهر العين ويكثر الهمّ.

● وقال بعض الحكماء: ما أمحق للإيمان ولا أهتك للستر من الحسد. وذلك أن الحاسد مفند لحكم الله، باغٍ على عباده، عاتٍ على ربّه. يعتدّ نِعَم الله نِقَماً ومزيده غُبّراً. وعدل قضائه حيفاً للناس حالٌ وله حال. ليس يهدأ ليلُه، ولا ينام جشعه، ولا ينفعه عيشه. محتقر لنعم الله عليه، متسخّط ما جرت به أقداره. ولا يبرد غليله، ولا تؤمن غوائله. إن سألته وترك، وإن واصلته قصعك، وإن صرمته سبقك.

● ذُكر حاسد عند بعض الحكماء فقال: يا عجباً لرجل أسلكه الشيطان مهاوي الضلالة، وأورده قُحم الهلكة. فصار لِنِعم الله تعالى المرصاد بأن أنالها من أحب من عباده. أُشعر قلبه الأسف على ما لم يُقدر له، وأغاره الكَلَف بما لم يكن ليناله.

● الحسد أن تتمنى زوال نعمة غيرك. الحسد أول ذنب عُصي الله به في السماء والأرض.

قال ابن المقفّع: الحسد والحرص. (دعامتا الذنوب). فالحرص أخرج آدم من الجنة، والحسد نقل إبليس من جوار الله.

● وقال أيضاً: لله درّ الحسد، ما أعدله، يقتل الحاسد قبل أن يصل إلى المحسود.

● وقيل: الحسود لا يسود.

قال بعضهم: أعظم الذنوب عند الله الحسد، والحاسد مضاد لنعمة الله، خارج عن أمر الله، تارك لعهد الله.

● وقال معاوية: كل إنسان أقدر أن أرضيه إلا حاسد نعمة فلا يرضيه إلا زوالها.

● وأخيراً، قال أرسطو بحسب ما نقله حكماء العرب: الحسد حسدان محمود ومذموم؛ فالمحمود أن ترى عالماً فتشتهي أن تكون مثله، أو زاهداً فتشتهي مثل فعله. والمذموم أن ترى عالماً أو فاضلاً فتشتهي أن يموت.

وأما الحسد في الشعر، فهذه بعض المختارات منه:

● قال منصور الفقيه:

ألا قل لمن كان لي حاسداً	أتدري على من أسأت الأدب
أسأت على الله في فضله	إذا أنت لم ترضَ ما قد وهب

● وقال أبو العتاهية:

أيا ربِّ إن الناس لا ينصفونني	وكيف ولو أنصفتهم ظلموني
وإن كان لي شيء تصدّوا لأخذه	وإن جئت أبغي منهم منعوني
وإن نالهم بذلي فلا شكر عندهم	وإن أنا لم أبذل لهم شتموني
وإن طرقتني نعمة فرحوا بها	وإن صحبتني نعمة حسدوني
سأمنع قلبي أن يحنّ إليهم	وأحجب عنهم ناظري وجفوني

● كتب ابن بشر المروزي إلى ابن المبارك هذه الأبيات:

كل العداوة قد ترجى إماتتها	إلا عداوة من عاداك عن حسد
فإن في القلب منها عقدة عُقدت	وليس يفتحها راقٍ إلى الأبد

● قال بعض الشعراء:

إصبر على كيد الحسود،	فإن صبرك قاتله

كالنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله

● قال ابن المعتزّ:

المجد والحُسّاد مقرونان إن ذهبوا فذاهبْ
ولئن ملكت المجد لم تملك مودّات الأقارب

● وقال آخرون:

إياك والحسد الذي هو آفة فتوقّه وتوقَّ غِرّة من حسد
إن الحسود إذا أراك مودة بالقول فهو لك العدو المجتهد

يا طالب العيش في أمن وفي دعة رغداً بلا قترٍ صفواً بلا رتق
خلّص فؤادك من غلّ ومن حسدٍ فالغلّ في القلب مثل الغلّ في العنق

● ولبعض الأدباء ينصح الحسود:

لا يحزننّك فقر إن عراك ولا تتبع أخاً لك في مال له حسدا
فإنه في رخاء في معيشته وأنت تلقى بذاك الهم والنكدا

٧

الشعـور بالإثم

لقد سبق أن سنحت لنا الفرصة للتحـدث عن الشعور بـالإثم في الفصل الأول، ولكن ينبغي لنا الآن أن نتوسّع أكثر في هذا الموضوع، ذلك بأنه أحد الأسباب السيكولوجية الغـامضة التي تثـير في كثير من الأحيـان التعاسـة في حياة الراشد.

هناك سيكولـوجية دينيـة تقليديـة تتعلّق بالخـطيئة لا يسـع أي عالم نفسي حديث القبول بهـا. فالـبروتستانت، بصـورة خاصـة، اعتقدوا أن الضمـير كان ينكشف لكل امرىء تغريه الخطيئة، وأنه عقب ارتكابـه هذه الخـطيئة، بـوسعه الإحســاس بشعورين مؤلمـين، سواء النـدم الذي لا ينـطوي على أي مـزيّة، أو التوبة التي تستطيع أن تكفّر عن إثمه. وفي البلدان البروتستانتيـة، استمر هؤلاء الذين فقدوا الإيمان خلال بعض الوقت في تقبُّل المفهوم التقليدي للخطيئة، مع بعض التعـديلات تقـريباً. وفي أيـامنا الحـاضرة، وتحت تأثـير التحليل النفسي،

بصورة جزئية، تجري الأمور بطريقة معاكسة؛ فالأشخاص غير التقليديين يرفضون المبدأ القديم للخطيئة وكثيرون ممن يعتبرون أنفسهم بعد تقليديين ينسجون على منوالهم. ولم يعد الضمير شيئاً غامضاً، وقد اعتُبر، بفضل طابعه الغامض، صوت الله تعالى.

ونحن نعلم أن في أجزاء مختلفة من العالم، يفرض الضمير تصرّفات مختلفة، وهو، عموماً، في كل مكان متوافق مع عادات القبائل المختلفة. ماذا يحدث، إذاً، عندما ينخس الضمير شخصاً ما؟

إن كلمة «ضمير» تنطوي، في الحقيقة، على مشاعر عدة؛ الشعور الأكثر بدائية هو الخوف من الافتضاح. أنت، أيها القارىء، عشت ـ أنا واثق من ذلك ـ عيشة لا غبار عليها؛ ولكنك إذا سألت شخصاً ارتكب أعمالاً، كلّفته لدى اكتشافها، عقاباً، فإنك ستجد أن الشخص المذكور قد تاب عن جريمته عندما بدا اكتشافها محتوماً. أنا لا أقول إن هذا ينطبق على اللص المحترف الذي يتوقّع بضع سنوات من السجن بمثابة مخاطر المهنة، ولكن ذلك يصح بالنسبة إلى من نستطيع أن نسمّيه الخاطىء المعتبر، مثل مدير مصرف اختلس أموالاً في وقت عصيب، أو مثل رجل دين أرخى العنان لشهوة جنسية. هذان الرجلان يسعهما نسيان جريمتيهما إذا كانت فرصة افتضاحهما ضئيلة. غير أنه إذا ما اكتُشفت هاتان الجريمتان، أو إذا كان ثمة خطر في أن تُعرفا، فإنهما يندمان على الانحطاط إلى هذا الدرك، وقد يمنحهما هذا الندم وعياً قوياً لفداحة خطيئتهما. والخوف من الطرد من القطيع شعور وثيق الصلة بهذا الشعور. فالشخص الذي يغشّ في لعب الورق، أو الذي لا يسدّد ديون القمار، إذا ما افتضح، لا يجد شيئاً في نفسه يتيح له أن يقاوم استهجان الجمهور. في هذا المجال، إنه يختلف عن المصلح الديني، وعن الفوضوي، وعن الثوري؛ فهؤلاء يشعرون جميعاً أن المستقبل معهم، مهما يكن مصيرهم الحالي، وأنه سيقدّم إليهم الشرف الذي امتنع عليهم الآن. إن هؤلاء الأشخاص، على الرغم من عداوة الجمهور، لا يشعرون أنهم مذنبون، ولكن ذاك الذي يتقبّل أخلاقيات القطيع جملةً، فإنه

يغدو تعساً عندما ينتهكهـا لأنه لم يراعِ مقامـه. والخوف من هـذه المصيبة والألم الذي يحسّه عندما تحدث قد يجعلانه بسهولة يعتبر هذه الأعمال أثيمة.

سوى أن للشعور بالإثم، في أشكاله الأكثر وضوحاً، أسباباً أعمق. إن له جـذوراً في اللاشعـور، ولا يظهـر في الوعي المبـين بما هـو كذلـك إلا خشية أن يشجبه الآخرون. وفي الضمير، بعض الأعمال توسـم خطايـا دونما سبب ظـاهر للإستبطان (الإستبطان عملية تشاهد بها الذات ما يجري في الذهن من شعوريـات لوصفها لا لتأويلها). ويشعر الشخص وهو يرتكب هذه الأعمال بالانـزعاج دون أن يدري لماذا. إنه يودّ أن يكون الشخص الذي يستطيع الامتنـاع عن ارتكاب الأعمال التي تبدو له أثيمة. إنه يمنح إعجابه الأخلاقي، وحسب، أولئك الـذين يعتقـد أن قلبهم نقي. إنه يعـترف بشيء من النـدم انـه لم يُكتب لـه أن يكـون قديساً؛ الـواقع أن مفهـومه للقـداسة ليس، عـلى الأرجح، قـابلاً للتحقيق في الحيـاة اليوميـة. وينجم عن ذلك أن يعيش في ظـل الشعور بـالإثم، ويحسّ أن الأفضل ليس من نصيبه، وأن اللحظات الأسمى في حياتـه هي تلك التي يتوب فيها متباكياً.

في كـل الحالات تقـريباً، ينبغي وضـع المسؤوليـة في هـذا المـوقف، عـلى الـتربية الأخـلاقية التي تلقّـاها المرء على يـد أمـه أو مـربيتـه قبـل أن يبلغ سنّ السادسة. قبل هذه السنـة، تعلّم أن الشتيمة أمـر سيّىء، وأنه ينبغي استخـدام لغـة مهذّبـة، وحسب، وأن الأشرار وحـدهم يشربـون الكحـول، وأن التبـغ، أخيراً، لا يتلاءم مطلقاً مع الفضيلة. وتعلّم أنه لا ينبغي الكذب بتاتاً. وتعلّم، خصوصاً، أن اهتمامه بأعضائه التناسلية أمر كـريه. وكـان يعرف أن ذلـك كان رأي والدته، وأنه كذلك رأي الخالق. وكان أكبر سرور بـالنسبة إليـه أن تعامله أمه بحنان ومحبّة، أو إذا ما أهملته هذه، أن تكـون مربيتـه من يفعل ذلـك؛ ولم يكن بـوسعه الحصـول على ذلـك إلا عندمـا لا يرتكب خـطيئـة بحق القـانـون الأخلاقي. لذا تراه يقرن شعوراً غامضاً بالإثم بكل تصرّف أنكرته عليه أمـه أو مربيته. ورويداً رويداً، نسي، وهو يكبر، من أين جاء قانونه الأخلاقي، ومـاذا

كان في الأصل، عقاب عصيانه أو تمرّده، ولكنه لم ينبذ مبادئه الأخلاقية، ولم ينقطع عن الاعتقاد بأن شيئاً ما رهيباً قد يصيبه إذا هو نكث بها.

إلا أن كثيراً من الأمور في هذه التربية الأخلاقية للأولاد، لا أساس عقلانياً لها، ولا يمكن أن تُطبّق على السلوك العادي لدى الأشخاص السويّين. إن الشخص الذي يستعمل لغة ماجنة ليس، من وجهة نظر عقلية، أسوأ من شخص لا يستعملها.

ومع ذلك، يعتبر كل الناس تقريباً أن الامتناع عن الشتيمة ضروري بالنسبة إلى القديس مثلما يتصوّرون. إن ذلك، في ضوء العقل، لسخيف بكل بساطة. وكذلك هي الحال بالنسبة إلى التبغ والشراب.

في علم الأخلاق المنطقي، يُعتبر أمراً محموداً توفير المرء المتعة للجميع، وحتى لنفسه، شرط ألا يكون الألم هو الثمن. ولو أننا تجرّدنا من الزهد، فإن الشخص المتمتع بفضيلة مثالية سيكون ذاك الذي يجيز لنفسه الاستمتاع بكل الأمور الحسنة التي ليس لها عاقبة مسيئة تفوق السرور. أعتبر مجدداً مسألة الكذب. أنا لا أنكر أن هناك أكاذيب كثيرة في هذا العالم، ولا ندري ماذا نفيد إذا قال البشر في أغلب الأحيان الحقيقة، ولكنني أنكر كما ينكر كل شخص عاقل، أن الكذب لا يمكن أن يُبرّر مطلقاً. فقد حدث لي مرة، خلال نزهة في الريف، أن رأيت ثعلباً منهكاً، وفي أقصى درجات الإرهاق، يُجبر نفسه على الركض. وبعد بضع دقائق أبصرت سرباً من كلاب الصيد (رهطاً). فسألني الصيادون عما إذا كنت شاهدت الثعلب، فأجبت أنني رأيته. وسألوني كيف اتجه، فكذبت عليهم. ولا أعتقد أنني لو قلت الحقيقة لاعتُبرت إنساناً أفضل.

إلا أن التربية الأخلاقية المبكرة تصبح مضرّة، بصورة خاصة، في ميدان الجنس. إذا كان الولد قد أُنشىء تنشئة تقليدية من جانب والدين أو مربيات على جانب من القسوة، فإن الربط بين الخطيئة والأعضاء التناسلية يكون قائماً بثبات في الفترة التي يبلغ فيها سن السادسة بحيث أن فرصة اختفائه في ما تبقّى

من حياته تكون ضئيلة. إن هذا الشعور تعزّزه ـ بالطبع ـ عقدة أوديب، ما دامت المرأة المحبوبة أكثر من سواها في الطفولة هي التي تستحيل معها كل حرية جنسية. وينجم عن ذلك أن كثيرين من الرجال الراشدين يعتقدون أن النساء محقِّرات بالغريزة الجنسية، ولا يسعهم احترام زوجاتهم إذا لم يشعرن بالرعب إزاء العلاقات الجنسية. غير أن الرجل الذي تكون زوجته وانية الشبق (باردة جنسياً)، سيُدفع للبحث عن إرضاء غرائزه في مكان آخر. إلا أن هذا الإرضاء، إذا ما اتفق أن أحسّ به موقتاً، سيُسمّه الشعور بالإثم، بحيث أنه لا يستطيع أن يكون سعيداً في أي علاقة مع امرأة، لا ضمن إطار الزواج، ولا خارجه. والشيء نفسه يحدث للمرأة، إذا علّموها بقوة أن تكون ما يسمّى «طاهرة». فغريزياً تراها في علاقاتها الجنسية مع زوجها، تشعر بالذعر إن هي نالت منها المتعة. وفي أيامنا هذه، مع ذلك، هناك قيود أقل كثيراً لدى النساء مما كان هناك قبل خمسين سنة. وأكاد أقول انه في أيامنا هذه، وفي أوساط المتعلّمين، باتت حياة الرجل الجنسية أكثر إعاقة وتسمّماً بسبب الشعور بالإثم، من حياة المرأة الجنسية.

في كثير من الأوساط (طبعاً ليس في وسط السلطات العامة)، يشرعون في وعي ما يمكن أن تحمل التربية الجنسية التقليدية من ضرر بالنسبة إلى صغار السن. والقاعدة التي يمكن اعتمادها بسيطة: لا تعلّموا الولد أي آداب جنسية قبل أن يبلغ سنّ الرشد، وتجنّبوا بدقة أن تسرّبوا إليه فكرة أن ثمة شيئاً كريهاً أو منفّراً في وظائف الجسم الطبيعية. وعندما يحين وقت إعطاء التعليمات الأخلاقية، تأكدوا من أن تكون معقولة ومنطقية، وأن يكون بوسعكم في كل نقطة أن توفّروا الأسباب الصالحة بالنسبة إلى كل ما تقولونه. إلا أنني لا أريد أن أتحدث عن التربية في هذا الكتاب. إن غاية هذا الكتاب هي وصف ما يمكن أن يفعله الراشد للتخفيف من النتائج أو الآثار المضرّة لتربية طائشة تُحدث شعوراً بالإثم غير منطقي.

إن القضية هنا هي نفسها التي سبق أن رأيناها في الفصول الأولى، أي القضية التي تُجبر اللاشعور على تسجيل المعتقدات المنطقية التي تحكم أفكارنا

الـواعية. لا ينبغي لنـا أن ندع الأمـزجة العـابرة تؤثـر فينا ونبـدّل رأينا في كـل لحظة. ويرتدي الشعور بالإثم، بصورة خاصة، الأهميـة عندمـا تضعف الإرادة الواعية بفعل التعب، أو المرض، أو الشراب، أو بسبب أي شيء آخـر. إن ما يحسه الإنسان في هذه اللحظات (ما لم يكن في الأمر تأثير الشراب) هو، على مـا يقولون، كشفٌ لأنا مثالي الخاص به (أنا مثالي هو الجانب الخاص من الشخصية الناتج عن عقدة أوديب، ينبوع كل العمليات الثقافية العليا، الفنّية، والأدبيـة، والأخلاقية الخ . . .).

«إبليس شعر بالمـرض: لقد شـاء أن يكون قـديساً». ولكن من السخف الاعتقاد بأن تكون لحظات الضعف أكثر كشفاً من لحظات العظمـة. في لحظات الضعف، يصعب مقـاومة الإيحـاءات الطفـولية، ولكن ليس ثمـة مجال لاعتبـار هـذه الإيحاءات مفضّلة عـلى معتقـدات الـراشـد المتمتـع بقـواه العقليـة. عـلى النقيض، إن ما يعتبره الإنسان عمداً بكل عقله صحيحاً عندما يكون صاحيـاً، ينبغي أن يكون معياراً صالحاً في كل لحظات حياته. إن بالوسع التغلّب على كل الإيحاءات الطفولية في الـلاشعور، وحتى تبـديل مضمـونها بتقنية مـلائمة. وإذا أنت بدأت بالشعور بالندم على عمل لا يقرّه عقلك، تفحّص أسبـاب ندمـك، وأقنع نفسك بسخفها كلياً. ينبغي أن تكون قناعاتك الـواعية حـادة ومطلقـة بما فيه الكفاية لكي تترك انطباعاً في لا شعورك يكون من القوة بحيث يستطيع هذا الانطباع أن يصـارع كل المؤثـرات التي مورست عليـك في طفولتـك من جانب مربيتك أو أمك. لا تكتفِ بتناوب التصرُّفات المنطقية والتصرفات غير المنطقية. تفحّص عن كثب الوضع غير المنطقي، وصَمّم جيداً على عـدم احترامـه، وعلى ألا تـدعه يسيـطر عليك. فـإذا ألقى أفكاراً أو أحـاسيس سخيفـة في وعيـك، انتزعها مـع جذورهـا، وتفحّصها، والقهـا جانبـاً. لا ينبغي أن تسمح لنفسـك بالبقاء مخلوقاً متردداً، يسيطر عليك جزئياً العقل، وجزئياً الحماقات الطفولية. لا تخش أن تحسّ بعدم الاحترام تجاه ذكرى أولئك الذين أشرفوا على طفـولتك. في تلك المـرحلة كانـوا يبدون لـك أقويـاء ومنطقيـين لأنك كنت شخصيـاً ضعيفـاً وأحمق؛ والآن بعـدمـا لم تعـد ضعيفـاً ولا أحمق، بـات عليـك تفحّص قـوّتهم

وحكمتهم الظاهرة، وعليك أن تتساءل عما إذا كانوا يستحقون هذا الاحترام الذي تواصل بقوة العادة أن تكنّه لهم. تساءل بجدية إذا كان العالم قد ربح من جرّاء حكم علم الأخلاق كما رُسِّخ في ذهن الصغار. فكّر في كمية الخرافات التي تدخل في تركيب الإنسان الفاضل تقليدياً، وقل بينك وبين نفسك إنه إذا أُزيحت كل أنواع المخاطر الأخلاقية الخيالية بواسطة موانع سخيفة إلى درجة لا تصدَّق، فإن الخطر الأخلاقي الحقيقي الذي سيتعرّض له الراشد، سيُترك جانباً، تقريباً. ما هي الأعمال المضرة حقاً التي تُغري الرجل العادي؟ طرق غير شريفة في الأعمال التجارية ولكن لا يعاقب عليها القانون. خشونة تجاه الموظفين، قسوة إزاء الزوجة والأولاد، وسوء النية تجاه المنافسين والخصوم، والشراسة في النزاعات السياسية ـ تلك هي الخطايا المؤذية الحقيقية المألوفة بين المواطنين المحترمين والموقرين. وهذه الخطايا تجعل المرء ينشر الشقاء في محيطه، ويسهم بنشاط في تدمير الحضارة. ومع ذلك، ليس من أجل هذه الأسباب يعتبر المرء نفسه عندما يمرض، أنه منبوذ فقد كل حق بالرحمة الألوهية. وليس بسبب هذهِ الأمور، يشاهد، في الكابوس، أمّه ترهقه بالنظرات اللائمة والمستهجنة. لماذا انفصل هكذا لا شعوره الأخلاقي عن عقله؟ لأن علم الأخلاق الذي كان يعتقد به أولئك الذين رفعوه كان سخيفاً؛ لأنه لم يكن يستند إلى أي دراسة لواجبات الفرد تجاه المجتمع؛ ولأنه كان مصنوعاً من أجزاء قديمة من محرّمات غير منطقية؛ ولأنه كان يتضمّن عناصر مرضية متأتية من ضيق روحي أقلق الأمبراطورية الرومانية، وأوصلها إلى انحطاطها. إن علم الأخلاق الإسمي الصرف عندنا صاغه كهنة ونساء كانوا يعانون الرّق العقلي. وقد آن الأوان لكي يقوم البشر بدور عادي في الحياة العادية في العالم ويتعلّموا كيف يثورون على هذه الحماقات المنفّرة.

إلا أننا إذا شئنا أن تنجح هذه الثورة في حمل السعادة الفردية وتتيح للإنسان أن يحيا وفقاً لخط واحد من السلوك من دون أن يتردد بين اثنين، يتعين على الإنسان أن يفكّر ويحسّ بعمق بما يمليه عليه عقله. إن معظم الأشخاص الذين نبذوا سطحياً خرافات طفولتهم يعتقدون أنه ليس ثمة شيء آخر يمكن

عمله. إنهم لا يدركون أن هذه الخرافات تبقى ملبَّدة في لا شعورهم. وعندما نجد اقتناعاً منطقياً، يتحتّم علينا التوقّف عنده، ومتابعة نتائجه. والبحث في الذات عن معتقدات مناقضة لهذا الاقتناع الجيد، وإذا ما نما الشعور بالإثم، مثلما يحدث بين آن وآخر، فلا ينبغي أن نعتبره رؤيا أو نداءً إلى عالم متعالٍ، ولكن كضيق وضعف، ما لم يتسبّب عن عملٍ يُدينه علم أخلاق منطقي. أنا لا أودّ أن أوحي بأن على الإنسان أن يكون مجرّداً من كل الأخلاقيات، كل ما أودّ قوله انه لا ينبغي أن يكون لديه أخلاقيات خرافية، وهو أمر جدّ مختلف.

ولكن عندما يخرق المرء قانونه المنطقي الشخصي، فأنا أشكّ في أن يكون الشعور بالإثم أفضل طريقة لبلوغ حياة أفضل. هناك في الشعور بالإثم عنصر كريه، وعدم احترام للذات. ولم يُفد أحد قط من انعدام احترام ذاته: والإنسان العاقل ينبغي أن يعتبر أخطاءه كما يعتبر أخطاء الآخرين: أعمالاً تنجم عن ظروف معيّنة ينبغي تجنّبها، سواء بفهم كامل لضررها، أو إذا كان ذلك ممكناً، بإزالة الظروف التي انتجتها.

الحقيقة أن الشعور بالإثم أبعد من أن يُحدث السعادة. إنه يجعل الإنسان تعساً، ويولّد فيه شعوراً بالدونيّة. والإنسان الذي يكون تعساً يميل إلى أن يكون له إزاء الآخرين مطالب مفرطة تمنعه من العثور على السعادة في علاقاته الشخصية. وإذ يشعر بالدونيّة، فإنه ينقم على أولئك الذين يبدون له أرفع. بالنسبة إليه، الإعجاب صعب، والحسد سهل. ويغدو إنساناً غير مستحبّ، ويشعر بالعزلة أكثر فأكثر. إن موقفاً متسامحاً ومنفتحاً تجاه الآخرين لا يوفّر السعادة للآخرين، بل هو ينبوع كبير للسعادة بالنسبة إلى من يعتمد هذا الموقف، ما دام يجذب إليه، عموماً، محبة الجميع. غير أن هذا الموقف نادراً ما يكون ممكناً بالنسبة إلى امرىء يراوده دوماً الشعور بالإثم. إنه لا يمكن إلا أن يكون نتيجة التوازن والفكر الحر المستقلّ؛ إنه يتطلّب ما يمكن أن ندعوه التكامل العقلي؛ وأوضح قصدي: إن مختلف طبقات الطبيعة البشرية، والوعي، والعقل الباطني، واللاشعور تسهم جميعاً بتناغم، وليست في صراع أبدي.

ومثل هذا التناغم ليس قابلاً للتحقيق في معظم الحالات إلا بالتربية المنطقية، وإذا لم تكن التربية كذلك، فيصعب جداً التوصّل إلى هذا التناغم. وهذه هي الطريقة التي يطبّقها المحلِّلون النفسيون، ولكنني أعتقد أنه في كثير من الحالات، بوسع المريض نفسه القيام بهذا العمل، الذي قد يقتضي، في حالات قصوى، مساعدة خبير. لا تقل: «ليس لديّ الوقت لكي أهتمّ بعلم النفس؛ حياتي ملأى بعملي، وينبغي لي ترك لا شعوري لوسائله الخاصة». ليس ثمة ما يخفّض السعادة ومردود العمل مثل إنسان مقسّم على ذاته. والوقت المنقضي في إيجاد التناغم بين مختلف عناصر طبعك ليس وقتاً مهدوراً. أنا لا أقول إنه ينبغي الانعزال، لنقل ساعة واحدة في اليوم، لتكريس المرء نفسه للاستبطان. في رأيي، تلك طريقة غير صالحة البتة، ما دمنا هكذا نصبح منطوين على أنفسنا، وهذا بالضبط مظهر من المرض الذي ينبغي معالجته، ذلك بأن الشخصية المتناغمة هي نابذة. وفي يقيني، يتحتّم علينا أن نقرّر بقوة ما نعتقد أنه منطقي، ولا ينبغي مطلقاً أن ندع القناعات غير المنطقية المتناقضة تمرّ دون أن نلحظها، ولا أن نسمح لها بأن يكون لها سيطرة علينا، مهما تكن قصيرة هذه السيطرة. ينبغي أن نفكر مع ذاتنا في اللحظات التي نُغرى فيها بالتصرّف كالأولاد، وهذا التفكير، إذا ما تمّ بقوة، قد يكون جدّ قصير. إذاً، فالوقت المستخدم ينبغي أن يكون ضئيلاً.

كثيرون من الأشخاص يشعرون بنفور من العقل، وفي هذه الحالة قد يبدو كل ما سبق أن قلته خارج الموضوع، وقليل الأهمية. ويُعتقد أنه إذا تُرك العنان للعقل، فإنه سيقضي على كل المشاعر العميقة. ويبدو أن هذا الرأي مردّه إلى مفهوم خاطىء كلياً بالنسبة إلى عمل العقل في الحياة البشرية. ليس دور العقل أن ينطوي على مشاعر أو أحاسيس، على الرغم من أن جزءاً من عمله قد يكون اكتشاف الوسائل الكفيلة بمنع هذه الأحاسيس من أن تغدو عقبة في سبيل السعادة. إن اكتشاف الوسائل الكفيلة بتخفيض الحقد والحسد هو من عمل علم النفس المنطقي.

ولكن من الخطأ الاعتقاد أننا بتخفيضنا هذه الانفعالات، سنخفّض في

الوقت نفسه حدة الانفعالات التي لا يدينها العقل. ليس ثمة ما يرغب العقل في تخفيضه في الحب المشبوب، ومحبة الوالدين، والصداقة، والعطف، والإخلاص للعلم أو للفن. والشخص المنطقي، إذا ما أُحسَّ بهذه المشاعر، سيسعد بالاحساس بها، ولن يفعل شيئاً لإضعاف قوّتها، لأن كل هذه الانفعالات تؤلف جزءاً من الحياة الحسنة، أي الحياة التي تهدف إلى سعادة الفرد وسعادة الآخرين. وليس ثمة أي شيء غير منطقي في هذه الانفعالات في حدّ ذاتها، وكثيرون من الأشخاص غير المنطقيين لا يشعرون بسوى انفعالات تافهة. لا ينبغي لأحد أن يخشى انه إذا ما راهن على العقل ستصبح حياته كالحة. على النقيض، ما دام العقل ينطوي، عموماً، على تناغم داخلي، فإن الشخص الذي يحقق هذا التناغم يشعر أنه أكثر تحرراً في تأمّله العالم، وفي الوجه الذي يستخدم فيه طاقته لبلوغ أهداف خارج ذاته، من الشخص الذي تزعجه باستمرار نزاعات داخلية. وليس ثمة شيء يبعث على الحزن مثل تكيّس المرء في ذاته، وليس ثمة ما يبعث على الحيوية مثل توجيه المرء اهتمامه وطاقته نحو العالم الخارجي.

لقد كانت أخلاقنا التقليدية أنانية إلى حدّ بعيد، ويؤلف مفهوم الخطيئة جزءاً من تركيز الاهتمام على الذات. وبالنسبة إلى أولئك الذين لم يعانوا حالات أنانية من نتاج هذه الأخلاق الناقصة، قد يكون العقل غير ذي فائدة. أما بالنسبة إلى المرضى، فإن العقل ضروري ليكون علاجاً. ولعلّ هذا المرض مرحلة ضرورية للنمو العقلي. أنا أميل إلى التفكير في أن الشخص الذي تجاوز هذه المرحلة بمساعدة العقل، قد بلغ مستوى أرفع من مستوى الشخص الذي لم يختبر لا المرض ولا الشفاء. إن كره العقل، المنتشر كثيراً في أيامنا هذه، سببه في جزء كبير منه أن عمليات العقل لا تُتصوَّر بطريقة أساسية بما فيه الكفاية. فالإنسان المنقسم هكذا ضد نفسه يبحث عن مثيرات وتسليات؛ ويحبّ الانفعالات القوية ليس لأسباب صحية وسليمة، ولكن لأنها، موقتاً، تجعله يهرب من ذاته، وتُبعد عنه الحاجة المتعبة إلى التفكير. إن كل انفعال، بالنسبة إليه هو تسمّم، وما دام لا يسعه تصوّر سعادة أساسية، يبدو له التسمّم

التفريج الوحيد عن ألمه وهذا، مع ذلك هو علامة مرض ذي جذور عميقة. وعندما لا تكون تلك هي الحالة، فإن السعادة الأكبر تنجم عن الإمتلاك الكلي للقدرات العقلية. وفي اللحظات التي يكون فيها الفكر الأكثر نشاطاً، ويكون كل شيء حاضراً في الذهن، يتمّ الإحساس بالمباهج الأكثر قوة وحدّة.

وهذا، في الواقع، هو أفضل مصداق للسعادة. إن السعادة التي تتطلّب التسمّم بأي ثمن زائفة، ولا تحمل ترضية. والسعادة المرضية طبيعياً تقترن بالممارسة الأكمل لخاصّاتنا، والفهم التامّ للعالم الذي نعيش فيه.

٨

مسّ الاضطهاد

مسّ الاضطهاد، من ناحية مظاهره الأكثر حدّة، هو شكل معروف من الجنون. هناك أناس يتصورون أنهم مهددون بالقتل أو بالتسمم، أو بإصابتهم بضرر كبير. وغالباً ما تقودهم الرغبة في الحماية من مضطهِدين خياليين إلى ارتكاب أعمال عنف، فيغدو ضرورياً تقييد حريتهم.

وهذا الجنون، مثله مثل سائر أنواع الجنون، ليس سوى مبالغة في الميل المألوف جداً لدى أُناس يُعتبرون عاديين. أنا لا أنوي مناقشة الأنواع الأكثر حدّة: إن هذا الموضوع يتعلّق بطب الأمراض العقلية أو النفسية. إن ما سأدرسه هو الظواهر المخفّفة إلى أقصى حد، لأنها عقبة كثيرة الوقوع في سبيل السعادة؛ ولما كان الأمر لا يتعلق بالجنون بحصر المعنى، فإن المريض يمكن أن يشفي نفسه بنفسه، شرط أن يستطيع تشخيص ما يشكو منه بصراحة، ورؤية

أن السبب هو في ذاته، وليس في العداوة المزعومة، أو في سوء نية الآخرين.

إن هـذا الـطراز من الـرجـال أو النســاء الـذي هــو، بحسب أقـوالــه الشخصيـة، ضحية دائمـة للعقوق، والشر، والخيـانة، مـألوف بـالنسبة إلينـا. وروايات هؤلاء الأشخاص جدّ معقولة أحياناً، وتحظى بعـطف حارّ من أولئـك الذين لا يعرفونهم إلا من فترة قصيرة. وليس ثمة شيء غير محتمل، عمـوماً، في كل قصة يروونها، إذا ما أُخذت على حـدة. فالمعـاملات السيئـة التي يتذمـرون منها يمكن أن تحدث حتماً. الأمر الذي ينتهي إلى إيقاظ شكـوك السامـع والعدد الهائل من الخبثاء الذين كان من سوء طالع الضحية أن تصادفهم. وتبعاً لنظرية الاحتمالات، قد يتعرّض الأشخاص المختلفـون الذين يحيـون في مجتمع معـيّن، خلال حياتهم، إلى المجموعة نفسها من المعاملات السيئة. وإذا كـان شخص ما في جماعة معيّنة، بحسب روايته الشخصيـة، لا يلقى إلا معامـلات سيئة، فـإنه من المحتمل جداً أن يكمن السبب في هذا الشخص نفسه، أو أن يكون هو من يختلق إهـانات أو شتـائم ما كـان ينبغي، في الحقيقـة، أن يشكـو منهـا، أو أنـه يتصرّف، لا شعـورياً، بـطريقة تـوقظ إثارة لا تُحتمـل. لذا، فـإن الأشخـاص الفـطنين يحـاذرون أولئك الـذين يعـامَلون، بسبب روايـاتهم الشخصيـة، دومـاً معـاملة سيئة من الجميـع. ويميلون بافتقـارهم إلى التعـاطف، إلى تـأييـد هؤلاء التعساء في اعتقادهم أن العالم أجمع ضدهم. في الحقيقة، إن هذه الإضطرابـات النفسية هي صعبة المعالجة لأنها تتسبَّب عن التعاطف أو فقدان التعـاطف. وإذا رأى الشخص القابل لمسّ الاضطهاد أن قصة تعاستـه مقبولـة ومعتبرة حقيقيـة، فإنه سيجمّل روايته حتى يجعلها تبلغ حدود قابلية التصديق. وعلى النقيض، إذا رأى أن لا أحد يصدّقها، فإنه سيجد بكل بساطة مثلاً جديداً على عدم استقرار البشرية تجاهه. إن هذا الداء لا يمكن علاجه إلا بالتفاهم، وهذا التفاهم ينبغي أن يُنقل إلى المريض إذا شئنا أن يكون ذا نفـع. إن هدفي في هـذا الفصل، هـو أن أحمل بعض الأفكار العامة التي يستطيع كل فرد بـواسطتهـا اكتشاف عنـاصر مسّ الاضطهاد في ذاته (وكل امرىء تقريباً يشكو منها إلى درجة معيّنة)، وعقب اكتشـافها، يصبـح في وسعـه إزالتهـا. إن هـذا ضروري لاكتسـاب السعـادة،

ما دام يستحيل علينا أن نكون سعداء إذا نحن شعرنا أن الجميع يسيئون معاملتنا.

إن أحد المظاهر العامة للتصرّف غير العقلاني هو الموقف الذي يعتمده تقريباً الجميع إزاء الثرثرات العدوانية. وقليلون هم الذين يعرفون كيف يقاومون إغراء ذمّ معارفهم، وحتى أصدقائهم، إذا اقتضى الأمر. ومع ذلك، إذا عرف الناس أن شيئاً ما قيل بحقهم، فإنهم يصابون بذهول ساخط. ولم يخطر قط ببالهم، طبعاً، أنه مثلما يتقولون على الآخرين، بوسع أول شخص أن يتقوّل عليهم.

إن هذا هو شكل ملطّف للموقف الذي يمكن أن يقود إلى مسّ الاضطهاد، إذا ما بولغ فيه. نحن نطالب الجميع بهذا الحب الرقيق والاحترام العميق اللذين نحسّ بهما تجاه أنفسنا. ولا يخطر ببالنا أنه لا يسعنا مطالبة الآخرين بأن يُحسنوا القول فينا أكثر مما نُحسن نحن القول فيهم، والسبب في ذلك هو أن مزايانا كبيرة وتبرز للعيان، في حين أن مزايا الآخرين، إذا ما وُجدت، ليست مرئية إلا للعين المُحبَّة.

وعندما تعلم أن فلاناً تقوّل عليك، فإنك تذكر المرات التسع والتسعين التي منعت فيها الرغبة في التعبير تجاهه عن النقد الأكثر صحة واستحقاقاً، وتنسى المرة المائة التي قلت فيها بحقه في لحظة سهو، ما اعتقدت أنه الحقيقة. وتقول بينك وبين نفسك، أهذه هي المكافأة على امتناعك الطويل؟ من وجهة نظره، مع ذلك، يبدو له تصرّفك تماماً كما يبدو تصرّفه؛ وهو لا يعرف شيئاً عن المرّات التي لم تتكلم فيها، إنه لا يدري إلا بالمرة المائة التي تكلمت فيها. ولو مُنحنا جميعاً القدرة السحرية على قراءة أفكار الآخرين، فأحسب أن النتيجة الأولى ستكون اختفاء كل صداقة. والنتيجة الثانية، مع ذلك، قد تكون ممتازة، ذلك بأن عالماً من دون أصدقاء يبدو غير محتمل، وسنتعلم كيف نتبادل الحب دونما حاجة إلى نقاب من الأوهام لكي نخفي قضية اعتقادنا بأننا لسنا مثاليين تماماً. نحن نعرف أن لأصدقائنا عيوباً، وأنهم، مع ذلك، في مجموعهم

أشخاص مستحبّون نحبهم كثيراً. سوى أننا نجد أن الموقف نفسه الذي يعتمدونه تجاهنا أمر لا يُطاق. ونتوقّع مما يعتقدون، إنه خلافاً لسائر البشرية، نحن بلا عيوب. وعندما نضطر إلى الإقرار فإننا نعنى بهذه الحقيقة البديهية عناية خاصة. لا ينبغي لأحد أن يتوقّع أن يكون مثالياً أو كاملاً، ولا أحد ينبغي أن ينزعج للغاية لكونه ليس كذلك.

كان لمسّ الاضطهاد دوماً جذوره في الرأي المبالَغ فيه عن مزايانا الشخصية. لنفرض أنني كاتب مسرحي؛ وكل شخص غير متميّز ينبغي أن يعتبر أمراً بديهياً أنني الكاتب المسرحي الأشهر في العصر. مع ذلك، ولسبب أجهله، لا تُعرض مسرحياتي إلا نادراً، وإذا ما عُرضت، فإنها لا تحرز أي نجاح. ما هو تفسير هذه الحالة الغريبة؟ إنه جليّ أن المخرجين، والممثلين، والنقّاد، لسبب أو لآخر، قد تحالفوا ضدي والسبب، بالطبع، هو لسعادتي: فقد رفضت أن أتملّق مشاهير عالم المسرح؛ لم أُطرِ النقاد؛ مسرحياتي تتضمّن حقائق لم يطقها أولئك الذين تعنيهم. وهكذا جدارتي السامية تتلف وسط الجهل.

هناك، كذلك، حالة المخترع الذي لم يجد قط أحداً لتفحُّص مزايا اختراعه؛ الصانعون روتينيون، ولا يبالون بالمستحدثات، وأولئك القلة من التقدميين لديهم مخترعوهم الخصوصيون، ويحولون دون تدخّل العباقرة الذين ليس لديهم ترخيص؛ والجمعيات العلمية ـ ويا للغرابة! ـ إما تفقد المخطوطات أو تعيدها دون أن تقرأها؛ والأشخاص الذين نلجأ إليهم يتميزون بالبرودة غير المبرَّرة. كيف نفسّر مثل هذه الحالة؟ إنه لواضح أن ثمة شركة من الأشخاص مقفلة تودّ أن توزّع فيما بين أعضائها أفضل المناصب المفتوحة أمام المخترعين؛ ومن لا ينتمي إلى هذه الشركة المقفلة لا يُصغى إليه.

ثم إن هناك حالة من يشعر بالأسى الصادق القائم على وقائع حقيقية، ولكنه يعمّم في ضوء اختباره ويصل إلى الاستنتاج أن خيباته الخاصة تمنح المفتاح لسر الكون؛ ويكتشف، مثلاً، فضيحة تتعلّق بدوائر الاستخبارات التي تجد

الحكومة مصلحة في إخفائها. ولا يسعه، على ذلك، الحصول على أي مساندة، والأشخاص الذين يُفترض أنهم ذوو تفكير رفيع يرفضون رفع إصبعهم الصغيرة لمعالجة هذا الداء الذي يملأهم نقمة وسخطاً. إن الوقائع، حتى الآن، هي كما تصفونها. غير أن الخيبات قد هزّتهم إلى درجة كبيرة، بحيث أنهم يتوصّلون إلى التوهم أن كل الأشخاص الأقوياء منهمكون، وحسب، في إخفاء الجرائم التي يدينون لها بسلطتهم.

هؤلاء المرضى عنيدون بصورة خاصة بسبب الحقيقة الجزئية لروايتهم؛ واختبارهم الشخصي قد أثّر فيهم، وهذا أمر جدّ طبيعي، أكثر مما أثّر فيهم عدد القضايا الكبيرة الذي لم يكن لهم اتصال مباشر بها. وهذا يزوّر احساسهم بالنسب، ويدفعهم إلى تعليق أهمية مبالغ فيها على وقائع هي ربما نموذجية أقلّ منها استثنائية.

وضحية أخرى مألوفة كذلك لمسّ الاضطهاد هي نوع معيّن من محبّي البشر، الذي يفعل دوماً الخير مع الناس رغماً عنهم، وتراه يُدهش ويُرعب من عقوقهم. إن الأسباب التي نفعل من أجلها الخير قلما تكون منزّهة تماماً كما نعتقد. إن حب السلطة ماكر؛ إنه يرتدي أقنعة كثيرة، وغالباً ما هو في أساس السرور الذي نشعر به للقيام بما نحسب أنه خير بالنسبة إلى الآخرين، وفي أحيان كثيرة، مع ذلك، يدخل عنصر آخر في اللعبة. «عمل الخير» مع الآخرين، يتضمّن، عموماً، حرمانهم من بعض الأمور: الاستمتاع ببعض ما يبهجهم أو بالاستسلام إلى الكسل، ومن يدري ماذا بعد؟

في هذه الحالات يدخل عنصر يتميّز بأخلاقيات اجتماعية كثيرة: أقصد الحسد الذي نحمله إلى أولئك الذين يمكنهم ارتكاب الخطايا التي ينبغي لنا الامتناع عنها إذا أردنا أن نحتفظ بأصدقائنا.

فأولئك الذين يقترعون على قانون يحظر التدخين (هذه القوانين موجودة أو كانت موجودة في الولايات المتحدة الأميركية)، هم بالطبع، من غير المدخنين الذي تشكّل المتعة التي يجدها الآخرون في التدخين مصدر ألم لهم.

فإذا أمّلوا أن يؤلف الذين كانوا من قبل مدخنين عنيدين وفداً يُقبل لتقديم الشكر إليهم لأنهم خلّصوهم من هذه الآفة الكريهة، قد يُصابون بخيبة أمل. عندها يلجأون إلى التفكير في أنهم كرّسوا حياتهم للمصلحة العامة وأن الذين لديهم دوافع أكثر لشكرهم على أنشطتهم الخيّرة يبدو أنهم آخر من يرى في ذلك سبباً لكي يكونوا من عارفي الجميل.

كان هذا الموقف نفسه سائداً لدى ربّات البيوت تجاه الخادمات اللواتي كن يحمين أخلاقياتهن، ولكن، في أيامنا الحاضرة، غدت قضية الخدم حادة إلى درجة أن هذا الشكل من الطيبة تجاه الخادمات أصبح أقلّ حدوثاً.

وتلك هي الحال بالنسبة إلى المناصب السياسية الرفيعة. لنأخذ كذلك مثل رجل الدولة الذي حصر شيئاً فشيئاً في نفسه كل السلطة لكي يتسنّى له تحقيق الأهداف النبيلة والرفيعة التي جعلته يتخلّى عن الراحة، ويدخل معترك الحياة السياسية. إنه سيُذهل لعقوق البشر الذين ينقلبون عليه. ولا يخطر له ببال البتة أن عمله لم تلهمه قط المصلحة العامة، أو أن أنشطته قد تأثرت بمتعة السيطرة على كل شيء. والشعارات التي هي مقبولة على المنبر وفي صحافة الحزب جعلتها تبدو له كأنها تعبّر عن حقائق؛ ويتخذ بلاغة فكر الحزب من أجل تحليل صادق لدافعه. وينسحب من العالم مشمئزاً وخائباً بعد أن يكون العالم قد انسحب منه، ويندم على إقدامه على القيام بالمهمة العامة التي هي تكريس نفسه للمصلحة العامة.

هذه الأمثلة تقدّم أربعة مبادىء أساسية عامة، تتكشف، إذا ما فُهمت حقيقتها بما فيه الكفاية، عن أنها العلاج الملائم لمسّ الاضطهاد. المبدأ الأول هو: لا تنسَ أن دوافعك ليست دوماً نزيهة كما تحسب. المبدأ الثاني: لا تستهن مطلقاً بمزاياك الشخصية. المبدأ الثالث: لا تتوقّع أن يهتم بك الآخرون كما تهتمّ أنت بهم. والمبدأ الرابع: لا تتصوَّر أن غالبية الناس تفكر فيك كفاية لكي يكون لها رغبة خاصة في اضطهادك. وسأوضح بتفصيل أكثر كل واحد من هذه المبادىء الأربعة.

من الضـروري بالنسبـة إلى محبّ البشـر والخيـر العـام ورجـل العمـل والنشـاط أن يحاذرا من دوافعهـما الشخصية. هـذان الشخصان أدركـا رؤية مـا ينبغي أن يكون عليه العـالم (أو جزء من العـالم)، ويشعران، خـطأ أو صوابـاً، أنهما بتحقيق رؤيتهما، سيقدّمان خدمـة إلى البشرية، أو عـلى الأقل إلى جـزء من البشرية. إنهما لا يدركان، مع ذلك، أن الأشخاص الـذين يتأثـرون بأنشـطتهما لهم جميعاً الحق برؤيتهم الخـاصة للعـالم، كما يـرغبون في أن يكـون . إن رجل العمـل والنشاط واثق تمـامـاً من أن رؤيتـه هي الصحيحـة، وإن رؤيـة مختلفـة ستكون خاطئة. سوى أن تأكيده الشخصي لا يُثبت أنـه على صـواب من ناحيـة مـوضوعيـة. فضلاً عن ذلـك، فإن قنـاعته غـالباً جـداً ما تقنّـع السرور الـذي يستمـده من تأمّـل التغييرات التي كـان هو السبب فيهـا. وفضلاً عن الـرغبة في القوة والسلطة، هناك دافـع آخر: الغـرور، الذي يمثّل في هـذه الحالات دوراً مهـماً جداً. إن المثـالي ذا الأفكار النبيلة الـذي قدّم تـرشيحه لعضـوية الـبرلمـان ـ وأتكلم هنا كلام من يعرف الوقائع ـ تدهشه سخرية الناخب الذي يزعم أنه لا يرغب إلا في مجد التمكن من إضافة الحرفين الأولين من كلمتي عضو الـبرلمان بالإنكليزية (M. P) بعد اسمـه. وما إن تنتهي الحملة الإنتخـابية، حتى يتسـع أمامه الوقت للتفكير، ويخـطر ببالـه أن الناخبـين، في نهاية المـطاف، كانـوا على صواب، ربما. إن المثالية تجعل الدوافع الأكثر بساطة ترتدي أقنعة غريبـة، ومن هنا كان بعض آثار السخرية يخدم كثيـراً رجال السيـاسة عنـدنا. ويفـرض علم الأخلاق التقليدي درجـة من الإيثار ـ أو الغـيرية (حبّ الغـير) الذي بـالكاد تقدر عليها الطبيعة البشرية، وأولئك الذين يعرضون فضيلتهم يتصورون غـالباً أنهم يبلغـون هذا المثـال الصعب المنـال. إن معـظم أنشـطة الأشخـاص، حتى الأكثر نبلاً، ذات دوافع أنانية، ولا يأسفون على مثل هذه الحالة، ذلـك بأنـه لو كـان الأمر نقيض ذلـك، لما استـطاع الجنس البشري البقـاء في قيـد الحيـاة. فـالشخص الذي يقضي وقتـه في السهر عـلى أن يغتـذي الآخـرون ويسهـو عن تغذية نفسـه، سيهلـك حتماً. بالـطبع، قـد يغتذي، وحسب، بقصـد اكتساب القوة الضرورية لكي يغوص مجدداً في الصراع ضـد هذا الـداء. ولكن لما كـان

الترضيب، في هذه الحالة، لن يُثار بصورة كافية، فإنه من غير المحتمل أن تُهضم الأطعمة التي يتمّ تناولها من أجل هذه الغاية بصورة مناسبة. إذاً، يُستحسن أن يأكل المرء من أجل متعة الأكل بحدّ ذاتها، بدلاً من التهام الغذاء من أجل خدمة الخير العام، وحسب.

وما ينطبق على الغذاء، ينطبق على سائر الميادين. إن كل ما ينبغي لنا عمله لا يمكن عمله بصورة ملائمة إلّا بمساعدة بعض الحماسة، والحماسة مستحيلة دون الدوافع الأنانية. واستناداً إلى ما سبق وذكرت، أُدرج في الدوافع الأنانية تلك التي تتعلّق بالأشخاص المرتبطين بنا بيولوجياً، مثل الدوافع إلى دفاع المرء عن زوجته، وأولاده ضد العدو. وهذه الدرجة من الإيثار هي جزء من الطبيعة البشرية، ولكن المستوى الذي يفرضة علم الأخلاق التقليدي ليس عفوياً، ونادراً ما يتم بلوغه بصورة تلقائية. فالأشخاص الذين يرغبون في الحصول على درجة عالية من التقدير لأخلاقياتهم الكبيرة ينبغي لهم، إذاً، أن يقتنعوا أنهم بلغوا درجة من نكران الذات لم يبلغوها قط بكل تأكيد، ولذا فإن الجهد المبذول نحو القداسة يصبح مرتبطاً بهذه الأوهام عن ذواتهم التي تقود بسهولة إلى مسّ الاضطهاد.

والمبدأ الثاني من مبادئنا، وهو أنه من غير الفطنة أن يستهين المرء بمزاياه الشخصية، مشمول، في ما يتعلّق بالأخلاق، بما سبق أن ذكرناه. غير أن مزايا أخرى غير أخلاقية لا ينبغي، كذلك، أن يُستهان بها. فالكاتب المسرحي الذي لا تحظى مسرحياته أبداً بالنجاح، ينبغي أن يواجه بهدوء الافتراض بأنها مسرحيات رديئة؛ ولا يتعيّن عليه نبذ هذا الاحتمال على أن لا سند له. فإذا رأى أنه يؤكد الوقائع، يتعيّن عليه اعتماده كفلسفة استقرائية (الإستقراء هو برهنة تنقل من الخاص إلى العام، ومن الجزئي إلى الكلّي). صحيح أن هناك في التاريخ حالات من الاستحقاق غير المقدّر، ولكنها حالات أقلّ كثيراً من حالات عدم الاستحقاق المعترف به. إذا كان شخص ما عبقرياً ولا يريد عصره الاعتراف به، فعلى الرغم من فقدان التعاطف، فإنه يصيب في المثابرة على موقفه. أما إذا

كان امرأ بين بين، منتفخاً بالغرور، فعلى النقيض، يُستحسن ألا يثابر أو يصرّ على موقفه. ليس ثمة أي وسيلة لمعرفة إلى أي من هاتين الفئتين تنتمي إذا كانت لك ميول لإنتاج الروائع غير المقدَّرة.

إذا أنت انتميت إلى الفئة الأولى، .فإن إصرارك هو بطولي؛ وإذا أنت انتميت إلى الفئة الثانية، فإن إصرارك هو أمر سخيف. فبعد موتك بمائة عام سيصبح ممكناً معرفة إلى أي الفئتين كنت تنتمي. وبانتظار ذلك، هناك امتحان (ربما ليس معصوماً من الخطأ، ولكنه ذو قيمة هائلة) يمكنك أن تخضع له إذا كنت تحسب أنك عبقري، في حين أن أصدقاءك يشكّون في ذلك. والامتحان هو التالي: هل تُبدع لأنك تُحسّ في ذاتك حاجة ملحَّة للتعبير عن بعض الأفكار أو بعض المشاعر، أم أنك مدفوع بالرغبة في التصفيق لك؟ لدى الفنّان، الرغبة في الحصول على التصفيق، حتى لو كانت قوية، هي ثانوية، بمعنى أن الفنّان يبدع عملاً من نوع معيّن، ويأمل في أن يحظى هذا العمل بالتصفيق، ولكنه لن يغيّر أسلوبه إذا لم يأتِ التصفيق لمكافأته. على النقيض، إن الشخص الذي تكون الرغبة في النجاح لديه هي الدافع الأساسي، لا يُحسّ في نفسه بأي قوة تدفعه إلى التعبير بطريقة خاصة، ويمكنه، بالتالي، أن يُبدع عملاً مختلفاً تماماً بصورة لا تقلّ جودة واتقاناً. إن مثل هذا الشخص يُستحسن أن يتخلّى عن مطامحه إذا هو أخفق بفنّه في إحراز النجاح. وبصورة عامة، مهما تكن الأهداف التي تسعى إليها في الحياة، لا تكن واثقاً كثيراً أن الآخرين هم المخطئون إن ألفيتهم لا يقدّرون مواهبك بقدر ما تقدّرها أنت شخصياً.

فإذا أنت سمحت بمثل هذه الأفكار، فإنك ستتوصل بسهولة إلى الاعتقاد بوجود مؤامرة هدفها الحؤول دون الاعتراف بمزاياك، وهذه القناعة، كن على ثقة، ستجعلك تعساً. وربما كان مؤلماً للحظة أن تعترف بأن مزيتك ليست كبيرة بقدر ما رجوت، ولكن هذا الألم سيزول ذات يوم، وابتداءً من هذا اليوم، تصبح الحياة السعيدة ممكنة مجدداً.

ومبدأنا الثالث يقول إنه لا ينبغي انتظار الآخرين. اعتادت النساء

العليلات أن يطلبن على الأقلّ من إحدى بناتهن أن تضحي كلياً لتقوم بدور الممرضة إلى درجة أن تبقى عازبة. كان ذلك توقّع درجة من الإيثار من شخص آخر يناقض المنطق ما دامت الخسارة بالنسبة إلى محب الغير (المؤثر) أكبر من ربح الأناني. وفي علاقاتنا مع الآخرين، وبخاصة مع أُولئك الأقرب إلينا والأعزّ، من المهم، وإن يكن من غير السهل، أن نتذكّر أنهم ينظرون إلى الحياة من وجهة نظرهم الشخصية، وبالنسبة إلى علاقتها بالأنا، وليس من وجهة نظرنا بالنسبة إلى علاقتها بأنا نحن. لا ينبغي أن نطلب إلى كائن بشري أن يحيد عن سبيله الشخصي من أجل حب الآخرين. قد توجد عاطفة من العمق بحيث تغدو معها التضحيات مهما كبرت طبيعية، ولكن إذا لم تكن طبيعية لا ينبغي أن تتمّ، ولا ينبغي لوم أحد على عدم إنجازها. وغالباً جداً لا يكون التصرُّف الذي نُنكره لدى الآخرين سوى ردّ الفعل العادي لأنانية طبيعية ضد الضراوة العنيدة من جانب شخص تمتدّ أنانيته إلى ما وراء حدوده الشخصية.

والمبدأ الرابع الذي سبق أن أشرنا إليه مآله أن يتعيّن علينا قبول واقع أن الآخرين يفكّرون فينا أقلّ مما نفكّر نحن في أنفسنا. إن الضحية المَرضية لمسّ الاضطهاد، تتصور أن كل أنواع الأشخاص الذين لهم مشاغلهم ومصالحهم الخاصة، ينهمكون، في الواقع، صباحاً ومساءً، وحتى ليلاً في محاولة الإساءة إلى المجنون المسكين وإذيته. وكذلك، ترى الضحية السليمة نسبياً من مسّ الاضطهاد، في كل الأشياء إشارة إلى شخصها، الأمر الذي هو في الحقيقة خطأ. إن هذه الفكرة، بالطبع، تطري غروره. وقد يكون ذلك صحيحاً فيما لو كان رجلاً كبيراً.

طوال سنوات، انهمكت الحكومة البريطانية في التصدّي لنابوليون. ولكن إذا كان شخص أقلّ أهمية يتصوَّر أن الآخرين يفكّرون دوماً فيه، فإنه يكون على طريق الجنون. أنت تلقي خطبة في مأدبة عامة. تظهر صور سائر المحاضرين في الصحف، ولكن لا وجود لأي صورة لك. كيف يمكن تفسير ذلك؟ بالطبع، ليس لأنهم اعتبروا سائر المحاضرين أهم منك؛ ينبغي أن يكون السبب إعطاء

مديري الصحف الأوامر بأن يتجاهلوك. ولماذا أُصدروا هذه الأوامر؟ حتماً إنهم يخشونك لأنك مهمّ جداً. بهذه الطريقة، يتحول إهمال صورتك إلى إهانة ومجاملة ذكية. غير أن توهّماً من هذا النوع لا يمكن أن يولّد سعادة صلبة. ففي أعماق نفسك، ستعرف أن الوقائع هي غير ذلك، ولكي تخفي ذلك عن نفسك، ستكون مضطراً إلى ابتكار فرضيات خيالية أكثر فأكثر.

إن التوتر الذي ينجم عن الجهد في تصديق هذه الفرضيات يغدو جدّ كبير على المدى الطويل. وما دامت هذه الفرضيات تجعلك تعتقد، فضلاً عن ذلك، أنك هدف عداوة عامة، فإنها لن تصون احترامك نفسك إلا بأن تفرض عليك الشعور المؤلم جداً بأنك على نزاع مع العالم بأسره. وليست أي ترضية تقوم على نيّة الغش مع الذات صلبة وكريهة مثلما قد تكون الحقيقة، ومن المستحسن مجابهتها نهائياً، واعتيادها، والشروع في بناء حياة متوافقة معها.

٩

الخوف من الرأي العام

قلّة هم الذين يسعهم أن يكونوا سعداء إذا لم تكن حياتهم أو تصوّرهم للعالم، في مجموعهما، يحظيان بموافقة أولئك الذين يختلطون بهم في حياتهم اليومية، وبخاصة أولئك الذين يحيون معهم. إن المجتمعات العصرية تتميّز بأنها مقسومة جماعات تختلف اختلافاً عميقاً في مفاهيمها الأخلاقية والدينية. ويعود تاريخ هذه الحالة إلى عهد الإصلاح الديني، أو بالأحرى، لنقل، إلى عصر النهضة الأدبية والفنية في أوروبا، وما فتئت تزداد.

كان هناك بروتستانت وكاثوليك يختلفون ليس، وحسب، حول القضايا اللاهوتية، ولكن كذلك حول القضايا العملية أكثر. وكان هناك الأرستقراطيون الذين كانوا يسمحون لأنفسهم بالقيام بأعمال وتصرّفات لا تقرها البورجوازية. ثم كان هناك المسيحيون المتحررون والزنادقة أو الإباحيون الذين لم يعترفوا بواجبات الممارسات الدينية. وفي أيامنا الحاضرة هناك في أوروبا من أقصاها إلى أقصاها،

إنشقاق لا يشمل، وحسب، الميدان السياسي، بل يشمل كل مظاهر الحياة تقريباً.

في البلدان الناطقة بالإنكليزية، الانقسامات كثيرة جداً. في بعض المجموعات، يُقدَّر الفن، في حين أنه في مجموعات أخرى، وبخاصة إذا كان الأمر يتعلّق بالفن الحديث، يُنظر إليه كأنه من ابتكار الشيطان. بعض الجماعات ينظر إلى عهد الأمبراطورية على أنه الفضيلة السامية، في حين أن جماعات أخرى تعتبره آفة، وبعضها الآخر كذلك يرى فيه شكلاً من الحماقة. الأشخاص التقليديون ينظرون إلى الزنا على أنه أسوأ الجرائم، ولكن كثيرين يعتبرونه مبرَّراً، إن لم يكن محموداً. الكاثوليك يمنعون كل طلاق، في حين أن معظم المسيحيين من غير الكاثوليك يرضون به ويقبلونه كتلطيف محتوم للحياة الزوجية.

إن هذه الاختلافات في الآراء تجعل الشخص ذا الميول والقناعات المحددة، يحسّ بأنه، بالفعل، منفيّ وهو يحيا وسط جماعة ما، بينما وسط جماعة أخرى، سيُرحَّب به كائناً بشرياً عادياً. وكثير من التعاسات، وبخاصة لدى الشباب، تولد هكذا. قد يتوصّل الشاب أو الفتاة إلى اعتناق الأفكار السائدة، ولكنهما يتبيّنان أن هذه الأفكار تحلّ بها اللعنة في الوسط الذي يعيشان فيه. ويميل الشباب بسهولة كبيرة إلى الاستنتاج أن الوسط الذي يعيشون فيه هو الوحيد الذي يمثّل العالم بأسره. وهم يجدون صعوبة في الاعتقاد أنه في مكان آخر، أو وسط مجموعة أخرى، ستُقبل الآراء التي يجرؤون على الجهر بها خشية أن يُعتبروا منحرفين تماماً، على أنها أفكار مبتذلة في العصر. وهكذا، فإن جهل العالم يجعلنا نعاني الكثير من الشقاء العديم الجدوى، وأحياناً في طور الصبا بصورة خاصة، ولكن غالباً أثناء الحياة جميعاً. وهذه العزلة هي سبب ليس للألم وحسب، ولكن لهدر كبير للطاقة، ذلك بأن الإنسان يضنى للمحافظة على استقلالهِ الفكري ضد محيط عدائي، وفي ٩٩ بالمائة من الحالات يحدث نوع من الخشية من مواصلة الأفكار حتى نهاياتها المنطقية. فالأخوات برونتي، الأديبات الإنكليزيات المعروفات لم يعرفن التعاطف إلا عقب صدور كتبهن. وذلك لم

يؤثّر قط في إميلي التي كانت ذات روح بطولية ومتفوقة. سوى أن تلك لم تكن حال شقيقتها تشارلوت التي بقيت أفكارها، على الرغم من موهبتها، دوماً وإلى حدّ كبير أفكاراً مريبة. وبلايك الشاعر، مثل إميلي برونتي، عاش في عزلة أخلاقية كبيرة، ولكنه، مثلها، كان من الكبر بحيث تجاوز الذيول المؤذية، لأنه لم يشكّ يوماً بصواب آرائه، وخطأ نقّاده. وخير ما يعبّر عن موقفه تجاه الرأي العام هذه الأبيات:

الرجل الوحيد الذي عرفته في حياتي
ولم يبعث في نفسي التقزّز،
كان فوزيلي: كان في آن تركيّاً ويهودياً،
وهكذا، أيها الأصدقاء المسيحيون، كيف حالكم؟

غير أنه لا يوجد كثيرون لهم حياة داخلية بمثل هذه القوة. تقريباً الجميع بحاجة إلى محيط متعاطف لكي يسعدوا. وبالنسبة إلى الجميع، حتماً، يرون المحيط الذي شاء القدر أن يجعلهم يعيشون فيه، متعاطفاً. في صباهم، يتشبّعون بالآراء والأحكام المسبقة السائدة، ويتكيّفون غريزياً مع المعتقدات والعادات التي يشاهدونها حولهم. ولكن بالنسبة إلى أقلية كبيرة تشمل تقريباً كل أولئك الذين يتمتعون بمواهب فكرية أو فنّية، يستحيل وجود موقف استسلام أو خنوع. فالشخص المولود في مدينة صغيرة في الأقاليم، سيجد نفسه منذ نعومة أظفاره، محاطاً بعداوة إزاء كل ما هو ضروري للتطور الفكري. فإذا شاء مطالعة كتب جدّية، سيحتقره سائر الأولاد، وسيقول له أساتذته ان مثل هذه المؤلفات تلقي الاضطراب في الفكر. وإذا أبدى اهتماماً بالفن، فإن الأولاد الذين في مثل سنّه سيجدونه متأنثاً، وسيعتبره الأكبر منه سناً لا أخلاقياً. وإذا ما طمح إلى منصب محترم ولكنه غير معروف أو مألوف في الوسط الذي ينتمي إليه، سيدعونه وصولياً، وسيقولون إن ما كان ملائماً بالنسبة إلى أبيه ينبغي أن يلائمه هو تماماً. وإذا ما أبدى بعض الميل إلى نقد المبادىء الدينية أو السياسية الخاصة بوالديه، فإنه سرعان ما سيجرّ إليه، على وجه الاحتمال، متاعب جدّية. إن كل هذه الأسباب تجعل فترة المراهقة فترة شقاء كبير بالنسبة إلى كثيرين من الشباب

الموهوبين بصورة استثنائية.

وبالنسبة إلى رفاقهم العاديين، فإن المراهقة هي مرحلة ابتهاج ومرح، ولكن هم يسعون وراء شيء أكثر جدّية لا يسعهم العثور عليه بين من يكبرونهم سناً أو رفاقهم، في الوسط الخاص الذي جعلهم القدر يبصرون النور فيه.

عندما يدخل هؤلاء الشبان الجامعة، فإنهم يجدون حتماً شقيقات روحية، ويعيشون بضع سنوات من السعادة. وإذا ما ابتسم الحظ لهم، لدى مغادرتهم الجامعة، يمكنهم العثور على عمل يمنحهم إمكانية اختيار أصدقائهم. إن شخصاً يعيش في مدينة كبيرة مثل لندن أو نيويورك يمكنه، عموماً، أن يوجد حلقة من الأصدقاء المتعاطفين لا يضطر معهم أن يضبط نفسه أو يقسرها، أو أن يكون مرائياً. ولكن إذا أكرهه عمله على العيش في مدينة أصغر، وبخاصة إذا ما ألفى نفسه مضطراً إلى اجتذاب احترام الآخرين، كما هي الحال بالنسبة إلى الطبيب أو المحامي، فقد يجد نفسه طوال حياته مكرهاً إلى إخفاء ميوله وآرائه الحقيقية عن عيون الأشخاص الذين يصادفهم كل يوم. إن هذا ليصدق بصورة خاصة في أميركا، بسبب اتساع رقعة هذه البلاد. وفي الأماكن الأكثر استبعاداً، في الشمال، وفي الجنوب، وفي الشرق، وفي الغرب، فإننا نصادف أناساً منعزلين يعرفون من الكتب أن هناك أماكن لن يكونوا فيها وحدهم؛ ولكن ليس لهم حظ الحياة في هذه الأماكن، وليس أمامهم سوى فرص نادرة للتحدُّث بصراحة. في هذه الظروف، ليست السعادة الحقيقية ممكنة بالنسبة إلى أولئك الذين ليس لهم اتساع فكر وليم بلايك الشاعر، أو إميلي برونتي الأديبة. وإذا شئنا أن يكون هذا ممكن التحقيق، يتعيّن علينا إيجاد وسيلة لتخفيف الطغيان أو إزالته من الرأي العام، وإتاحة الفرصة لأفراد الأقلية الفكرية أن يتعارفوا وأن يتبادلوا التقدير.

في حالات عدة، يزيد الخجل الباطل الشرّ سوءاً. فالرأي العام هو دوماً أكثر طغياناً تجاه أولئك الذين يخشونه، منه تجاه أولئك الذين يبدون لا مبالين.

إن القطيع البشري يشبه قليلاً الكلب الذي سينبح بشراسة وسيسارع إلى

عضّ من يخافونه أكثر من أولئك الذين يعاملونه بازدراء. وإذا أنت أبديت تجاه الآخرين أنك تهابهم، أمكنك أن تتوقّع مطاردتهم لك، في حين أنك إذا أظهرت اللامبالاة، فإنهم سيشكّون في قدرتهم، ويدعونك وشأنك. بالطبع، أنا لا أفكّر في المظاهر القصوى للتحدّي. إذا أنت ساندت في كنزنغتون (حيّ بورجوازي في لندن) آراء سائدة في روسيا، أو إذا ساندت في روسيا الأفكار الجائزة أو المقبولة في كنزنغتون، ينبغي لك قبول النتائج. أنا لا أُفكّر في هذه الحالات القصوى، ولكن في انحرافات أقلّ خطورة من مثل هذه التقاليد التالية: إهمال المظهر، عدم الانتساب إلى كنيسة ما، أو عدم مطالعة كتب ذكية، مثل هذه الانحرافات، إذا ما تمّت بمرح وتهاون، وليس بتحدّ ولكن بسذاجة أم ببساطة، فإنها في نهاية المطاف، ستُقبل حتى في المجتمع الأكثر تزمتاً. وشيئاً فشيئاً سيغدو ممكناً أن يصنع لنفسه سمعة الغريب الأطوار المالك البراءة أو المرخّص له، المرء، المسموح له بأمور محظورة على الآخرين. وهذا، في القسم الأكبر منه، هو قضية بشاشة ومودّة. والأشخاص «التقاليديون» (من يوافق اعتقادهم التقاليد) يغضبون لانحرافات التصرّف أو السلوك، وخصوصاً لأنهم ينظرون إليها على أنها نقد لهم شخصياً. إنهم يتسامحون أكثر بغرابة أطوار تصدر عن امرىء يتمتع بقدر كبير من البشاشة والمودة لكي يُظهر، حتى للأشدّ حماقة، إن لا نيّة لديه في انتقادهم.

غير أنه يستحيل على كثيرين التخلّص من النقد، فمن تُبعدهم ميولهم وآراؤهم عن تعاطف القطيع؛ ويزعجهم فقدان التعاطف هذا، ويحملهم على اعتماد موقف عدائي حتى لو أنهم يطيعون في تصرفهم، القواعد والنظم، أو يتدبّرون أمر تجنُّب حلّ عنيف؛ والأشخاص الذين لا يحيون في تناغم أو انسجام مع التقاليد السائدة في مجموعتهم الشخصية، يميلون إلى أن يكونوا صعبين ومنزعجين، ويفتقرون إلى بشاشة صريحة ـ هؤلاء الأشخاص من أنفسهم، إذا ما نُقلوا إلى مجموعة أخرى حيث لا تبدو آراؤهم غريبة، تراهم يبدّلون سلوكهم.

ومن أناس جديين، حيّين، ومتحفظين، قد يغدون أناساً مرحين، وواثقين من أنفسهم؛ ومن أشخاص جافّين، قد يصبحون رقيقين وبسطاء؛ ومن منهمكين، بصورة خاصة، بأنفسهم،قد يُمسون اجتماعيين ومنفتحين.

لذا، في كل مرة يكون ذلك ممكناً، يتعينَّ على الشباب الذين لا يجدون أنفسهم منسجمين مع محيطهم، لدى اختيار مهنة ما، أن يتخذوا المهنة التي تضعهم على اتصال برفاق من ذوي الميول نفسها، حتى لو أدّى ذلك إلى خسارة ملموسة في المرتّب. في معظم الأحيان، تراهم لا يدرون حتى إن ذلك ممكن لأن معرفتهم العالم جدّ محدودة، وهم يتصوّرون بسهولة أن المبادىء التي اعتادوا عليها في وسطهم هي عامة. في هذا المجال، ينبغي للأشخاص الأكبر سنّاً مساعدة الشبان ما دامت الخبرة الهائلة بالنسبة إلى البشرية ضرورية.

لقد جرت العادة، في عصر الطب النفسي هذا، أن نزعم أن الشاب، الذي لا ينسجم مع محيطه، يعاني من اضطراب سيكولوجي. في رأيي، أن هذا خاطىء كلياً. لنفرض، مثلاً، إن شاباً ما، والداه يعتبران أن نظرية التطور مفسدة. الذكاء وحده، في مثل هذه الحالة، قادر على قطع الاتفاق أو التفاهم القائم بين والديه وبينه. إن عدم شعور المرء بأنه منسجم مع محيطه هو شرّ، طبعاً، ولكنه ليس دوماً شرّاً ينبغي تجنّبه مهما كان الثمن. عندما يكون المحيط غبيّاً، مليئاً بالأفكار المسبقة، أو قاسياً، فإن الشعور بالبقاء على الحياد أو على انفراد، دليل على الجدارة، ومزيّة. وإلى حدّ ما، يصدق ذلك على كل محيط تقريباً.

كان لغاليليو وكبلر أفكار «خطرة» (كما يقولون في اليابان)، وكذلك هي حال الأشخاص الأذكياء في عصرنا. وليس مستحبّاً تطوير الحسّ الاجتماعي إلى درجة يروح معها هؤلاء الأشخاص يخشون العداوة الجماعية التي قد تثيرها آراؤهم. من المستحبّ إيجاد وسائل تجعل هذه العداوة خفيفة وغير مؤذية ما أمكن.

في عالمنا الحديث، يتكشّف المظهر الأهم لهذه القضية في فترة الصبا. فما إن يندفع المرء في المهنة التي اختارها ويعيش في المحيط المطابق لميوله، حتى يستطيع في معظم الحالات، التخلُّص من الاضطهاد الاجتماعي. ولكنه ما بقي فتياً، ولم تظهر بعد مزاياه، يُخشى أن يجد نفسه تحت رحمة أُناس جهلة يعتبرون أنفسهم حكاماً في قضايا لا يعرفون شيئاً عنها، ويغيظهم أن يقال لهم ان شاباً ما هو حَكَمٌ أفضل منهم مع ما لديهم من خبرة كبيرة مكتسبة.

كثيرون ممن انتهوا إلى التخلّص من طغيان الجهل، اضطروا إلى خوض معركة جدّ قاسية، وعانوا الكثير من القمع بحيث أنهم على المدى البعيد باتوا يشعرون بالسخط، وأن طاقتهم قد ضعفت. هناك مذهب مريح للغاية مآله أن العبقري ينتصر دوماً؛ ويعتقد الكثيرون، وهم يعتزّون بهذا التأكيد، أن اضطهاد المواهب الشابة لا يمكن أن يُسبّب أذى كبيراً. ولكن ليس ثمة أي سبب للتسليم بهذا المذهب. إنه كالنظرية القائلة بأن كل جريمة تُكتشف في النهاية. بالطبع، إن كل الجرائم التي نعرفها قد اكتشفت، ولكن من يدري كم هناك من جرائم لم نشك قط في حدوثها؟ وكذلك، كل العباقرة الذين أتانا خبرهم انتصروا على الظروف المعاكسة، ولكن هذا ليس سبباً للاعتقاد أنه ليس هناك عدد أكبر من العباقرة سقطوا في فترة الصبا. على أي حال، الأمر لا يتعلّق بالعبقرية وحسب، ولكن كذلك بالموهبة التي هي ضرورية أيضاً للمجتمع. والأمر ليس متعلّقاً فقط بالتخلّص بطريقة أو بأخرى، من المحنة، ولكنه يتعلّق بالخروج منها دونما حقد وبطاقة سليمة. لذا، لا ينبغي معارضة الشبان بقسوة وهم يشقّون طريقهم في الحياة.

إذا كان مستحباً أن يعامل المسنون باحترام رغبات الشبان، فإنه من غير المستحبّ أن يعامل الشبان باحترام رغبات الذين يكبرونهم سناً. والسبب في ذلك بسيط، علماً بأنه في الحالتين، الأمر له علاقة بحياة الشبان وليس بحياة المسنين. عندما يحاول الشبان توجيه حياة الأشخاص المسنين (كمعارضة زواج النسيب الأرمل ثانية، مثلاً) فإنهم يخطئون مثلما يخطىء الأكبر منهم سناً عندما

يحاولون التدخّل في حياتهم. فالرجال، سواء أكانوا شباناً أو مسنّين، ما إن يبلغوا سن الرشد، حتى يصبح لهم حق الاختيار الشخصي، وعند الضرورة، حق ارتكاب الأخطاء الشخصية. ويكون الشبان غير فطنين إذا هم سلّموا، في موضوع حيوي،* تحت ضغط من هم أكبر سناً منهم. لنفرض جدلاً أنك شاب وترغب في امتهان مهنة التمثيل، وأن والديك يعارضان في ذلك بحجة أن التمثيل أو المسرح أمر لا أخلاقي، أو أنه منحطّ اجتماعياً. بوسعهم أن يمارسا كل أنواع الضغط عليك. بوسعهما تهديدك بالطرد إذا أنت لم تصغ إليهما. بوسعهما القول انك حتماً ستندم بعد بضع سنين. بوسعهما أن يقدّما لوائح كاملة بأمثلة مخيفة عن شبان كانت لهم الجرأة للقيام بما تنوي القيام به، وكانت نهايتهم سيئة. قد يكونون طبعاً على صواب في اعتقادهم أن المسرح ليس مهنة بالنسبة إليك. وقد تكون غير موهوب مسرحياً، أو قد يكون اختيارك غير موفّق. إذا كان الأمر كذلك، فإن أهل المهنة سيتكفّلون باطلاعك على ذلك، وسيبقى هناك متسع كبير من الوقت لكي تختار مهنة أخرى. لا ينبغي أن تشكّل حجج الأهل أسباباً كافية للتخلّي عن كل محاولة.

وإذا أنت حقّقت مشاريعك، على الرغم من كل ذلك، فإنهم سيغيّرون بسرعة فكرهم، وبأسرع مما كنت تتوقّع أو كانوا هم يتوقّعون. ولكن، على النقيض، إذا أنت ألفيت آراء المحترفين مثبطة للهمة، فذلك موضوع آخر، لأن آراء أهل المهنة ينبغي أن يأخذها المبتدئون باحترام.

في يقيني أننا بصورة عامة، وباستثناء رأي الخبراء، نحيط بكثير من الاحترام أحكام الآخرين سواء في القضايا الكبيرة والقضايا الصغيرة. مبدئياً يجب أن نحسب حساب رأي الآخرين بقدر ما هو ضروري تجنُّب الجوع والسجن، ولكن كل ما يتجاوز هذه الحدود هو خضوع طوعي لطغيان باطل، ويغدو من المحتمل التأثير على السعادة من وجوه كثيرة. لنأخذ، مثلاً، قضية إنفاق المال. كثيرون ينفقون مالهم بطريقة تعارض ميولهم الطبيعية لمجرد أنهم يشعرون أن الاحترام الذي يبديه نحوهم الجيران يتوقّف على امتلاك سيارة

جميلة، وإقامة مآدب شهية. والحقيقة أن كل شخص بوسعه أن يمتلك علناً سيارة، ولكنه بكل إخلاص يفضّل السفر أو شراء مكتبة عامرة، ينتهي به الأمر إلى اجتذاب احترام أكثر مما لو تصرَّف تماماً مثل سائر الناس. ليس هناك حتماً أي فائدة من إطراء الرأي العام عمداً: إنه كذلك الوجود تحت سيطرته وإن يكن في اتجاه معاكس. ولكن لا مبالاة المرء صراحة هي في الوقت نفسه قوة ومصدر سعادة. والمجتمع المؤلف من رجال ونساء لا يتملّقون كثيراً التقاليد لهو مجتمع أكثر أهمية وإثارة من مجتمع يتصرّف فيه الجميع بالطريقة نفسها.

وعندما يتطور سلوك كل امرىء بطريقة فردية، فإن الاختلافات في النموذج تُحفظ، ويصبح من المثير مصادفة أُناس جدد، لأنهم ليسوا نسخاً طبق الأصل عن أولئك الذين سبق التعرُّف إليهم. ذلك كان أحد امتيازات الأرستقراطية، ما دام كان مسموحاً التصرف بصورة غريبة حيث الوضع الاجتماعي كان يتوقف على المولد.

وفي عالمنا الحاضر، نفقد مصدر الحرية الاجتماعية هذا، وقد بات ضرورياً أن ندرك بوعي أكبر المخاطر التي يمكن أن يقدمها التماثل أو التشابه. أنا لا أعني أن على البشر أن يكونوا غريبي الأطوار عمداً، كما هو ليس مثيراً كذلك أن يكونوا تقليديين. كل ما أعتقده هو أن على البشر أن يكونوا طبيعيين، ويتبعوا ميولهم العفوية بقدر ما تكون هذه الميول صراحة غير معادية أو مضادة للمجتمع.

في عالمنا المعاصر، جعلت سرعة الحركة الناس أقلّ اعتماداً على جيرانهم الأقربين، كما في الماضي. فأولئك الذين يمتلكون سيارة بوسعهم أن يدعوا كل شخص يعيش على مسافة عشرين فرسخاً منهم جاراً (الفرسخ أربعة كيلومترات تقريباً). إذاً، يتوفّر لديهم تنوع في اختيار رفاقهم أكثر من السابق. وفي التكتلات السكانية، ينبغي للمرء أن يكون حقاً سيّىء الطالع إلى أبعد حدّ، إن هو عجز عن إيجاد صديق في دائرة محيطها عشرون فرسخاً. لقد اختفت فكرة التعرُّف إلى الجيران الأقربين في التكتلات البشرية، ولكنها ما تزال سائدة في

المدن الصغيرة والقرى. لقد أمست فكرة سخيفة، ما دامت الإفادة من امتيازات المجتمع لم تعد تستدعي الاعتماد على الجيران. وقد غدا ممكناً لنا أكثر فأكثر اختيار أصدقائنا ليس بالنسبة إلى قربهم، ولكن من أجل المصالح المشتركة فيما بيننا. وتنجم السعادة عن معاشرة أناس لهم الميول والآراء نفسها. وينبغي أن تتطور الصلات الاجتماعية أكثر فأكثر في هذا الاتجاه، حيث يسمح الأمل بأن تقلّ تدريجياً العزلة التي تثقل على الكثيرين من الأشخاص غير التقليديين تماماً، وتختفي في نهاية المطاف. إن ذلك، بلا أدنى ريب، سيضاعف السعادة، ولكنه، في الوقت ذاته، سيخفّف السرور السادي الذين يحسّ به حالياً أناس تقليديون لدى إحساسهم بأن الأشخاص التقليديين نوعاً ما هم تحت رحمتهم. ولست أحسب، مع ذلك، أن هذا سرور لنا مصلحة في الحفاظ عليه.

إن الخوف من الرأي العام، مثل أي ظاهرة أخرى من الخوف، طاغية، ويُوقف التطور. من الصعب بلوغ درجة معيّنة من العظمة ما بقي هذا النوع من الخوف حياً، ومن المستحيل اكتساب هذه الحرية الفكرية التي تشتمل على السعادة الحقيقة، ذلك بأنه أمر أساسي أن ينبثق اختيارنا لحياتنا من الدوافع العميقة وليس من الميول والرغبات الطارئة لدى أولئك الذين يتفق أن يكونوا جيراننا أو أصدقاءنا. ومن المؤكد أن الخوف من جيراننا هو أقل حدّة مما كان عليه في السابق، إلا أن خوفاً جديداً ظهر: الخوف مما تستطيع الصحف قوله. وهذا مرعب مثلما كانت مطاردة المشعوذات مرعبة في القرون الوسطى. فإذا قرَّرت الصحف اعتبار شخص ما مسالماً كبش محرقة؛ قد تكون النتيجة رهيبة. حتى الآن، هذا قد نجا منه، لحسن الطالع، معظم الناس بفضل حياتهم الخاملة. ولكن بقدر ما تحسّن الدعاية وسائلها أكثر فأكثر، فإن ثمة خطراً نامياً في هذه الظاهرة الجديدة للاضطهاد المجتمعي. وهذه قضية جدّ خطيرة لكي تُجابَه باحتقار من الشخص الذي هو ضحيتها. ومهما يكن رأينا في مبدأ حرية الصحافة الكبير، ينبغي أن تُحسم القضية بوضوح أكثر مما حُسمت بالقانون الذي يتناول الكتابات التي تنطوي على القذف، وكل من يجعل حياة الأفراد الأبرياء لا تُطاق ينبغي أن يُحظر، حتى لو فعلوا أو قالوا، مصادفة، أشياء

نُشرت بنية سيئة، قد يجعلهم مكروهين شعبياً.

إن العلاج الوحيد والنهائي لهـذا الشرّ هو، مـع ذلك، نمـو التسامـح من جانب الجمهور. وأفضل وسيلة لزيادة التسامح هي مضاعفة عدد الأفـراد الذين يدركون أن السعادة الحقيقة، والذين لا يكمن سرورهم الوحيد في التسبّب بالألم لإخوانهم بني البشر.

القسم الثاني

أسباب السعادة

١٠

هل ما تزال السعادة ممكنة؟

حتى الآن، نظرنا ملياً في الإنسان التعس، وبتفحّصنا الإنسان السعيد، تغدو مهمتنا مستحبة أكثر. إذا أنا قرأت كتب أصدقائي، أو إذا أصغيت إلى حديثهم، فإنني أنتهي إلى الاستنتاج أن السعادة باتت مستحيلة في العالم المعاصر. مع ذلك، أرى أن وجهة النظر هذه تميل إلى الزوال بفضل الاستبطان (عملية تشاهد بها الذات ما يجري في الذهن من شعوريات لوصفها لا لتأويلها)، والرحلات إلى الخارج، وأحاديث البستانيّ الذي يعمل في حديقتي. تحدثت في أحد الفصول الأولى عن الداء الذي يشكو منه أصدقائي الكتّاب؛ الآن أود أن أُلقي نظرة على الأشخاص السعداء الذين سنحت لي فرصة لقائهم في حياتي.

هناك نوعان اثنان من السعادة، علماً بأن ثمة، حتماً، درجات متوسطة. وأحسب أن بالوسع تسمية هذين النوعين: بسيطاً ومرهفاً، أو حيوانياً وروحياً،

أو انفعالياً وفكرياً. وذاك الذي نختاره بين هذه التسميات المتناوبة يتوقف، بالطبع، على الأطروحة التي نودّ الدفاع عنها. في هذه اللحظة لست أنوي أن أثبت أي أطروحة، بل سأقدّم، وحسب، وصفاً. ولعلّ الوسيلة الأسهل لوصف الفارق بين هذين النوعين من السعادة هي القول بأن الواحد في متناول كل كائن بشري، وأن الآخر ليس متاحاً إلا للذين يتقنون القراءة. في صغري عرفت شخصاً، كان حافر آبار، يفيض سعادة. كانت قامته هائلة، وكان مفتول العضلات. لم يكن يقرأ ولا يكتب، ولما اضطر سنة ١٨٨٥، إلى الاقتراع في الانتخابات النيابية، عرف للمرة الأولى بوجود مثل هذه المؤسسة. سعادته لم تكن تتوقف على أي سرور فكري، ولم تكن قائمة على الاعتقاد بالقوانين الطبيعية، أو على إمكانية تحسين النوع، أو على الملكية العامة للمصالح ذات المنفعة العامة، أو على النصر النهائي لجماعة السبتيين (القائلين بأن مجيء السيد المسيح بات قريباً)، أو على أي عقيدة أخرى مما يعتبرها المثقفون ضرورية لمباهج الحياة. كانت سعادته مضمونة بفضل القوة الجسدية، ووجود عمل كثير لديه، والتغلّب على العقبات الكأداء التي تتمثّل بأشكال الصخور.

وكانت سعادة البستانيّ الذي يعمل عندي من النوع ذاته. إنه يخوض حرباً متواصلة ضد الأرانب التي يتحدّث عنها بالعبارات نفسها التي تستعملها دوائر اسكتلنديارد عندما تتحدّث عن البولشفيك. إنه ينظر إليها كأعداء كثيبين، دساسين، شرسين، ويعتقد أن بوسعه وحسب، التغلّب عليهم بخدعة مماثلة لخدعتهم. ومثل أبطال مثوى الشهداء (حجرة الخلود التي تُستقبل فيها أرواح الشهداء، في الميثولوجيا السكندينافية) الذين كانوا يصطادون يومياً خنزيراً برّياً متوحشاً ويقضون عليه في المساء ولكنه كان ينبعث حياً بطريقة عجائبية في اليوم التالي، فإن بوسع بستانيّ أن يصرع عدوه دون أن يخشى اختفاءه في الغداة. وعلى الرغم من أنه تجاوز السبعين من عمره، فإنه يعمل طوال اليوم ويجتاز على الدراجة، في منطقة جبلية، الأميال الستة عشر التي تفصله عن مكان عمله، إلا أن مصدر غبطته لا ينضب له معين، وهو هذه «الأرانب اللعينة» التي توفّرها له.

ولكنك قد تقول أن هذه المباهج البسيطة ليست متاحة لأناس متفوّقين أمثالنا. أي غبطة بوسعنا الإحساس بها بمحاربة مخلوقات صغيرة كالأرانب؟ في يقيني أن‌هذه الحجة هزيلة جداً. فالأرنب أكبر كثيراً من عُصيّة (بكتير عصوي الشكل) الحمّى الصفراء، ومع ذلك، فإن شخصاً متفوقاً يستطيع أن يجد سعادة في شنّ الحرب على العصية.

إن مباهج ومسرّات شبيهة من كل الوجوه بمسّرات بستانيّ، في ما يتعلّق بمحتواها الانفعالي، متاحة للأشخاص الرفيعي الثقافة.ولا علاقة للفارق الذي يُقيمه التعليم بالأنشطة التي يمكن الحصول بواسطتها على هذه المسرّات. فلذّة إنجاز عمل ما تتطلّب من المصاعب ما يجعل النجاح يبدو، للوهلة الأولى، مشكوكاً فيه، على الرغم من أنه يتمّ في النهاية تحقيقه بصورة عامة.

وربما كان ذلك السبب الرئيسي في أن تقدير المرء لمزاياه الشخصية تقديراً صحيحاً، ضروري للسعادة. فالشخص الذي يستهين بذاته يفاجئه النجاح دوماً، في حين أن من له ثقة مفرطة بنفسه، غالباً ما يفاجئه كذلك الإخفاق. إن المفاجأة الأولى مستحبّة، والثانية غير مستحبة.

لذا، من أجل النجاح، تفرض الحكمة على المرء ألا يكون مغروراً إلى درجة مفرطة، ولا متواضعاً كثيراً.

إن أسعد الناس بين المثقفين في مجتمعنا، هم رجال العلم. فكثيرون، بين البارزين منهم، لهم حياتهم الانفعالية البسيطة جداً، ويحصلون على ترضية جدّ عميقة من عملهم بحيث يجدون سروراً في التغذّي، وحتى في الزواج. فالفنانون والأدباء يعتبرون أنه لا بد من أن يكون الواحد منهم تعساً في الزواج، ولكن العلماء يظلّون غالباً جداً قادرين على الإحساس ببهجة عائلية تُعتبر قديمة الزيّ. والسبب في ذلك أن الأجزاء العليا من ذكائهم مشغولة كلياً بعملهم، ولا يسعها التسلُّل إلى المناطق التي ليس لها أي عمل فيها. إنهم سعداء في عملهم، لأن العلم في العالم الحديث، تقدميّ وقوي، ولأن أهميته لا

توضع موضع الشـك لا من جانبهم، ولا من جـانب الجاهلين بـأُصول العلم. وتكـون النتيجة أنهم ليسـوا بحـاجـة مـطلقـاً إلى انفعـالات مـركّبـة مـا دامت الإنفعالات الأبسط لا تصادف أي عقبات. إن التعقيد في الانفعالات يُشبه زبد النهر. إنه يتسبّب عن عقبات تحطّم المجرى المتساوي في التيـار. ولكن طالما أن الطاقة الحيـوية لم تُعـطّل، لا يحدث أي تمـوُّج على سـطح الماء، ولا تبـدو قوّتـه لعينيّ المراقب السطحي.

إن كـل شروط السعادة محقَّقـة في حياة العالِم. إنـه ذو نشاط يتيـح له أن يستخدم كلياً كل طاقاته، فيبلغ نتائج تبدو مهمة، ليس بـالنسبة إليـه شخصياً، ولكن بـالنسبة إلى الجمهـور العريض أيضـاً، حتى لو أن هـذا الأخـير لا يسعـه تقديرها حق قدرها. من هذه الناحية تراه أكثر حظاً من الفنان. عنـدما لا يسـع الناس فهم لوحة فنية أو قصيـدة، فإنهم يستنتجـون أن اللوحة سيّئـة، وكذلـك القصيدة. وعندما لا يسعهم فهم نظرية النسبية، فـإنهم يستنتجون (صـواباً) أن تعليمهم قـد أُهمل. وينجم عن ذلـك أن يُقـدَّر آينشتـاين، بينـما يقضي أفضـل الفنانين جوعاً في الأكواخ، ويكون آينشتـاين سعيداً، في حـين أن الرسـامين لا يعرفون السعادة.

قليلون هـم الأشخـاص الذين يستـطيعـون، إذا عجـزوا عن الإنفـراد في عصبـة أو تكتُّل ونسيـان لا مبالاة العالم، أن يعـرفوا السعـادة الحقيقية في حيـاة تتطلب دوماً تأكيد إراداتهم ضد تشكيك البشرية. إن العالِم ليس بحاجة إلى عصبة ما دام يحظى بتقدير الجميع، باستثناء زملائه. الفنان، على النقيض يجـد نفسه في الوضع المؤلم الذي يفرض عليه الخيـار بين احتقـار الآخرين، والمـوقف الحقير. وإذا كانت مزاياه ظاهرة، ينبغي له أن يواجه إحدى هـاتين المصيبتـين: الأولى، إذا استخدم قدراته؛ والثانية، إذا لم يفعل ذلك. ولم يكن الأمر كذلك، لا في كـل مكان، ولا في كـل زمان. كـان ثمة حقبـات نُظر فيهـا إلى الفنـانـين الممتازين، حتى لو كانوا شباناً، نظرة احترام كبير. وإذا كان البابا جول الثـاني قد بدا ظالماً تجاه الفنان ميكيل أنجيلو، فإنه لم يعتقد يوماً أنه عاجز عن الرسم. في أيامنا هذه، لا يفكر صاحب الملايين مطلقاً، إذا ما اتفق له أن غمر الفنـانين

المسنّين الذين فقدوا قدرتهم، بالثروات، بأن عملهم هو مهمّ مثل عمله. ربما تكون الظروف مسؤولة نوعاً ما عن كون الفنانين، عموماً، أقل سروراً من العلماء.

في رأيي، ينبغي الاعتراف بأن الشبان الأكثر ذكاء، في بلدان الغرب، هم غالباً تعساء لأنهم لا يجدون عملاً يتلاءم وأفضل قدراتهم. ولكن ليست تلك الحالة، مع ذلك، في بلدان الشرق. فالشبّان الأذكياء، في أيامنا، هم أسعد، ربما، في روسيا منهم في بلدان أخرى. إن لديهم عالَماً جديداً ينشئونه، ويعمر قلوبهم بالإيمان الحارّ الذي يساعدهم على ذلك. إن أفراد الجيل القديم إما أُعدموا أو نُفوا، أو قضوا جوعاً، أو شُلَّ نشاطهم بحيث لم يعد بإمكانهم الإضرار بطريقة أو بأخرى، ولا يسعهم أن يفرضوا على الشبان البديل بين فعل الشر أو عدم فعل أي شيء، كما يحدث في بلدان الغرب. ففي نظر الغربي المتكلف، قد يبدو إيمان الروسي خشناً؛ ولكن، في نهاية المطاف، ماذا يمكننا أن نقول في ذلك؟ إنه في سبيل بناء عالم جديد. والعالم الجديد هو بحسب رغبته؛ العالم الجديد، ما إن يُبنى، حتى يجعل الروسي العادي أوفر سعادة مما كان قبل الثورة. إن هذا العالم قد لا يكون عالماً يستطيع المثقّف الغربي المتكلِّف أن يسعد فيه، ولكن المثقف الغربي المتكلِّف ليس عليه أن يحيا فيه. إن إيمان الشاب الروسي، إذاً، مبرَّر بكل برهان عملي أو واقعي، ولا يمكن أن يكون ثمة أي تبرير لنعته بالخشونة، إلا على أساس نظري.

في الهند، وفي الصين، وفي اليابان، تزعج ظروف خارجية ذات طابع سياسي سعادة أهل الفكر من الشبان، ولكن ليس هناك هذه العقبات الداخلية التي نجدها في الغرب. نجد هناك الأنشطة التي تبدو مهمة بالنسبة إلى الشبان، وبقدر ما تنجح هذه الأنشطة يسعد الشبّان. إنهم يشعرون بأن لهم دوراً مهماً يمثّلونه في الحياة الوطنية، وأهدافاً يسعون إليها، ومع أنها صعبة، إلا أنها ليست مستحيلة البلوغ. والاستخفاف المنتشر كثيراً في أوساط الشبان والصبايا الأكثر ثقافة في الغرب، هو نتيجة المزج بين الراحة واللافاعلية. وتمنح اللافاعلية

الشبان الانطباع بأن لا شيء يساوي كون المرء مفهوماً، والراحة تجعل هذا الإحساس المؤلم محتملاً أو مُطاقاً.

بوسع الطالب في كل مكان في الشرق، أن يرجو الحصول على المزيد من التأثير في الرأي العام أكثر مما يسعه أن يحصّل منه في بلدان الغرب الحديثة، ولكن حظه في تأمين دخل كبير هو أقلّ منه هنا. ولما كانت له القدرة على التحرك، ولكن ليس على الراحة المادية، فإنه إما أن يصبح مصلحاً، أو ثوريا، ولكن ليس كلبياً (متعلّقاً بالمذهب الكلبي، وهو مذهب فلسفي يقول باحتقار العرف والتقاليد والرأي العام والأخلاق الشائعة). إن سعادة المصلح أو الثوري تتوقّف على تطوّر الشؤون العامة، ولكن، بلا ريب، وحتى لدى تنفيذها، فإنه يحسّ بسعادة حقيقية أكثر لا يسع الكلبي المتمتع بالراحة الإحساس بها. إني أتذكّر شاباً صينياً جاء لزيارة مدرستي، وكان على وشك العودة إلى بلاده لتأسيس مدرسة من الطراز نفسه في منطقة رجعية في الصين. وكل ما كان ينبغي له توقّعه هو أن يُقطع رأسه. ومع ذلك، استمتع بسعادة هادئة لا يسعني إلا أن أحسده عليها.

مع ذلك، أنا لا أودّ أن أُوحي بأن هذه السعادة، مع كونها مفخّمة نوعاً ما، هي الوحيدة الممكنة. إنها ليست، في الواقع، متاحة إلا لأقلية، لأنها تفرض قدرات ومدى من المصالح التي لا يمكن أن تكون مألوفة كثيراً. العلماء المشهورون ليسوا الوحيدين الذين يجنون السعادة من عملهم، كما أن رجال الدولة من السياسيين المتنفذين ليسوا الوحيدين الذين يجدون السعادة في دفاعهم عن قضية ما. إن سعادة العمل سهلة المنال بالنسبة إلى كل الذين بوسعهم إظهار بعض النباهة، شرط أن يستطيعوا جني السرور من ممارسة مواهبهم دون تطلّب موافقة عامة. عرفت امرأً، فقد وهو في سنّ مبكرة، القدرة على استخدام إحدى ساقيه، ولكنه ظل رائقاً وسعيداً طوال حياته؛ وقد توصّل إلى هذه النتيجة بكتابة مؤلف من خمسة أجزاء حول تلوين الورود، وكان، كما علمت من البداية، خبيراً في ذلك من الطراز الأول. ولم يسعدني الحظ بالتعرّف

إلى الكثيرين من علماء الأصداف، ولكن أولئك الذين عرفوا شيئاً عنهم أعلموني أن دراسة الأصداف ترضي من يهتمّ بها. وعرفت في ما مضى رجلاً كان أكبر طابع في العالم، يسعى إليه كل الذين يكرّسون جهودهم لاختراع حروف فنية. كان يستمدّ الغبطة ليس من الاحترام الصادق الذي يكنّه له أولئك الذين لا يغدقون احترامهم أو تقديرهم كيفما اتفق بقدر ما كان يستمدّ السرور الحقيقي من ممارسة فنه، وهو سرور شبيه بالسرور الذي يستمده الراقصون الممتازون من الرقص. وعرفت كذلك طابعين كانوا خبراء في فن وضع حروف رياضية نسطورية أو مسمارية، أو حروف أخرى بعد، صعبة، وخارجة عن المألوف. لم يسعني أن أعرف إذا كان هؤلاء الرجال سعداء في حياتهم الخاصة، ولكنهم خلال ساعات عملهم، كانت غرائز البناء لديهم مرضية تماماً.

جرت العادة أن نقول إن في عصرنا الذي تسود فيه الآلة، هناك مجال أقلّ مما كان في السابق للغبطة التي يمكن أن يستمدها الصانع أو الحرفي من عمله المتخصص. أنا لست واثقاً تماماً من أن ذلك صحيح: العامل المتخصص، في أيامنا، يعمل، حقاً، في أشياء شديدة الاختلاف عن تلك التي كانت تشكل أهل الحرفة في القرون الوسطى. ولكنه ما يزال يحتفظ بمقام مهم جداً، وأساسي تماماً في اقتصاد الصناعة الميكانيكية. هناك، أولاً، أولئك الذين يصنعون الأدوات العلمية أو الماكنات الدقيقة؛ وهناك الرسامون، وميكانيكيو الطائرات، وهناك السائقون، وطائفة كبيرة من العمّال الآخرين يقومون بحرف يمكن أن تُطوّر فيها النباهة والحذق إلى أي درجة ممكنة. فالمزارع والفلّاح في المجتمعات البدائية نسبياً هما، وفقاً لما أمكنني ملاحظته، أبعد ما يكونان سعادة من سائق السيارة أو الميكانيكي.

صحيح أن عمل الفلّاح الذي يزرع أرضه الخاصة مختلف؛ إنه يحرث، ويزرع، ويجني. ولكنه تحت رحمة العناصر، ويعرف تماماً تبعيته، في حين أن الشخص الذي يعمل في آلية حديثة يعي قوّته، ويحصل على الإحساس بأن الإنسان هو سيّد، وليس عبداً للقوى الطبيعية. صحيح، بالطبع، أن العمل

جدّ رتيب بالنسبة إلى كل هذا الفريق من المراقبين البسطاء للماكنات الـذين لا يعملون سوى تكرار عملية ميكانيكية متواصلة بأقلّ ما أمكن من التنوع. ولكن بقدر ما يكون العمل رتيباً، يصبح ممكناً تنفيذه بواسطة الآلة. إن الغاية النهائيـة من الإنتاج الميكانيكي ـ الذي نحن، بعيدين كثيـراً عنه، صحيـح ـ هو نـظام كل ما هو رتيب فيه ستنجـزه الآلات، وحيث يُحتفظ بالكـائنات البشريـة للعمل الذي ينطوي على التنوّع والمبادرة. في عالم مماثل، سيكون العمل أقـلّ بعثاً عـلى السأم، وأقل قبضـاً للنفس، منذ ظهـور الزراعـة. وبالتفـرّغ للزراعة، قـرّرت البشرية أنها ستخضع إلى الرتابة وإلى السأم للتقليـل من خطر المجـاعة. عنـدما كـان البشر يحصلون عـلى غـذائهم بـالصيـد، كـان العمـل غبـطة، كـما يسعنـا الإستنتاج من كون الأغنياء احتفظوا بهذه المشاغل السلفية كتسليات. إلا أنه مع ظهور الزراعة، دخلت البشرية عصـراً طويـلاً من الخسّة، والبؤس، والجنـون، تخرج منه الآن بفضل عون الآلة الملائم.

طالما تحدَّث العاطفيون عن الاتصال بالأرض، وبالحكمـة الناضجـة لدى الفلاحين الفلاسفة عند الروائي الـبريطاني تـوماس هـاروي (كاتب وشـاعر هـو الممثـل الرئيسي لتيّـار التشاؤم في الأدب في نهايـة القرن التـاسع عشر). غـير أن الرغبة الوحيدة لدى كل فـلّاح شاب هي العثـور على عمـل في المدينـة يتيح لـه التخلّص من عبودية الريح، والـطقس الرديء، ووحشـة ليالي الشتـاء المعتمة، ويتيح له التعرّف إلى الجو المطمئن والبشري في المصنع ودار السينـما. فالتضـامن والعمل المنجزان معاً هما عنصران أساسيان لسعادة الإنسان المتـوسط، وبالـوسع إيجادهما غالباً جداً في الصناعة أكثر منها في الزراعة.

إن الإيمان بقضية ما هو مصدر سعادة بالنسبة إلى عـدد كبير من النـاس. أنـا لا أفكر، وحسب، بـالثوريـين، وبالإشـتراكيـين، وبـالـوطنيـين في البلدان المضطهدة، وكـل الآخرين. إني أفكّـر كذلـك بالمعتقـدات الأكثر تـواضعاً. إن الأشخـاص الذين أعـرفهم كانـوا يعتقدون أن الإنكليـز كـانـوا القبـائـل العشر الضـائعة، كـانوا سعـداء جميعاً تقـريباً، أمـا أولئك الـذين كانـوا يعتقـدون أن

الإنكليز كانوا، وحسب، قبيلتي إفرايم ومنسّى، لم تكن نشوتهم تعرف أي حدود. أنا لا أقترح على القارىء اعتهاد هذا الإيمان، ما دمت لا أستطيع أن أقترح سعادة قائمة، على ما يبدو أنها معتقدات خاطئة. وللسبب نفسه، لا يسعني تشجيع القارىء على الاعتقاد بأن على البشر أن يغتذوا، وحسب، بالجوز، على الرغم من أن هذا الاعتقاد، بحسب المراقبات التي تسنّى لي القيام بها، تؤمّن دوماً السعادة التامة. إلا أنه من السهل إيجاد سبب لا يكون غريباً؛ وأولئك الذين لهم مصلحة صادقة في هذه القضية مزوّدون بشيء يشغلون به أوقات فراغهم، وبترياق كامل ضد الشعور بأن الحياة فارغة.

إن عادة تكريس المرء أوقات فراغه لهوس أو فكرة ثابتة هي أقرب ما يكون من الإخلاص لقضايا غامضة. إن أحد أبرز الرياضيين العالميين الذين هم حالياً في قيد الحياة، يقسم وقته بالتساوي بين الرياضيات والطوابع البريدية. وأحسب أن الطوابع تعزّيه عندما لا يسعه التقدّم في الرياضيات. وإن الصعوبة في إثبات افتراضات في نظرية الأعداد ليس الحزن الوحيد الذي تستطيع الطوابع شفاءها، وليست الطوابع الأشياء الوحيدة التي يمكن جمعها. ما أعرض مجال الغبطة الذي ينفتح أمام الخيال عندما نفكّر في الخزف القديم، وعلب التبغ، والقطع النقدية الرومانية، ورؤوس السهام، والأدوات الصوّانية! صحيح أن كثيرين منا هم من «الرفعة» بحيث لايقدّرون هذه الملذات البسيطة. لقد اختبرناها جميعاً في صبانا، ولكن لسبب أو لآخر، عددناها غير جديرة بالرجل الكامل. إن هذا لخاطىء تماماً؛ فكل سرور لا يؤذي الآخرين ينبغي أن يقابَل بالتقدير. من جهتي، أنا أجمع الأنهر: أنا سعيد لأنني تابعت مجرى الغولفا نزولاً، وتابعت مجرى اليانغ - تسه صعوداً، وآسف كثيراً لأنني لم أُشاهد قط الأمازون أو الأورينوك. انا لا أخجل من هذه الانفعالات، مهما تكن بسيطة. وفكّر أيضاً بالمباهج الأخّاذة بالنسبة إلى عاشق لعبة البيس - بول المهووس. إنه يتصفّح جريدته بشغف، وتمنحه الإذاعة الارتعاشات الأكثر حمية. أتذكّر أول لقاء لي مع أحد الكتّاب الأكثر تأثيراً في أميركا، وهو رجل، اعتقدت من وراء كتبه، أنه مفعم بالكآبة. ولكن حدث أنه في تلك اللحظة، كانت النتائج

الحاسمة في إحدى مباريات البيس ـ بول ستذاع من محطة الإذاعة. فنسيني، أنا والأدب، وسائر شجون أرضنا، وأصدر صيحات غبطة لتحية انتصار فريقه المفضّل. ومنذ تلك الحادثة، بات بوسعي مطالعة كتبه دون الشعور بتعاسات شخصياته.

إن الأفكار الثابتة ليست ، مع ذلك ، في الكثير من الحالات، وربما في معظمها، مصدراً للسعادة الأساسية، ولكنها وسيلة للهرب من الواقع، ونسيان الألم الشديد للحظة واحدة، لا يمكن مجابهتها. والسعادة الأساسية تعتمد أكثر من أي شي آخر على ما يمكن تسميته اهتماماً ودّياً بالنسبة إلى الكائنات والأشياء.

الاهتمام الودّي بالنسبة إلى الكائنات هو شكل من المحبة، ولكنه ليس المحبة التي تؤمّن بعناد امتلاك الآخرين، وتبحث دوماً عن جواب مفحم. وهذه المحبة هي غالباً جداً عقبة في سبيل السعادة. فتلك التي تؤدي إلى السعادة تحبّ مراقبة الناس، وتجد سروراً في سماتهم الفردية؛ وتودّ كثيراً أن تدع للذين تصادفهم مجال تحرُّك لمصالحهم ومسرّاتهم، دون الرغبة في الحصول على سلطة عليهم، أو تأمين إعجابهم المتحمس. والرجل الذي يكون موقفه من الآخرين مخلصاً، وعلى الصورة التي وصفنا، سيكون مصدر سعادة لأمثاله، وسيُكافأ بطيبة الآخرين. وستفي علاقاته بمحيطه، سواء الخفيفة منها والعميقة، في آن معاً بمصالحه وانفعالاته، ولن يغيظه العقوق ما دام لن يصادفه إلا نادراً، ولن يلاحظه عندما سيكون هو هدفاً له. وستكون كل الظروف التي قد تغيظ أي شخص آخر إلى حدّ السخط مصدر تسامح ملهٍ بالنسبة إليه. وسيبلغ دون جهود نتائج يجدها سواه، عقب معارك طويلة، بعيدة المنال. ولكونه سعيداً شخصياً، فإنه سيكون رفيقاً مستساغاً، وهذا بدوره، سيُغني سعادته. إلا أن كل هذا ينبغي أن يكون مخلصاً، ولا ينبغي أن يولد من فكرة نكران الذات التي يلهمها الشعور بالواجب. إن شعوراً بالواجب مفيد للعمل، ولكنه مهين في العلاقات الشخصية. الناس يريدون أن يكونوا محبوبين، وليس مُحْتَملين بصبر

منقـاد. إن حب الكثيرين من النـاس عفويـا ودونما جهـد هو ربمـا أكـبر مصـادر السعادة الشخصية.

في الفقـرة الأخيرة، تحـدّثت كذلـك عما أدعـوه اهتمامـاً ودّياً بـالنسبـة إلى الأشياء. إن هذه الفقـرة ستبدو، ربمـا، متصنّعة نـوعاً مـا. بالـوسع الاحتجـاج والقول انه يستحيل أن يكون ثمة موقف ودّي تجاه الأشياء. مع ذلك يوجد نوع من التشابه مع الاهتمام الـودّي الذي يحمله العـالِم الجيولـوجي للصخور أو عـالم الآثار للآثار؛ وينبغي أن يؤلف هذا الاهتـمام جزءاً من مـوقفنا تجـاه الأشخاص والمجتمعات.

من الممكن أن يكون هناك اهتمام بالأشياء عدائي أكثر منه ودياً. في وسع الإنسـان جمع المعلومـات المتعلّقة بمسـاكن العناكب لأنـه يكره العنـاكب، ويـودّ العيش حيث لا وجـود لها. وهـذا الاهتمام لن يقـدّم تـرضيـة شبيهـة بتلك التي يجنيها عالِم الجيولوجيا من صخوره. والاهتمام بالأشياء الجامـدة، على الـرغم من كونه، ربمـا، عنصراً أقـلّ احترامـاً بالنسبـة إلى السعادة اليـومية من المـوقف تجاه أمثالنا، هو، مع ذلـك، جدّ مهم. العـالم واسع، وقـدراتنا محـدودة. إذا كانت سعـادتك بـأسرها تتـوقف، وحسب، على ظـروفـك الشخصيـة، سيكـون من الصعب ألا نـطلب إلى الحياة أكـثر مما تستـطيـع أن تعـطي. وطلب الكثـير هـو الوسيلة الأكثر ضماناً للحصول، بعد، على أقلّ ممـا هو ممكن. والشخص الـذي يستطيع نسيان همومـه بفضل اهتـمام مخلص ـ لنقل لمجمـع ترانت، أو للتـاريخ الـطبيعي الخاص بـالنجوم سيـلاحظ أنـه لـدى عـودتـه من رحـلاتـه في العـالم اللاشخصي، اكتسب توازناً وهدوءاً يتيحـان له الصراع بـالفعاليـة الممكنة ضـد همـومه، ويكـون في هذه الأثنـاء، قد أحسّ بـالسعادة الحقيقيـة حتى لـو كـانت موقتة.

إن سرّ السعادة هو التالي: وسّع ما أمكنك اهتماماتـك، وحاول أن تجعـل

ردود فعلك تجاه الأشخاص والأشياء الذين يثيرون اهتمامك أكثر مـا تكون ودّاً، وأقلّ ما تكون عدائية.

في الفصول التالية، سأتوسّع أكثر في هذه اللمحة التمهيديـة لإمكانيـات السعـادة؛ وفي الوقت نفسـه، سأشـير إلى الـوسـائـل الكفيلة بتجنُّب الأسبـاب السيكولوجية للألم.

١١

لــذة العيــش

في هذا الفصل، أنـوي التحدُّث عـما أعتقد أنـه الخاصيّـة الأكثر شمـولية لدى الإنسان السعيد.

ربمـا كـانت أفضـل وسيلة لفهم مـا نقصـد بلذة العيش، مـراقبـة مختلف أوضاع أو حالات البشر عندما يجلسون إلى مائدة الطعام.

هناك أولئك الذين يُشكل لهم الغذاء سخرة؛ فمهـما يكن الطعـام شهياً، فإنه لا يثير اهتمامهم. في الماضي تذوّقوا أشياء لـذيذة، في كـل الوجبـات تقريبـاً التي تناولوها. ولم يدروا قط مـا هي الحياة دون طعـام حتى غدا الجـوع انفعـالاً عنيفاً، وتوصّلوا إلى اعتبار وجبات الطعام تقاليد بحتـة تفرضهـا أهواء المجتمـع الـذي يعيشون فيـه. والوجبـات، مزعجـة، كسائـر الأمـور، ولكن لا حـاجـة للتكلّف في التصرُّف لأن ذلك مزعج كذلك. ثم إن هناك المرضى الذين يأكلون اضطراراً، لأن الطبيب قـال لهم إن من الضروري تناول بعض الغـذاء للحفاظ

علـى قوّتهم. ثم إن هنـاك الذوّاقـة الذين يبـدأون وجبتهم وهم ممتلئـون أمـلاً، ولكنهم سرعان ما يتبيّنون أن الألوان لم تحضّر على النحو الذي كانـوا يتوقّعـونه. وبعـد ذلك، هنـاك النهمون الـذين ينقضّون عـلى وقعـاتهم انقضـاض الـطيـور الكاسرة، ويُكثرون من الأكل، فيصبحون غزيرين وغطيطيـين. وأخيراً، هنـاك أولئـك الذين يبـدأون وجبتهم بشهية جيـدة، ويأكلون شبعهم، ثم يتـوقّفـون. وأولئـك الذين يجلسـون إلى مائـدة الحيـاة لهم ردود الفعـل نفسهـا إزاء الأمـور الحسنة التي تُقدَّم إليهم. والإنسان السعيد يـوافق أو يطابق آخـر الآكلين الذين استعرضناهم. وما تمثّل الشهية بالنسبة إلى الطعام، تمثّله الحماسة بالنسبة إلى الحياة. فالذي تزعجه وجبات الطعام هو مثل ضحية الداء البايروني. والمـريض الـذي يأكـل اضـطراراً يشبـه النـاسـك، والنِهم يشبـه الشخص الـذي يصعب إرضـاؤه، والذي يـدين نصف ملذات الحياة ويصفهـا بأنها قليلة الجـمالية. ومن الغرابة القول إن كل هذه النماذج، باستثناء ربما، النهم، تحتقر الرجل ذا القابلية السليمة، وتعتبر نفسها أسمى منه. ويبـدو لهؤلاء البشر أنه من المبتـذل أن يحبّ الناس الأكل لأنهم يشعرون بالجـوع، أو أن يحبّوا الحيـاة لأنها تقدِّم إليهم ألـواناً من المشاهد المثيرة والاختبارات الجديدة دائماً. ومن علياء خيباتهم، يرسلون نظرة ازدراء إلى الـذين يحتقرونهم لـروحهم البسيطة. في مـا خصّني شخصيـاً، لست أشاطرهم هذا الرأي البتة. إن كل خيبـة أمل هي بـالنسبة إلي مـرض يمكن أن تجعله بعض الظروف، حقاً، محتوماً. ولكن، إذا ما حدث ذلك، ينبغي علاجـه بأسرع ما يمكن، فلا يُنظر إليه على أنه ظاهرة تفوق الحكمة.

لنفرض أن شخصاً ما يحبّ الفريز، وشخصاً آخر لا يحبّ الفريـز، فبماذا يتفوّق هذا الأخير؟ ليس ثمة دليل ملموس ومـوضوعي عـلى أن الفريـز جيد أو رديء. بـالنسبة إلى من يحبـه، هو جيـد؛ وبالنسبـة إلى من لا يحبّـه، هـو ليس كذلك. غير أن من يحبّه يشعر بسرور لا يعرفه الآخر، ومن هـذه الناحيـة، فإن حياته مستحبّـة أكثر، وهـو متكيّف أكثر مـع العالم الـذي ينبغي للأثنـين العيش فيه. وما هو صحيح في هذا المثل التافه هـو صحيح أيضـاً بالنسبـة إلى القضايـا

الأهم إن من يحبّ مشاهدة مباريات كرة القدم يتفوّق في ذلك على من لا يحبّ ذلك. وكذلك من يحبّ المطالعة هو أكثر تفوّقاً على من لا يحبها، وهو متفوق أكثر فأكثر لأن فرص القراءة متوفرة أكثر من فرص مشاهدة لعب كرة القدم. بقدر ما تزداد موضوعات اهتمام الشخص، تزداد الفرص ليكون سعيداً، وتقلّ فرص كونه تحت رحمة القدر، ذلك بأنه إذا فقد موضوع اهتمام ما، بوسعه أن يعوّض بموضوع اهتمام آخر. إن الحياة لأقصر من أن نسمح لأنفسنا بالاهتمام بكل شيء، ولكن علينا الاهتمام بكل الأمور الضرورية لملء يومنا.

نحن جميعاً ميّالون إلى داء المنطوي على ذاته، الذي لدى رؤيته الأنواع الألف التي يعرضها العالم أمام ناظريه، يحوّل نظره ويتأمل، وحسب، الفراغ في نفسه. ولكن لا تحسب أن هناك شيئاً من السمو في تعاسة المنطوي على ذاته.

كان هناك، مرة، مكنتان لصنع المقانق، مصنوعتان بأناقة لتحويل لحم البقر إلى مقانق شهية. أولى هاتين المكنتين حافظت على حماستها بالنسبة إلى البقر، وانتجت مقانق لا يحصى لها عدد؛ والثانية قالت بينها وبين نفسها: «أي أهمية يمكن أن تمثلها البقرة بالنسبة إليّ؟ إن آليتي الخاصة لأكثر تشويقاً وأروع كثيراً من أي بقرة». ورفضت البقرة، وراحت تدرس آليتها الداخلية. وتوقفت هذه عن العمل إذ حُرمت من غذائها الطبيعي، وبقدر ما تعمّقت في دراستها، راحت تبدو لها فارغة وسخيفة. كل هذه الآلة المصفّاة التي استُخدمت لإنتاج المقانق اللذيذة توقفت، ووجدت صعوبة في معرفة ما كان وجه استعمالها.

تشبه مكنة صنع المقانق الثانية الشخص الذي فقد كل لذة في العيش، في حين أن الأولى تشبه الشخص الذي احتفظ بها. والفكر هو آلة غريبة بوسعها القيام بالتركيبات الغريبة جداً بالمواد التي تُقدّم إليها، ولكنها من دون المواد الآتية من الخارج، تبقى عاجزة. على نقيض مكنة المقانق، ينبغي للفكر استخدام مواده لنفسه لأن الأحداث لا تغدو اختبارات إلا بفضل الاهتمام الذي نبديه فيها: إذا لم تكن تهمنا، فلا يكون لها أي فائدة. لذا، فإن الإنسان

المنطوي على نفسه لا يجد شيئاً جديراً باهتمامه، في حين أن الشخص الذي يتجه اهتمامه إلى الخارج يستطيع أن يجد في نفسه، في اللحظات النادرة التي يتأمل فيها نفسه، تنوّعاً من العناصر الأكثر اختلافاً والأغرب، مشرَّحة ومعاد تركيبها في موضوعات رائعة أو مثقّفة.

كثيرة هي مظاهر لذة العيش. ربما نتذكّر أن شرلوك هولمز تناول قبّعة عثر عليها في الشارع. فتفحّصها بضع دقائق، وقرّر أن صاحبها ساقط لأنه مدمن على الكحول، وأن زوجته لم تعد تحبه كما في السابق. إن الحياة لا يمكن أن تبدو مملة أو مزعجة بالنسبة إلى امرىء تقدّم إليه أشياء يصادفها مثل هذا الثراء بالاهتمامات. فكّر في كل الأمور التي تستطيع ملاحظتها خلال نزهة في الريف. الواحد منا يمكنه الاهتمام بالعصافير، والآخر بالنباتات، والثالث بالجيولوجيا، والرابع بالزراعة، الخ... إن كل واحد من هذه الأشياء مثير للاهتمام إذا كان يشوقك، وفي الظروف نفسها، فإن الشخص الذي يهتم بواحد منها مهيّأ أفضل للتكيّف مع العالم أكثر ممن لا يهتمّ بشيء.

فكّر كذلك كم هي متنوعة مواقف مختلف الأشخاص تجاه أمثالهم. خلال رحلة طويلة في القطار الحديدي، لا يعير المرء رفاق السفر أي انتباه، في حين أن شخصاً آخر كان صنّفهم، وحلّل طباعهم، وقدّر ثروتهم، واستعلم، ربما، حتى عن القصص السرية لدى الكثيرين منهم. إن الناس يتباينون سواء في ما يشعرون به تجاه الآخرين، أو في ما يلاحظونه بالنسبة إليهم. هناك أناس يجدون الجميع تقريباً مزعجين، وهناك آخرون يُنمون بسرعة وبسهولة مشاعر ودّية تجاه أولئك الذين يتعرّفون إليهم، ما لم يكن هناك أسباب خاصة للإحساس بمشاعر أخرى. فكّر مجدداً في الأسفار: هناك أناس ينزلون دوماً في أفضل الفنادق، في كل البلدان التي يزورونها، ويتناولون ألوان الطعام ذاتها التي يتناولونها في منازلهم، ويتناقشون في الموضوعات نفسها التي هي موضوع الحديث في منازلهم حول المائدة. ولدى عودتهم، سيكون الشعور الوحيد الذي يحسّون به تنفّس الصعداء للتفكير في أنهم انتهوا من التنقّل المكلف.

وآخرون، يلاحظون أيّان ذهبوا، ماذا هناك من خصائص، ويتعرّفون إلى أناس يمثّلون البلاد تماماً، ويراقبون كل ما يمكن أن يكون ذا أهمية تاريخية أو اجتماعية، ويتناولون ألوان الطعام الخاصة بالبلاد، ويطّلعون على تقاليدها ولغتها، ويعودون إلى بلادهم بمؤونة جديدة من التأملات المستساغة من أجل سهرات الشتاء.

في كل هذه الحالات المختلفة، يتميّز الشخص الذي يحبّ الحياة من ذاك الذي لا يحبّها. إنه يعرف كيف يجني حتى فائدة من الاختبارات غير السارة. أنا مسرور لأنني استطعت تنشّق رائحة جمهور صيني، وقرية صقلّية، على الرغم من أنني لا أستطيع القول ان سروري كان كبيراً في تلك اللحظة. إن الأشخاص ذوي الروح المغامرة يجنون السرور من غرق سفينة، ومن فتنة، ومن هزة أرضية، ومن حريق، ومن كل أنواع الاختبارات المكدِّرة، ما دامت لا تسيء إلى الصحة.. خلال إحدى الهزات الأرضية، يقولون بينهم وبين أنفسهم: «إذاً، هذه هي الهزة الأرضية»، وتراهم يسرّون لأن معرفتهم بالعالم قد ازدادت ثراءً بهذا الحدث الجديد. ومن غير الإنصاف القول إن هؤلاء الأشخاص ليسوا تحت رحمة القدر، ذلك بأنه إذا اتفق أن ساءت صحتهم، فإنهم سيفقدون، ربما، لذة عيشهم في الوقت نفسه، مع أن ذلك ليس مؤكداً تماماً. عرفت أشخاصاً ماتوا موتاً بطيئاً، وقد احتفظوا، مع ذلك، بتذوّقهم الحياة حتى اللحظة الأخيرة. بعض الأمراض يحطّم هذا التذوّق، وبعضها الآخر لا يفعل ذلك. أنا لا أدري إذا كان بوسع علماء الكيمياء الحياتية الآن التمييز بين النوعين. ربما، عندما تحرز الكيمياء الحياتية تقدماً كبيراً، يغدو في وسعنا تناول ألواح تمنحنا اهتماماً بكل شيء، ولكن حتى الآن، نحن مضطرون إلى الاعتماد على مراقبة جدّ عملية للحياة لنفهم ما هي الأسباب التي تُكره بعض الناس على الاهتمام بكل شيء، وأي أسباب تُكره الآخرين على عدم الاهتمام بشيء.

إن الحماسة الحيوية هي أحياناً عامة، وأحياناً متخصصة. وربما ارتدت أشكالاً خاصة جداً. إن قراء جورج بورو (عالم لغوي انكليزي، نشر دراسات

حول لغة الغجر، وروايات حول حياة البوهيميين؛ عاش بين ١٨٠٣ ـ ١٨٨١)، ربما سيتذكّرون شخصية روماني راي، الذي فقد زوجته التي كان شديد التعلُّق بها، وبدت له الحياة، لفترة من الزمن، فارغة وكئيبة. إلا أنه صرف اهتمامه إلى النقوش الصينية، على أباريق الشاي وعلى صناديق الشاي، وبواسطة كتاب في قواعد اللغة الفرنسية ـ الصينية (بعد أن درس الفرنسية لهذه الغاية)، توصّل شيئاً فشيئاً إلى فك رموز هذه النقوش، واكتسب بهذه الطريقة اهتماماً جديداً بالحياة، على الرغم من أنه لم يستخدم معرفته اللغة الصينية استعمالاً آخر.

عرفت أُناساً كانوا مستغرقين كلياً في جهودهم من أجل التوثُّق بالمستندات حول الغنوصية (نزعة فلسفية تهدف إلى إدراك كنه الأسرار الربّانية)، وأناساً آخرين اهتمامهم الرئيسي جمع المخطوطات والنسخ الأولى من مؤلفات توماس هوبز (فيلسوف إنكليزي تجريبي وعقلاني، عاش بين ١٥٨٨ و ١٦٧٩، وهو مؤلف «ليفييثان»). من المستحيل حقاً أن يتكهّن المرء سلفاً بما قد يهمّ شخصاً ما، ولكن معظم الناس قادرون على الإحساس باهتمام كبير بشيء أو بآخر، وما إن يوقَظ هذا الاهتمام، حتى لا تعود حياتهم مملّة. إن الاهتمامات الخاصة جداً هي، مع ذلك، ضمانة أقلّ تأكيداً للسعادة من الحماسة العامة للحياة، ما دامت بالكاد تستطيع أن تملأ كل حياة الإنسان؛ ومن جهة أخرى، هناك دوماً خطر من أن ينتهي إلى معرفة كل ما هناك لمعرفته حول الموضوع الذي أصبح هوسه أو فكرته الثابتة.

لنتذكّر أن بين الأكلة المختلفين الذين تحدثنا عنهم، أبرزنا النَهِم الذي لم نكن مستعدين لإطرائه. وقد يعتقد القارىء أن المتحمس الذي أشدنا به، لا يختلف في شيء محدَّد عن النَهِم. وقد آن لنا أن نحدّد أكثر فأكثر التمييز بين هذين النوعين.

كان القدامى، كما يعلم الجميع، يعتبرون الاعتدال إحدى الفضائل الرئيسية. وبتأثير الرومنطيقية والثورة الفرنسية، تمَّ التخلي عن هذا المفهوم من

جانب الكثيرين، وراح الناس يعجبون بالانفعالات التي لا تقاوَم، حتى لو كانت، مثل انفعالات أبطال لورد بايرون، هدّامة وضد المجتمع. وكان الفلاسفة القدامى، مع ذلك، على صواب. ففي الحياة المتناغمة، ينبغي أن يوجد توازن بين مختلف الأنشطة، ولا ينبغي المبالغة في أي منها إلى حدّ نبذ الأنشطة الأخرى. فالنَهِم يضحّي بكل المسرّات الأخرى في سبيل المذاق، وهكذا يخفّف السعادة التي يمكن أن تخصّه بها الحياة. وكثير من الانفعالات، إلى جانب الطعام، قد تصبح مفرطة كذلك. كانت الأمبراطورة جوزفين نهمة في ما يتعلّق بالملابس. في البدء كان نابوليون يسدد فواتير خياطتها، ولكنه كان في كل مرة يحتجّ بقوة. وخلص في النهاية إلى مصارحتها بأن عليها أن تتعلم الاعتدال وأنه في المستقبل لن يسدد قيمة الفواتير إلا إذا بدت له معقولة. ولما جاءت فاتورة خياطتها، لم تدرِ جوزفين طوال بضع دقائق ما العمل، ولكنها سرعان ما تصوّرت خطة. ذهبت لمقابلة وزير الحربية، وطلبت إليه تسديد فواتيرها بالمبالغ المرصودة للتسلّح. وإذ كان يعلم أن بوسعها طرده من منصبه إذا ما رفض، لبّى الطلب، وكانت النتيجة أن الفرنسيين فقدوا جنوى. تلك هي - على الأقلّ - الرواية التي يُقدّمها بعض الكتب، علماً بأنني لا أتعهد بضمان حقيقة هذه القصة. وسواء أكانت صحيحة أم خاطئة، فإنها تمثّل جيداً طرحنا ما دامت تفيد إلامَ قد يؤدي بالمرأة الشغف بالملابس إن توفّرت لها إمكانية الاستسلام إليه. إن المدمنين على الأشربة الكحولية والمغيلمين (الشبقين) هم أمثلة ظاهرة على ما سبق وذكرت.

في هذه الأمثلة، المبدأ جدّ سهل. فكل أذواقنا ورغباتنا الشخصية ينبغي أن تُعدَّل في إطار حياتنا العام. وإذا شئنا أن تنجم السعادة عن ذلك، يتعيّن ألا تتعارض مع الصحة، ومحبة أولئك الذين نحبّهم، واحترام المجتمع الذي نحيا فيه. هناك انفعالات بوسعنا الاستسلام إليها جسداً وروحاً، دون تجاوز الحدود، ولكن ليست تلك حال الانفعالات الأخرى. فالشخص المولع بالشطرنج، إذا كان عازباً وتسمح له وسائله ببعض الاستقلال، لا يحتاج إلى تقليص شغفه بأي طريقة؛ ولكن إذا كان متزوجاً وله أولاد، وإذا كانت وسائله

المادية محدودة، ينبغي له أن يفرض على نفسه قيوداً قاسية. المدمن على الأشربة الكحولية، والشَّرِه أو النَّهِم يعملان ضد مصالحهما الشخصية لأن شغفهما عائق في سبيل الصحة، ويجعلهما تعسين خلال ساعات طويلة، لقاء بضع دقائق من السرور أو اللذة.

بعض الأشياء يشكّل إطاراً ينبغي لكل انفعال منعزل أن يقوم في داخله إذا شئنا ألا يتحوّل إلى مصدر شقاء. هذه الأشياء هي الصحة، والاستمتاع بالقوى الفكرية، والدخل المادي الكافي لتأمين أدنى الواجبات الاجتماعية والأساسية، من مثل واجبات المرء تجاه زوجته وأولاده. والرجل الذي يضحّي بكل هذا من أجل شغفه بالشطرنج هو، في الأساس، منحرف مثل الشِبق. والسبب الوحيد الذي لا ندينه من أجله بقساوة كبيرة هو أنه يمثّل نوعاً نادراً جداً، وأن رجلاً موهوباً بصورة جدّ مميزة وحده قد يُجَّر بعيداً جداً بواسطة الشغف بلعبة فكرية بحتة. والصيغة الإغريقية للاعتدال تنطبق على كل الحالات. إن الشخص الذي يحب كثيراً ممارسة لعبة الشطرنج يفكّر طوال يوم عمله في اللعبة التي سيقوم بها مساءً، لسعيد، ولكن من يتخلّى عن عمله لممارسة الشطرنج يكون فاقداً فضيلة الاعتدال. يروى أن تولستوي الشاب، قبل اهتدائه، كان ينبغي أن يتسلّم الصليب العسكري لبلائه الحسن في بعض المعارك، ولكن لما أزفت لحظة تقليده الوسام هذا كان منهمكاً في لعبة شطرنج بحيث قرَّر ألا يتزحزح من مكانه. ليس لنا أن نلوم تولستوي في هذا الصدد، ذلك بأنه، ربما، لم يكن ليبالي كثيراً بتسلّم الوسام، ولكن بالنسبة إلى شخص ليس بقدره، فإن مثل هذا التصرُّف كان اعتُبر جنوناً مطبقاً.

لتحديد النظرية التي عرضناها، ينبغي لنا الاعتراف بأن بعض الأعمال الباهرة تُعتبر جد نبيلة بحيث أنها تبرّر كل التضحيات في سبيلها. فالرجل الذي يضحي بحياته في سبيل الدفاع عن وطنه لا يجوز أن يُلام إذا جرّ موته الشقاء إلى زوجته وأولاده. وذاك المنهمك في الاختبارات والتجارب التي ستكون نتيجتها اكتشافات أو اختراعات عملية كبيرة، غير ملوم بسبب الفقر الذي جعل

أسرته تعاني منه إذا كانت جهوده ستُتوَّج بالنجاح. غير أنه إذا لم ينجح قط في تحقيق الاكتشاف أو الاختراع الذي وضعه نصب عينيه، فإن الرأي العام يحكم عليه بالهوس، الأمر الذي يبدو غير منصف ما دام لا يسع أحداً مطلقاً أن يكون واثقاً سلفاً من نجاح أي مشروع. خلال الألف الأول من العهد الميلادي كان الرجل الذي يهجر أسرته ليعيش عيشة القديسين، يحظى بالتقدير الرفيع، في حين أننا نتفق في أيامنا الحاضرة، على أنه يجب أن يلبي حاجات ذويه.

أعتقد أن ثمة دوماً فارقاً سيكولوجياً عميقاً بين النَهِم والرجل الذي يتمتع بشهية سليمة. فمن يطلق العنان لشغف ما على حساب سائر الأمور التي يُشغف بها عموماً رجل لديه اضطرابات متجذِّرة عميقاً، ويحاول الهرب من الشبح. وهذا جليّ في حالة المدمن: يشرب لكي ينسى. ولو لم يكن للناس أشباح في حياتهم، لما وجدوا السُكر مستحباً أكثر من الزهد في الشرب. وكان الصيني الأسطوري يقول: «أنا لا أشرب من أجل الشرب، أنا أشرب من أجل السُكر».

إن هذا يميّز كل الانفعالات المفرطة والصادّة. نحن لا نسعى وراء اللذة في ذاتها، بل وراء النسيان. ومع ذلك، ثمة فارق كبير وفقاً لكون النسيان مطلوباً بطريقة سخيفة، أو بممارسة قوى هي في حدّ ذاتها معتبرة. فصديق بورو الذي تعلّم وحده الصينية لكي يتمكن من تحمّل فقده زوجته، كان يبحث عن النسيان، ولكنه بحث عنه ببذل نشاط ليس له نتائج مؤذية، وقد أثرى، على النقيض، ذكاءه ومعرفته. وليس ثمة ما يجب تكراره إزاء مثل هذا اللهو. وليس الأمر كذلك بالنسبة إلى الشخص الذي يبحث عن النسيان في الشرب، والمقامرة، وكل إثارة أخرى ضارّة. صحيح أن هناك حالات قصوى. ماذا نقول عن ذاك الذي يعرّض نفسه إلى المخاطر الرهيبة بالطائرات، أو على قمم الجبال لأنه فقد طعم الحياة؟ إذا كانت المخاطر التي يتعرض إليها تخدم أي مصلحة عامة، فإننا سنعجب به، ولكن إذا لم تكن تلك الحال، فإننا بالكاد نضعه فوق مرتبة المقامر أو السكّير.

تؤلف الحماسة العفوية، وليس حماسة من يبحث، وحسب، عن النسيان، جزءاً من طبيعة الكائنات البشرية، باستثناء ما تدمّره الظروف المعاكسة. الصغار يهتمون بما يرون ويسمعون؛ العالم بالنسبة إليهم غنيّ بالمستحدثات، وتراهم دوماً منهمكين بحرارة في متابعة المعرفة، ليس، بالطبع، المعرفة المدرسية، ولكن المعرفة التي تقوم على أساس اكتساب الألفة مع الأشياء التي تلفت انتباههم.

وتحتفظ الحيوانات، حتى البالغة منها، بلذة العيش شرط أن تكون في صحة جيدة. القطة التي تجد نفسها في حجرة تجهلها لن تكون مطمئنة ما لم تشمّ كل ركن من أركانها على أمل أن تكتشف في مكان ما رائحة فأرة. والرجل الذي لم يُعَاكَس قط بصورة عميقة، سيحتفظ باهتمامه الطبيعي بالعالم الخارجي. وإذا لم تكن الحال كذلك، فإنه سيجد الحياة مستحبّة، ما لم تكن حريته مقيّدة إلى أقصى حد.

إن فقدان لذة العيش في أيامنا الحاضرة مردّه في معظمه إلى تحديدات أو قيود الحرية التي هي أساسية في مفهومنا للحياة. الهمجي يصطاد عندما يشعر بالجوع، وهو بعمله هذا، يطيع دافعاً طبيعياً. والرجل الذي يذهب إلى عمله كل صباح في الساعة نفسها، مدفوع في الأساس بالدافع نفسه، أي الحاجة إلى تأمين لقمة العيش، ولكن في حالته الخاصة، فإن دافعه لا يتصرّف مباشرة ولا لحظة إحساسه به. إنه يتحرك بصورة غير مباشرة بواسطة مجرّدات أو أوهام، وأفكار، وإرادات.

ولحظة يسلك الطريق إلى عمله، لا يكون جائعاً، ما دام قد تناول فطور الصباح. كل ما يعرفه أنه سيجوع، وأن عمله هو وسيلة لتلبية هذا الجوع المحتوم. إن الدوافع غير منتظمة، في حين أن العادات، في مجتمع متحضّر، ينبغي أن تكون منتظمة. لدى الهمجيين، حتى المؤسسات الجماعية، بقدر ما هي موجودة، هي عفوية ومحرِّكة. عندما تكون القبيلة على وشك إعلان الحرب، فإن قرع الطبول يوقظ الحميّا العسكرية، وتدفع الإثارة الجماعية كل

فرد إلى النشاط المطلوب. ولكن لا يمكن أن تكون تلك حالة مؤسساتنا العصرية. عندما ينبغي أن ينطلق القطار الحديدي في ساعة محددة، يستحيل حث الحمّالين، والسائق، وعامل الإشارة بعزف موسيقى بربرية لهم. عليهم القيام بواجبهم بكل بساطة لأنه ينبغي أن يُنجز. إن مبرر عملهم أو تصرُّفهم هو غير مباشر، فهم لا يحسُّون بالدافع تجاه هذا النشاط، ولكن، وحسب، تجاه المكافأة النهائية على هذا النشاط. أشياء كثيرة في الحياة الاجتماعية تمثّل العيوب نفسها. الناس يتبادلون الحديث فيما بينهم ليس من أجل الرغبة المجردة في القيام بذلك، ولكن على أمل الإفادة من هذا التعاون. وفي كل لحظة من حياته، يضطر الإنسان المتحضّر إلى الصراع ضد الصعوبات التي تحملها القيود المفروضة على دوافعه. فإذا ما أحس بقلبه سعيداً، فليس عليه أن يغنّي أو يرقص في الشارع، وإذا أحس بأنه حزين، فإنه لا يستطيع الجلوس على حافة الرصيف والبكاء لأنه قد يزعج المارة. كل ذلك يجعل الاحتفاظ بلذة العيش أمراً أصعب، لأن القيود المتواصلة تميل إلى خلق التعب من السأم. وصحيح أن مجتمعاً متحضّراً غير ممكن دون ضغوط كبيرة تُفرض على الدوافع العفوية، ما دامت هذه الدوافع العفوية لا تستطيع أن تُحدث سوى الأشكال الأكثر بدائية في التعاون الاجتماعي، وليس هذه الأشكال الأكثر تعقيداً التي يتطلبها التنظيم الاقتصادي في أيامنا هذه. وللتغلب على هذه العقبات وإحداث الحماسة، ينبغي أن يكون الإنسان في صحة جيدة، ويتمتع بطاقة لا ينضب لها معين، أو إذا كان محظوظاً، أن يكون له عمل يوفّر له سروراً حقيقياً.

لقد تحسّنت الصحة العامة في كل البلدان المتحضرة في خلال المائة سنة الأخيرة، بقدر ما تستطيع الإحصاءات أن تدلل؛ ولكن من الأصعب قياس الطاقة، وأشك كثيراً في أن الطاقة الجسدية، في لحظات الصحة الجيدة، تكون أكبر منها في السابق. وهذه القضية هي قضية اجتماعية إلى حدّ كبير، وعلى ذلك، لا أود مناقشتها في هذا الباب. ومع ذلك، فإن هذه القضية تمثّل ناحية شخصية وسيكولوجية سبق أن ناقشناها في الفصل الذي عالج التعب. هناك أناس يحتفظون بذوقهم في الحياة على الرغم من العوائق في الحياة المتحضّرة،

وبوسع الكثيرين القيام بالعمل نفسه فيما لو تحرروا من النزاعات السيكولوجية الداخلية التي ينفقون عليها قسماً كبيراً من طاقتهم. إن الحماسة تتطلب من الطاقة أكثر مما يكفي للعمل الضروري، وهذا يتطلّب، في المقابل، سيراً أو عملاً دون صدمات مع الآلية السيكولوجية. وسأتكلم بتفاصيل أكثر في الفصول التالية على الحالات التي تؤمّن سيراً لطيفاً لهذه الآلية السيكولوجية.

لقد انخفض كثيراً تذوُّق الحياة لدى النساء ـ اليوم أقل من الماضي، ولكن إلى درجة كبيرة بعد ـ بسبب مفهوم خاطىء للمحترمية (كون الشيء محترماً أو جديراً بالاحترام). كان يُعتقد أنه لا يليق بالنساء إظهار اهتمام كبير بالرجال، أو إظهار الكثير من الحيوية علناً. وبتعلّمهن عدم الاهتمام بالرجال، غالباً جداً ما كنَّ يتعلّمن عدم الاهتمام بأي شيء، باستثناء طريقة ما للتصرّف بكرامة. إن اعتمادهن موقف التعطل التام والخوف من الحياة، يعني اعتمادهن موقفاً معادياً بوضوح للذة العيش، وتشجيع الاهتمام بشخصهن بالذات، وهو أمر نموذجي للنساء الرفيعات الاحترام، لا سيما إذا لم يكنَّ مثقّفات.

إنهن لا يهتممن بالرياضة مثلما يفعل الرجال العاديون، وهن لا يبالين بالسياسة؛ وبالنسبة إلى الجنس الخشن، تراهن يتخذن موقفاً متحفظاً ولكنه متصنّع، وتجاه سائر النساء يتخذن موقفاً مقنَّعاً يقوم على الاقتناع بأنهن أقلّ احتراماً منهن. وهن يعتززن بأنهن يقفن على الحياد. أودّ القول ان فقدان الاهتمام بمثيلاتهن يبدو لهنّ من قبيل الفضيلة. وليس في الوسع أن نحفظ لهنّ ضغينة في هذا المجال؛ إنهن لا يقمن بغير القبول بالأخلاقيات السائدة التي تعلّمتها النساء خلال آلاف السنين. وهن، مع ذلك، ضحايا يستحققن الرثاء، ضحايا نظام من الضغوط التي لم يدركن الظلم فيه. بالنسبة إلى هؤلاء النساء، كل ما هو حقير يبدو خيراً، وكل ما هو سخيٌّ يبدو شرّاً. وفي وسطهن الاجتماعي الشخصي، يفعلن كل ما يسعهن للقضاء على الغبطة؛ وفي مجال السياسة، يملن إلى التشريع الزجري أو القمعي. ومن حسن الطالع أن هذا النوع في طريق الزوال، ولكنه ما يزال منتشراً أكثر مما تحسب الأوساط المتحررة. ونصيحتي إلى

كـل الذين يشكّـون في صحة مـا ذكرت، أن يقـوموا بجـولة عـلى بعض الغرف المفروشة بحثاً عن مسكن، ويراقبـوا مؤجرات الغـرف اللواتي صادفـوهن خلال جـولتهم. سيَلاحـظون أنهن يحيين في مفهـوم التفوّق النسـائي الـذي ينـطوي، كعنصر أسـاسي، عـلى تحـطيم كـل لـذة العيش، وسـيرون مـدى صغـر قلبهنّ وفكرهنّ وضمورهما. إن مزايا الرجـل والمرأة، إذا اعتُـبرت قيمتها الحقيقيـة، لا تختلف فيما بينها، أو على الأقلّ لا تمثّل الفارق الذي رسّخه التقليد فينا. بالنسبة إلى المرأة، كما الرجل، لذة العيش هي سرّ السعادة والرفاه.

١٢

المحبّــة

إن أحـد الأسباب الـرئيسية لانعـدام الحماسـة هو شعـور المرء بـأنـه ليس محبوباً، بينما على العكس، يشجع الشعور بـأنه محبـوب على الحُميَّـا أكثر من أي شيء آخـر. ولأسباب مختلفـة، قد يكـون للإنسـان الشعور بـأنه ليس محبـوبـاً. ويمكنه أن يعتبر نفسه مخلوقاً مرعباً جداً بحيث لا يستطيـع أحد أن تكـون لديـه الرغبة في حبّه. لقد اضطرّ، في طفولته أن يعتاد تلقّي محبّة أقلّ ممـا هو نصيب سائر الأولاد، أو ربما هو، في الواقع، امـرؤ لا يحبه أحـد. ولكن في هذه الحـالة الأخيرة، يكمن السبب، على الأرجح، في فقدان الثقـة بسبب مصائب حـدثت في الطفولة. والإنسان الذي لا يشعر بأنه محبوب، يمكنه، بالتالي، اعتماد مواقف عدة مختلفة. قد يبذل جهوداً يائسـة لكسب المحبّة، عـلى الأرجح بـأعمال طيبـة استثنائية. في هذا المجال، قليلة هي فرص نجاحه، ذلك بأن سبب طيبته هـذه يكتشفها بسهولة أولئك الذين يستفيدون، والطبيعة البشرية مبنية بطريقة تشهـد

على المحبة بحماسة أكثر تجاه أولئك الذين يبدون أنهم قلما يطلبونها. لذا، فإن الشخص الذي يجتهد في بلوغ المحبة بواسطة أعمال سخية يغدو خائباً وهو يستشعر العقوق البشري. فلا يخطر بباله مطلقاً أن المحبة التي يحاول شراءها لها من القيمة أكثر من الامتيازات المادية التي يقدمها في المقابل، ومع ذلك، فإن وعي هذه الحقيقة يلهمه كل أعماله ونشاطاته.

بوسع شخص آخر، عندما يرى أنه ليس محبوباً، أن يحاول الانتقام من العالم، إما بإشعال نار الحروب أو الثورات، وإما بالكتابة بريشة مغموسة بالحقد، كما يقول العميد دجوناثان سويفت. هذا هو ردّ فعل بطولي تجاه الشدّة، ويتطلّب قوة إرادة كبيرة بما فيه الكفاية تتيح للإنسان أن يقارن نفسه بالعالم بأسره. قليلون هم الأشخاص الذين يسعهم بلوغ هذه العظمة؛ إذا هم شعروا أنهم ليسوا محبوبين، فإن أكثرية الرجال والنساء تتورط في أمل خجول تخفّفه، وحسب، أضواء عابرة من الغيرة والخبث. هؤلاء الأشخاص، على العموم، ينتهي بهم الأمر إلى العيش منطوين على أنفسهم، ويمنحهم فقدان المحبة شعوراً بعدم الأمان يحاولون الفرار منه بترك العادة تسيطر عليهم. ذلك بأن أولئك الذين يصبحون عبيداً لروتين ممل يحرّكهم إجمالاً الخوف من عالم مثلج والشعور بأنهم لن يصطدموا به إذا ما تبعوا طريق كل يوم.

أولئك الذين يجابهون الحياة بشعور من الطمأنينة هم أكثر سعادة ـ على الأقلّ ما دام شعورهم بالثقة لا يوردهم موارد التهلكة ـ من أولئك الذين يجابهونها بشعور الريبة والحذر.

وفي كثير من الحالات، وليس في كل الحالات، يساعد الشعور بالأمن الإنسان على تجنّب المخاطر التي يرزح إنسان آخر تحتها. إذا أنت تنزهت فوق هوة أو على لوح ضيّق، فإن فرص سقوطك إذا ركبك الخوف ستكون أكثر حتماً مما لو كنت لا تخشى شيئاً. وكذلك هي الحال في ما يتعلّق بالمواقف تجاه الحياة. الإنسان الشجاع قد يجد نفسه أمام كوارث مفاجئة، ولكن في حين يجد الجبان

نفسه مرهقاً بالمصائب، فمن المتحمل أن يخرج الشجاع سليماً من مواقف خطرة كثيرة.

وترتدي هذه الثقة الجدّ عملية مظاهر متعددة؛ الواحد واثق من نفسه في الجبل، والآخر هو كذلك في البحر، والثالث، هو كذلك في الجو. ولكن الاطمئنان تجاه الحياة، على وجه العموم، مصدره، بصورة خاصة، من كوننا اعتدنا أن نتلقّى قدراً من المحبة التي نحن بحاجة إليها حتماً. وفي هذا الفصل، أنوي التحدُّث عن هذه العادة الفكرية، المعتبرة مصدراً للذة العيش.

إن هذه المحبة التي نتلقّى، لا تلك التي نمنح، هي التي توفّر هذا الانطباع بالأمن، على الرغم من أن هذا الانطباع ينشأ من محبة متبادلة. وبحصر المعنى، إن ما يؤدي إلى هذه النتيجةِ ليس المحبة وحدها، بل الإعجاب أيضاً. فالأشخاص الذين مهنتهم تأمين الإعجاب العام، من مثل الممثلين، والدعاة، والمحاضرين، والسياسيين، يتوصّلون إلى الاعتماد أكثر فأكثر على النجاح. فإذا ما نالوا نصيبهم من إطراءات الجمهور، تمتلىء حياتهم غبطة؛ وإذا لم ينالوا ذلك، فإنهم يغدون غير راضين وينطوون على أنفسهم. إن الإرادة الطيبة المنبعثة من الجمهور، تفعل فيهم، مثلما تفعل في الآخرين المحبة الأكثر تكثيفاً الصادرة عن عدد صغير. فالطفل المحبوب من والديه يتقبّل محبتهما كما لو كانت قانوناً طبيعياً. إنه لا يفكّر فيها كثيراً، علماً بأنها ضرورية لسعادته. إنه يفكّر في العالم، وفي المغامرات التي يصادفها، وفي تلك التي هي أكثر روعة، والتي سيصادفها عندما يكبر. غير أنه وراء كل هذه الاهتمامات الخارجية، يختفي الشعور بأنه سيكون محمياً من الكارثة بفضل محبة والديه. والطفل المحروم، لسبب أو لآخر، من هذه المحبة، سيصبح حتماً حيياً ووجلاً، ومستعداً للخوف من كل الأشياء، والرثاء لمصيره، ولن يكون بمقدوره مجابهة العالم بروح مرحة ومغامِرة. هذا الطفل، سيشرع، باكراً جداً، في تأمّل الحياةِ، والموت، والمصير البشري. ويغدو منطوياً على نفسه، وبما أنه بدأ بكونه كئيباً، فإنه ينتهي إلى البحث عن التعزيات غير الحقيقية في أحد الأنظمة الفلسفية أو اللاهوتية. إن

العالم اختلال حقيقي تتعاقب فيه باضطراب الأمور السارة والمكدِّرة. والرغبة في صنع نظام أو رسم مفهوم منه، ليست في الأساس إلا نتيجة الخوف، وليست في الحقيقة إلا نوعاً من الخلاء (خوف مرضي من الأرض والفضاء)، أو الخوف من المساحات المكشوفة. الطالب الخجول يشعر بالطمأنينة وهو داخل جدران غرفة درسه الأربعة. فإذا ما توصّل إلى الاقتناع بأن العالم منظّم بطريقة مشابهة، فإنه سيشعر بأنه محميّ كذلك وهو يغامر في سلوك الطرقات. مثل هذا الشخص لو تلقّى محبة أقلّ، لكانت خشيته من العالم الحقيقي أقلّ، ولما اضطر إلى صنع عالم مثالي يتخذ مكانه بين معتقداته.

غير أنه ليس كل محبة تنجح في التشجيع على روح المغامرة. ينبغي أن تكون المحبة المُغدقَة نفسها متينة أكثر منها وجلة، وينبغي أن ترغب في حمل الكمال إلى هدفه بدلاً من الطمأنينة، ولكن لا ينبغي أن تكون، من جهة أخرى، لا مبالية بالطمأنينة. إن الأم أو المربية الوجلتين اللتين لا تفتآن تحذّران أولادهما من المخاطر الممكنة دوماً، واللتين تعتقدان أن كل كلب سيعضّ، وأن كل بقرة هي ثور، قد يولّدان فيهم جبانة شبيهة بجبانتهما، وقد تجعلانهم يشعرون أنهم ليسوا في أمان إلا إذا كانوا إلى جانبهما. وبالنسبة إلى الأم التي تكون غريزة التملك لديها متطورة إلى درجة مفرطة، فإن هذا الشعور من جانب قد يكون مستحباً جداً: بوسعها أن تفضّل أن يعتمد عليها بدلاً من أن يكون بوسعه مجابهة العالم. في هذه الحالة، سيكون موقف ابنها، على المدى الطويل أكثر انتقاداً فيما لو لم يكن محبوباً على الإطلاق. الولد يميل إلى أن يحتفظ طوال حياته بالعادات الفكرية المكتسبة في سنه المبكرة. وكثيرون عندما يقعون في الحب، يطلبون من الحب أن يكون ملاذاً ضد العالم حيث يكونون واثقين من أنهم يحظون بالإعجاب، بينما هم ليسوا مثار الإعجاب، ويحظون بالإطراء، بينما هم ليسوا جديرين بالإطراء. والمنزل بالنسبة إلى الكثيرين، هو ملاذ ضد الحقيقة. خجلهم وخوفهم يجعلانهم يقدّرون رفيقة تلطّف أحاسيسهم. وهم يطلبون إلى زوجاتهم ما حصلوا عليه في السابق من أم قليلة الفطنة، ومع ذلك تراهم يدهشون إذا ما اعتبرتهم زوجاتهن أطفالاً كباراً.

ليس من السهل مطلقاً تعريف المحبة الأكثر تقديراً، ما دامت، بداهة، تتضمّن عنصراً معيّناً من الحماية. نحن لسنا لا مبالين بالنسبة إلى جراح الذين نحبّهم. وأعتقد، مع ذلك، أن الخوف من التعاسة بما هي نقيض للتعاطف الذي يُبدى إزاء التعاسة الواقعة حقاً، ينبغي أن يمثّل دوراً صغيراً جداً ما أمكن في كل محبّة. والخوف الذي قد يصيب الآخرين بالكاد يُفضَّل على الخوف الذي نستشعره بالنسبة إلينا شخصياً. وفضلاً عن ذلك، فإنه غالباً ما يفيد في تصنيع فكرة التملُّك. ويرجو الناس، وهم يوقظون الخوف لدى الآخرين، أن يكسبوا لأنفسهم سلطاناً أو تأثيراً أكمل. وهذا حتماً أحد الأسباب التي من أجلها يفضّل الرجال النساء الحيّيات لأنهم، بحمايتهن، يتوصلون إلى امتلاكهن. إن درجة الاهتمام التي يمكن أن يكون الشخص هدفاً لها، دون أي خطر على شخصه، تتوقف على طبعه: الشخص المقدام والمغامر قد يتحمل دلائل اهتمام عديدة دونما أي خطر، في حين أن الشخص الخجول ينبغي أن يُشجَّع على انتظار القليل جداً في هذا المجال.

للمحبَّة التي يتلقّاها المرء وظيفة مزدوجة. حتى الآن لم نذكرها إلا بالنسبة إلى علاقاتها بالخوف، ولكن لها في حياة المراهق، غاية أكثر أهمية من الناحية البيولوجية، أي: التأهُّب للأبوة أو للأمومة. فالرجل أو المرأة يكونان سيّئي الحظ إذا ما عجز أحدهما عن الإيحاء بالحب إلى الجنس الآخر، ما داما هكذا محرومين من أكبر المباهج التي قد تقدمها إليهما الحياة. وعاجلاً أو آجلاً، لن يفوت هذا الحرمان تدمير كل حماسة، وإحداث الانكفاء على الذات. وغالباً جداً، مع ذلك، تكون التعاسات التي حدثت في الصبا، عيوباً في الطبع، تغدو، في ما بعد، مسؤولة عن الإخفاق في الحب. وقد يكون ذلك أصحّ في ما يتعلّق بالرجال أكثر من النساء؛ ذلك بأن النساء، عموماً، يملن إلى حب الرجال من أجل مظهرهم. في هذا الصدد، ينبغي ملاحظة أن الرجال يُظهرون أنفسهم أدنى من النساء لأن المزايا التي يحبونها في الجنس الآخر هي، في مجموعها، مرغوبة أقلّ من تلك التي تحبها النساء في الرجال. أنا لست متأكداً تماماً، مع ذلك، انه أسهل اكتساب طبع حسن بدلاً من مظاهر مستحبّة؛ على

أي حال، إن وسائل اكتساب هذه المظاهر المستحبَّة مفهومة أكثر ومتابَعة بكل حماسة من النساء مما هي الوسائل المتاحة للرجال لاكتساب طبع حسن.

تحدَّثنا حتى الآن عن المحبة التي غايتها الشخص. وأودّ التحدُّث الآن عن المحبة التي يمكن الشخص أن يمنحها. وهذه كذلك ترتدي مظهرين اثنين أحدهما هو، ربما، التعبير الأكثر أهمية عن لذة العيش، في حين أن الآخر ليس سوى مظهر للخوف. ذلك لا يثير فيَّ إلا الإعجاب، بينما هذا هو، على أحسن حال، عزاء أو مؤاساة. في طقس جميل، إذا أنت جانبت في سفينة ساحلاً رائعاً، وتأملت بإعجاب الأرض، فإن منظرها يمنحك غبطة كبيرة. هذا السرور مبعثه، وحسب، من رؤية الحقيقة الخارجية، وليس لها أي علاقة بأي حاجة، يائسة ذاتية. وعلى النقيض، إذا غرقت سفينتك، ورحت تتقدّم سباحة شطر اليابسة، فإنك تشعر تجاه الساحل بنوع جيد من الحب: إنه يمثّل الأمان ضد الأمواج، ويصبح جماله أو بشاعته قضية ثانوية بحتة. إن المظهر الأرفع للمحبة يقابل شعور الإنسان الذي تكون فيه سفينة في أمان، والمظهر الثاني يقابل شعور السابح الغريق. المحبة الأولى ليست ممكنة إلا إذا شعر الإنسان أنه في أمان، أو على الأقلّ، إذا بدا لا مبالياً بالمخاطر التي ترهقه؛ والثانية يسبِّبها الشعور بالخوف. والشعور الذي يتسبّب عن الخوف هو شخصي أو ذاتي وأناني أكثر من الآخر، لأن الشخص المحبوب مقدَّر من أجل الخدمات المقدَّمة، وليس من أجل مزاياه الجوهرية. ومع ذلك، ليس في نيّتي الإيحاء بأن هذه المحبة لا يمكن أن تمثّل أي دور شرعي في الحياة. الواقع أن كل أنواع المحبة الحقيقية تقريباً تتضمّن خليطاً من هذين النوعين من المحبة، وبقدر ما يسع المحبة الكفاح بفعالية ضد الشعور بالخوف، فإنها تمنح الإنسان مجدداً القدرة على الاهتمام ثانية بالعالم، الذي يعجز عنه في لحظات الخوف والخطر.

ولكن، مع الاعتراف بالدور الذي ينبغي أن تمثّله هذه المحبة في الحياة، يتعيّن علينا، مع ذلك، القول إنها من النوع الأدنى من الآخر، طالما أنها تعتمد على الخوف (والخوف شرّ)، وكذلك لأنها أنانية. وفي المحبة الأكثر رفعة، يرجو الإنسان أن يجد ثانية السعادة بدلاً من الفرار من تعاسات باتت قديمة.

إن المحبة الأكثر رفعة هي تبادل حيوية؛ كل واحد يتلقّى المحبة بسرور، ويمنحها دون ما جهد، وكل واحد يجد العالم بأسره أكثر تشويقاً بفضل هذه السعادة المتبادلة. وبالمقابل، هناك محبة أخرى، وهذه مألوفة كثيراً، يمتصّ فيها المرء حيوية الآخر، ويتلقّى ما يُعطاه ولكنه لا يمنح أي شيء بالمقابل. هناك أناس مفعمون بالحيوية ينتمون إلى هذا النوع من مصّاصي الدماء. إنهم يغتذون من المادة الحيوية في الضحية بعد الضحية، ولكنهم، وهم ينجحون ويصبح لهم أهمية، فإن أولئك الذين يتطفّلون عليهم يشحبون، ويغدون ممسوحين وباهتين. هؤلاء لا يرون في الآخرين سوى وسيلة لبلوغ غاياتهم، ولا يعدّونهم مطلقاً غاية في حدّ ذاتهم. في الأساس، إنهم ليسوا مهتمين بهؤلاء الذين يحسبون حتى تلك اللحظة أنهم يحبونهم؛ إنهم يسعون وحسب وراء المثيرات لأنشطتهم الشخصية، وهي أنشطة، ربما غير شخصية. ومن الثابت أن ذلك مصدره عيب في طبيعتهم، ولكن ليس سهلاً العثور على مصدر هذا العيب، أو معالجته. وغالباً ما يتوقف ذلك على طموح مفترس له جذوره، على ما أعتقد، في مفهوم ضيّق بالنسبة إلى السعادة البشرية المفرطة.

والمحبة، المعتبرة اهتماماً مخلصاً يكنّه شخصان أحدهما للآخر، ليس، وحسب، كوسيلة لتوفير السعادة للآخر، ولكن بالأحرى كمشاركة في ما بين اهتماماتهما المشتركة، هي أحد العناصر الأهم للسعادة الحقيقية، وذاك الذي يُحبس فيه الأنا بإحكام في جدران فولاذية، يجعل كل ثراء في المحبة مستحيلاً، وحتى إذا نجح في عمله، فإنه يفقد أفضل ما يسع الحياة أن تقدّمه إليه. والطموح الذي يستبعد المحبة من مجال نشاطه هو، عموماً، نتيجة حقد أو ضغينة تجاه الجنس البّشري، ناجمين عن التعاسات التي حدثت في الصبا، والظلامات المكابَدة في ما بعد في الحياة، أو عن كل الأسباب الأخرى التي تقود إلى هوس الاضطهاد. فالأنا القويّ جداً سجن ينبغي للإنسان أن يهرب منه إذا أراد الاستمتاع كلياً بخيرات هذا العالم.

وكون الإنسان قادراً على المحبة الحقيقية، هو طابع الشخص الذي هرب

من سجن أناه. لا يكفي تلقّي المحبة: المحبة التي تُتلقّى ينبغي أن تحرّر المحبة التي يجب أن تُغدق، وهنا، وحسب، حيث توجد الاثنتان في نِسب متساوية، تحقّق المحبة أفضل إمكانياتها.

إن العقبات السيكولوجية والاجتماعية التي تتعارض مع تفتُّح المحبة المتبادلة هي شرّ كبير شكا منه العالم دوماً وما يزال يشكو. الناس بطيئون في منح إعجابهم خوفاً من أن يُساء وضع هذا الإعجاب؛ إنهم بطيئون في التدليل على محبتهم خوفاً من أن تجعل المحبة الأشخاص الذين تتناولهم، أويجعلهم عالم قاسٍ يتألمون. الحذر موصى به باسم الأخلاق والحكمة المجتمعية، وينجم عن ذلك خمود السخاء وروح المغامرات في ما خصّ المحبة. كل ذلك يميل إلى إيجاد الخوف والحقد تجاه البشرية، ذلك بأن معظم الناس لا يصادفون في الحياة ما هو ضرورة أساسية، وفي تسع حالات من عشرٍ، شرط لا غنًى عنه للموقف السعيد والمنفتح تجاه العالم. لا ينبغي الاعتقاد بأن الذين نسمّيهم لا أخلاقيين هم متفوّقون في ذلك على كل الذين ليسوا كذلك. في العلاقات الجنسية، ليس ثمة ما يمكن تسميته محبة حقيقة، وغالباً ما يكون هناك عداوة أساسية. كل واحد يحاول ألا يستسلم، وكل واحد يحتفظ بعزلته الأساسية، وكل واحد يبقى سلبياً، وبالتالي عقيماً. في مثل هذه الاختبارات، ليس ثمة قيم أساسية. أنا لا أقول إنها ينبغي أن تُتجنّب بعناية ما دامت الأعمال المكتسبة بهذه الغاية ستزعج، على وجه الاحتمال، أيضاً المناسبات التي قد تولد فيها محبة أكثر تقديراً وعمقاً. ولكنني أدعم الفكرة القائلة إن العلاقات الجنسية الوحيدة التي لها قيمة حقيقية هي تلك التي ليس فيها تحفّظ، وحيث تمتزج الشخصية الكاملة لكل واحد في شخصية جديدة مشتركة. ومن بين كل أشكال الحذر، لعلّ الحذر في الحب هو الشكل الأكثر تدميراً بالنسبة إلى السعادة الحقيقية.

١٣

الأســرة

من بـين كل المؤسسـات التي أورثنـا إيـاهـا المـاضي، تبقى الأسرة الأكـثر فوضى والأكثر تهدّماً. إن محبة الأهل لأولادهم، ومحبة الأولاد لذويهم، قد تكون أحد أكبر مصادر السعادة، ولكن الحقيقة هي أن العلاقـات بين الأهـل والأولاد في أيامنا الحاضرة، هي في تسع حالات من عشر، مصدر لتعاسة الفريقين، وفي ٩٩ حـالة من مـائة مصـدر شقاء بـالنسبة إلى أحـد الطرفـين، عـلى الأقـلّ. إن التقصير الذي تشهـد به الحيـاة العائلية لإيجاد هـذه الترضيـة الأساسيـة القادرة مبـدئياً عـلى تقديمهـا، هي أحد الأسبـاب الأعمق للاستيـاء، والعلامـة المميـزة لعصرنـا. فالبـالغ الـذي يرغب في إقـامـة عـلاقـات وديـة مـع أولاده، أو يـودّ إسعـادهم، ينبغي له أن يفكّـر عميقاً بـواجباتـه كأب (أو كـأم)، وعقب تفكـير نـاضج، يتعـينّ عليـه التصرّف بحكمـة. إن مشكلة الأسرة هي أوسـع من أن تعـالَج في هـذا الكتاب، إلا بـالنسبة إلى المـوضـوع الـذي يشغلنـا، أعني غـزو

السعادة. وحتى من هذه الناحية، لا يسعنا معالجة هذه المشكلة إلا في الحدود التي يتوقف فيها تحسين الوضع على كل فرد ولا يتطلب تغييرات في البنية الاجتماعية.

هذا، بالطبع، يشكّل قيوداً خطرة، لأن أسباب فقدان السعادة في الحياة العائلية في أيامنا الحاضرة مختلفة: إنها ذات طابع سيكولوجي، واقتصادي، واجتماعي، وتربوي، وسياسي. وفي ما يتعلّق بالطبقات الميسورة من المجتمع، هناك عاملان اتّحدا لكي يجعلا عبء الأمومة على النساء أثقل كثيراً مما كان في الماضي.

هذان العاملان هما، من جهة، أن النساء العازبات فُتحت أمامهن مهن جديدة، ومن جهة أخرى، ندرة الخدمة المنزلية. في الماضي كانت النساء يُدْفَعن إلى الزواج بفضل الحالات التي تجعل الحياة غير محتملة بالنسبة إلى العانس. وكانت الفتاة العزباء تضطر إلى ملازمة المنزل وتعتمد اقتصادياً، أولاً على والدها، ثم على أخ غير مهيّأ لذلك. ولم يكن لها أية مشاغل تقضي فيها أيامها، ولم تكن لتتمتع بأي حرية تسمح لها باللهو خارج الجدران المحروسة تماماً في المنزل العائلي. لم يكن لها الفرص، ولا الميل إلى المغامرات العاطفية التي كانت تعتبرها، خارج إطار الزواج، أنها دنس. وكانت حالتها تصبح مدعاة للشفقة، إذا فقدت، على الرغم من كل الحمايات التي تحاط بها، فضيلتها من طريق خدع مُغوٍ حقير. وهذا معبّر عنه بكل وضوح في قصيدة «قسّ ويكفيلد»:

إن طريقتها الوحيدة لحجب غلطتها
وإخفاء عارها عن كل العيون،
ومنح عشيقها الندم
هو في تمزيق قلبها، والموت.

في أيامنا هذه، لا تعتبر المرأة المتزوجة أن الموت ضروري في هذه الظروف إذا كانت تلقّت تربية حسنة، فإنها لن تجد صعوبة في كسب معيشتها بطريقة

ملائمة، وبالتالي، لا تعود تعتمد على والديها. ومنذ أن فقد الوالدون سلطتهم الاقتصادية على بناتهن، غدوا أكثر حذراً في التعبير عن شجبهن الأخلاقي؛ فلا فائدة من توبيخ شخص لا يبقى أمامك لكي يصغي إلى التعنيف. في أيامنا الحاضرة تجد المرأة الشابة العازبة التي تنتمي إلى وسط المفكرين، والتي تتمتع بجمال متوسط، والذكية، نفسها قادرة على تأمين حياة جدّ مستساغة ما دامت تستطيع الاستغناء عن الأولاد. ولكن إذا هي استسلمت إلى هذه الرغبة، فإنها ستضطر إلى الزواج، ويكاد يكون مؤكداً أنها ستفقد وظيفتها. وينخفض مستوى معيشتها انخفاضاً هائلاً ما دام مرتّب زوجها ليس، على وجه الاحتمال، مرتفعاً ارتفاع المرتّب الذي كانت تتقاضاه، وينبغي أن يكفي هذا المرتّب ليس امرأة واحدة، وحسب، بل أُسرة كاملة.

وبعد أن تكون تمتعت بالاستقلال، تجد أمر اعتمادها على شخص آخر من أجل كل فلس ضروري للإنفاق مُذِلاً. كل هذه الأسباب تجعل النساء يترددن في مباشرة الأمومة.

مع ذلك، إن المرأة التي تغامر في هذا المجال، بالمقارنة مع النساء في الأجيال السابقة، تجد نفسها أمام قضية جديدة ومخيفة: أزمة الخدمة المنزلية والنوعية السيئة. وتكون النتيجة أنها تتحوّل إلى جارية في منزلها، وترى نفسها مجبرة على القيام شخصياً بالأعمال الألف المبتذلة التي لا تليق بها البتة نظراً لقدراتها ولتعليمها. وإن هي لم تقم بها شخصياً، فإن طبعها سيسوء لفرط تعنيفها الخادمات اللواتي يُهملن واجباتهن. أما بالنسبة إلى الاهتمام بأولادها (إذا كانت قداهتمت بالتوثق بالمستندات حول هذا الموضوع)، فهي ترى أنه إذا لم يكن بوسعها أن تستخدم مربية درست في معهد مكلف، فمن المستحيل، دون التعرّض لمخاطر كبيرة، أن تعهد إلى الآخرين بالاحتياطات الأكثر بدائية في ما يتعلّق بالنظافة وبشؤون الصحة. وإذ يرهقها ألف همّ، قد تعتبر نفسها جدّ سعيدة إن هي لم تفقد بسرعة جاذبيتها كلها وثلاثة أرباع ذكائها. وغالباً جداً، يجعل التنفيذ البسيط لهذه الواجبات الضرورية النساء يُتعبن أزواجهن،

ويُضجرن أولادهن. في المساء، عندما يعود الرجل إلى المنزل، تكـون المرأة التي تتحدَّث عن همومها اليوميـة كالمنشـار، وتلك التي لا تفعل ذلـك تكون لاهيـة. وفي مـا يتعلّق بأولادهـا، تكون التضحيـات التي بذلتهـالإنجابهم مـاثلة دوماً في فكرها، الأمر الذي يجعلها تطلب بـالمقابـل أكثر ممـا يسعها أن تـرجو، وتجعلهـا العادة الدائمـة للاهتـمام بأمـور مبتذلـة مدقّقـة وحقيرة. وهـذا هو الـظلم الأكثر ضرراً الـذي يتعيّن عليهـا احتمالـه: إنها تُكافأ لأنها قامت بـواجبها تجاه أسرتها بفقدان محبة زوجهـا وأولادها، بينـما لو أنها أهملتهم وبقيت مـرحة وجـذّابة، لما تـوقّفوا حتـماً عن حبهـا. (إن هـذه القضيـة بكـاملهـا من حيث أنها تؤثّـر في الطبقات الفكرية، معـالجة بفـطنة رائعـة وذكاء بنّـاء في كتاب «الإنسحـاب من الأبّوة»، لجان إيلان.

إن لهذه الاضطرابات أساساً أسباباً اقتصادية، وكذلك هي الحال بـالنسبة إلى خطر آخر هو خطير أيضاً. أنا أُفكّـر في أزمة السكن التي تثيرها التجمّعـات السكانية في المدن الكبرى.

في القرون الوسطى، كانت المدن ريفية مثلما هي القرى في أيامنا هذه. لم تكن المدن كبيرة جـداً، لبضعة قـرون خلت، وكان من السهـل الخروج منهـا، ولذا كنا نرى غالباً جداً منـازل تحيط بها الحـدائق. في أيامنـا الحاضرة، يتجـاوز سكان المدن في انكترا عدد السكان الريفيين. وفي أميركا، فإن هذا الرجحان ما يزال بعد خفيفاً جداً، ولكنه ينمو بسرعة كبيرة. والمدن الكبيرة جـداً مثل لنـدن ونيـويورك يقتضي المـرء وقت طويـل للخروج من أسـوارها. وعـلى المقيمـين في المدن، عمومـاً، الاكتفاء بشقـة لا يتبعها، حتـماً، شبر من الأرض، وينبغي فيهـا للأشخاص ذوي الإمكانيات المتواضعة الاكتفاء بالحيّز الأدنى الدقيق. وإذا كـان للمرء أولاد صغار، تصبح الحياة في الشقة صعبة، إذ لا يتوفر لهم مكان للعب، ولا يتوفر لذويهم الملاذ ضد الجلبة التي يُحدثونها. ولـذا، يميل الأشخـاص الذين يقومون بمهن حرّة أكثر فأكثر إلى الحيـاة في الضواحي. فيفيـد الأولاد من ذلك، غير أن هذا يضيف عبئاً هائلاً إلى حياة الوالد المتعبة، ويخفّض كثيراً الدور الذي يسعه أن يقوم به في حياة الأسرة.

ليس في نيتي مناقشة هـذه القضايـا الاقتصاديـة الكبيرة لأنها لا تمتّ بصلة إلى القضية التي تشغلنا، وهي معرفة ما يستطيع المرء أن يفعل، في حالة معيّنة، لكي يجـد السعـادة. وستكـون لنـا رؤيـة أدق لهـذه القضيـة عنـدمـا سنعـرض للصعوبات السيكولوجية الموجودة حالياً في العلاقات بـين الآباء والأولاد. وتؤلف هذه الصعوبات، في الحقيقة، جزءاً من القضية التي يثيرها تـطور الديمقـراطية. في الماضي كان هناك أسياد وعبيـد: كان الأسيـاد يقرّرون ما ينبغي عمله، وعلى العمـوم، يحبّون عبيـدهم لأن هؤلاء كانـوا يوفّـرون لهم السعادة. وكـان بوسـع العبيـد كره أسيـادهم، علماً بأن تلك لم تكن القـاعدة، كما أرادت النـظريـات الديمقراطية أن تحملنا على الاعتقاد. وحتى لو أنهم كرهوا أسيادهم، فـإن هؤلاء لم يـلاحظوا ذلـك، وكانـوا شخصياً، عـلى الأقلّ، سعـداء تماماً. ومـع ظهـور الديمقراطية، تبدّل كل ذلك: العبيد الذين كانوا في السـابق خاضعـين، توقّفـوا عن الاستسلام، والأسياد الـذين لم يكونـوا يشكّون في مـا يتعلّق بحقوقهم، في الماضي، غدوا مترددين وحائرين. وحدثت خلافات جعلت الجميـع تعساء. إن كل ما ذكرته لا ينبغي أن يُعتبر نقداً للديمقراطية، ذلك بأنه في كل فـترة انتقاليـة مهمة، تكون هذه الاضطرابات محتومة. ولكن لا فائدة من إغماض العينين على واقع أن هذا الانتقال ما دام في طور الحدوث، فإنه يُحدث توتراً في العالم.

إن التغيُّر في العلاقات بين الأهل والأولاد هو مثـل نموذجي عن الإنتشـار العام للديمقراطية. فالأهل لم يعودوا متأكدين كثيـراً من حقوقهم عـلى أولادهم؛ والأولاد لم يعـد لديهم الشعـور بواجب الاحـترام تجاه ذويهم. وفضيلة الـطاعة، التي كانت قيمتها في السـابق خارجـة عن نطاق الشـك، لم تعد «عـلى الموضـة» اليوم. التحليل النفسي أرعب الوالدين المثقفين بفكرة الأذى التي قد يتسبّبون به لأولادهم، دون إرادتهم. فإذا ما قبّلوهم، فإنهم يخشون أن يـولّدوا في نفـوسهـم عقـدة أوديب (عقدة نفسيـة تتّسم بحب الابن لأمه والبنت لأبيهـا حبـاً مفـرطـاً مصحوباً بتحيّز ضد الأب في الحالة الأولى وضـد الأم في الحالـة الثانيـة)، وإذا لم يفعلوا ذلك، فإنهم قد يثيرون أزمة غيرة. إذا أصدروا الأوامر إلى أولادهم، قـد يولّدون فيهم الشعـور بالـذنب؛ وإذا لم يفعلوا، يُخشى أن يتخذ الأولاد عـادات

يعتبرها الوالدون غير مرغوب فيها. عندما يرى الوالدان طفلهما يمتصّ إبهامه، يستخلصون من ذلك نتائج مرعبة، ولكنهم لا يدرون ماذا يفعلون لوقفه عن هذه العادة. لقد أمسى استخدام حقوق الوالدين، الذي كان في الماضي ظاهرة مظّفرة للسلطة، حييّاً، ووجلاً، ومفعماً بالوساوس. وفُقدت المباهج البسيطة الماضية، وهذا أمر أكثر إيلاماً، إذ إنه بفضل الحرية الجديدة الممنوحة للمرأة العازبة، فإن الأم إذ اختارت الأمومة، اضطرت إلى بذل تضحيات أكثر من السابق. في هذه الظروف، تطالب الأمهات غير الشريفات بالكثير من المسرّات. والأمّهات الحيِّات الضمير يكبحن محبتهن الطبيعية ويصبحن متحفظات؛ الأمهات غير الشريفات يبحثن في أولادهن عن تعويض للمباهج التي اضطررن إلى التخلّي عنها. في الحالة الأولى، تموت حاجة الطفل إلى المحبة، وفي الحالة الأخيرة، تثار المحبة إلى درجة مفرطة. وليس في أي من الحالتين هذه السعادة البسيطة والعادية التي يُحدثها أفضل ما في الحياة العائلية.

أمام كل هذه الصعوبات، هل ينبغي بعد أن نُدهش لكون نسبة المواليد في انخفاض؟ إن هبوط نسبة المواليد في الطبقات الشعبية بلغ نقطة تُظهر أن نسبة السكان ستبدأ عما قريب بالانخفاض. ولكن في أوساط الطبقات الميسورة، تمّ تجاوز هذا المستوى منذ زمن طويل، ليس وحسب، في بلد واحد، ولكن في كل البلدان الأكثر تحضُّراً، تقريباً. ليس ثمة إحصاءات كثيرة تتعلّق بنسبة المواليد في أوساط الأشخاص الميسورين، ولكن بالوسع تسجيل واقعتين وردتا في كتاب جان إيلان المذكور آنفاً. يبدو أنه بين سنة ١٩١٩ و ١٩٢٢، لم تكن خصوبة النساء في استوكهلم، المنتميات إلى وسط فكري، إلا ثلث نسبة سواد السكان؛ كما يتبيّن أيضاً أنه بين الأربعة آلاف طلب جامعي في جامعة ولزلي، في الولايات المتحدة الأميركية، من السنوات ما بين ١٨٩٦ و ١٩١٣، كان عدد الأولاد حوالى ٣ آلاف، في حين أنه كان ينبغي أن يكون ٨ آلاف لمنع حدوث هبوط حقيقي في الجنس البشري، شرط ألا يقضي أحد منهم في سنّ مبكرة. ولم يعد مسموحاً الشك في أن الحضارة التي أوجدتها الشعوب البيضاء، تقدّم هذه الميزة الفريدة، فإنه بقدر ما يتمثّل الرجال والنساء هذه الحضارة،

فإنهم يصبحون عقيمين؛ إن البلدان الأكثر تمدّناً هي الأكثر عقماً؛ والبلدان الأقلّ تمدناً هي الأكثر تناسلاً، وبين الفئتين هناك تدرّج متواصل. إن الطبقات الأكثر تطوراً، هي حالياً، في طريق الانطفاء. وفي غضون بضع سنين، سينخفض عدد السكان في البلدان الغربية إذا لم يتضاعف العدد بعناصر جديدة تُقبل إليها من بلدان أقل تمدّناً. وما إن يتمثّل المهاجرون حضارة البلد الذي تبنّاهم، حتى يصبحوا بدورهم عقيمين نسبياً. وواضح أن حضارة تتميّز بهذا الواقع هي حضارة مترجرجة؛ وما لم يتم إنماؤها، فإنها ستنطفىء، عاجلاً أو آجلاً، وتدع مكانها حضارة أخرى حيث احتفظت الرغبة في إنشاء أسرة بقدر كافٍ من القوة لتفادي هبوط في نسبة المواليد.

في بلدان أوروبا جميعاً، اجتهد علماء الأخلاق في معالجة هذه القضية بواسطة الإرشادات العاطفية. من ناحية يقولون إن من واجب الزوجين أن يُرزقا من الأولاد ما يأمر به الله تعالى، دون الاهتمام بما ستكون عليه صحة هؤلاء الأولاد وسعادتهم في المستقبل. ومن ناحية أخرى، يتحدَّث اللاهوتيون من الجنس الخشن عن المسرات المقدّسة التي تنطوي عليها الأمومة، ويزعمون أن الأسرة الكثيرة الأولاد السقيمين والبائسين هي مصدر سعادة. والدولة تشاركهم بتقديمها الحجة التالية: إن عدداً كبيراً من الأشخاص، وقود المدافع، ضروري، إذ كيف يمكن كل أسلحة التدمير المبتكرة هذه أن تعمل بطريقة ملائمة إذا لم يُترك لها العدد الكافي من الكائنات البشرية لتدميرها؟ والغريب، أن الزوجين الفرديين، إذا ما تقبّلا هذه الحجج عندما يتعلّق الأمر بالآخرين، يظلان أصمّين كلياً عندما يطبَّق عليهما. بوسع اللاهوتيين النجاح ما داموا قادرين على الإفادة بنجاح من عقاب الجحيم، ولكن ليس هناك سوى أقلية من السكان، في أيامنا الحاضرة، تُعنى بهذا التهديد عناية خاصة. ووحده عقاب من هذا النوع قادر على توجيه السلوك في قضية خاصة وشخصية كهذه. وفي ما يتعلق بالدولة، فإن حجتها جد شرسة. فالناس يسعهم قبول فكرة أن الآخرين ينبغي أن يقدّموا الوقود إلى المدافع، ولكن إمكانية رؤية أولادهم الشخصيين يصبحون الهدف لا تروق لهم البتة. إذاً، كل ما تستطيع الدولة عمله أن تجتهد

في إبقـاء الفقير فـريسة الجهـل، وهو جهـد، لا ينجح مـطلقاً، وفقـاً لما تُـظهره الإحصاءات، إلا في البلدان الأكثر تخلّفاً في أوروبا. قليلون هم الرجال والنساء الذين يرغبون في الإنجاب بدافع الشعور بالواجب العام، حتى لو علموا أفضل مما يعلمون، أن مثـل هذا الـواجب العام مـوجود. وإذا كـان الرجال والنسـاء ينجبون الأولاد، فلأنهم يعتقدون أن الأولاد يمكنهم إثراء سعادتهم، أو لأنهم لا يدرون ما يفعلون لكي لا ينجبوا أولاداً. وهذا السبب الأخير احتفظ بقوّتـه كلها، ولكن فعاليته في انخفاض تدريجي. ولا يسع الدولة ولا الكنيسة عمـل أي شيء لإيقاف تقدّم هذا الهبوط. وإذا أردنا أن تبقى الأجناس البيضـاء حيّة، فـإنه من الضروري أن يستطيع الأولاد من جديد جلب السعادة إلى والديهم.

إذا وُضعت الـظروف الحالية جانبـاً، وتـأملنـا في الجنس البشري، يبـدو جلياً، في رأيي، أن بمقدور الأولاد أن يوفّروا السعـادة الأكبر والأكـثر دواماً التي يمكن أن تقدّمها إلينا الحياة.

وهذا، بالتأكيد، يصحّ أكثر في ما يتعلّق بالنساء، ولكنه صحيح أكثر حتى بالنسبة إلى الرجال، على ما يميل الكثيرون في أيـامنا الحـاضرة إلى الاعتقاد بـه. وهذا أمر مقبول بدهياً في أدب القرون الماضية كله تقريباً. هيكـوب يحبّ أولاده أكـثر من بريـام، ماك داف يحبّ أولاده أكـثر من زوجته. في العهـد القديم من الكتاب المقدّس، الـرجال والنسـاء يرغبـون بشغف أن يقيموا ذرّيـة؛ في الصين واليابان، ما يزال بعد هذا الموقف موجوداً إلى أيامنا. وقد يقال إن هـذه الرغبـة سببها عبادة الأجداد. أنا أعتقـد أن العكس هو الصحيـح: عبادة الأجـداد هي انعكـاس الاهتمام الـذي نحمله لاستمـرار الأسرة. ولنعـد إلى نسـاء الأوسـاط الفكـرية اللواتي تحـدّثنا عنهن آنفـاً. من الواضـح أن الرغبـة في إنجاب الأولاد ينبغي أن تكـون جدّ قـويـة، لأنها لـو لم تكن كـذلـك، فـإن أي امـرأة لم تكن مستعدة للقيام بالتضحية الضرورية لإرضاء هذه الرغبـة. بالنسبـة إليّ، واعتماداً عـلى تجربتي الشخصيـة، وجدت السعـادة بكوني أبـاً أعظم سعـادة عـرفتهـا في حيـاتي. ويقيني أن الظروف، عنـدما تجعـل الرجـال والنسـاء يتخلّون عن هـذه السعادة، تبقى لديهم حاجة عميقة لم تُلبَّ، وهذا يُحدث استياء وفتور شعور قد

يبقى سببهما مجهولاً كلياً. ولكي يكون الإنسان سعيداً في هـذا العالم، ولا سيـما بعد انقضاء فترة الصبا، من الضروري عدم الشعور، وحسب، كما لو كان فرداً منعــزلاً، لن يلبث دوره ههنـا، عــلى الأرض، أن ينتهي؛ ومن الضروري أن يشكّـل جـزءاً من تيّـار الحيـاة الجـاري من المبـدأ الأول نحـو المستقبـل البعيـد والمجهول.

هذا الوعي، بصفة كونه شعوراً واعيـاً معبّراً عنـه بعبارات مكـوَّنة كليـاً، يتطلب، ولا ريب، مفهوماً للعالم الفوق المتحضر والفكري، ولكنـه بصفة كـونه انفعالاً غامضاً وغريزياً، يكون عفوياً وطبيعياً، وعندما ينعـدم أو يغيب، فمعنى ذلـك أننا أمـام حضارة جـد منقّاة. وبـوسع الشخص القـادر على عمـل عظيم الذي يطبع بطابعه القرون العتيـدة، تلبية هـذا الشعور بعمله، ولكن بـالنسبة إلى الذين لا يتمتعون بمـواهب فذّة، فـإن الوسيلة الـوحيدة لتحـديد مـرورهم، ههنا، على الأرض، هو أن يُرزقوا أولاداً. وأولئك الذين تركوا غريـزة التناسـل لـديهم تضمر، انفصلوا عن تيّـار الحياة، وتعـرّضوا بتصرّفهم هكـذا إلى الخـطر الكبير من حيث الجفاف الحيوي. وبالنسبة إليهم، فإن الموت هو نهاية كل شيء إذا لم يكونوا لا شخصيين بصورة استثنائية. فالعالم الذي سيخلفهم لا يهمهم في شيء، ولذا تبدو أعمالهم تافهة وبلا أهمية. وبالنسبـة إلى الرجـال والنساء الـذين لهم أولاد وأحفاد، وهم يحبّونهم حبـاً جدّ طبيعي، للمستقبـل أهمية (عـلى الأقل إلى حـدود حياتهم) ليس وحسب، بـالأخلاق أو بجهـد الخيـال، ولكن طبيعيـاً وغريزياً. والشخص الذي تجاوزت اهتماماته حدود حياته الشخصية وبلغت هذا الحدّ، قادر على تعيين أهداف لها أكثر بعداً.

يقوم أساس مؤسسة الأسرة على واقع أن الوالـدين يحسّون بمحبـة خاصـة لأولادهم الشخصيين، وهي محبة تختلف عن المحبة التي يحسها أحدهم بالنسبـة إلى الآخر، أو بالنسبة إلى سائر الأولاد. صحيح أن ثمة والدين لا يشعـران بأي محبة تقريباً أبوية أو أمومية، وكذلك صحيح أيضـاً أن هناك نسـاء قادرات عـلى حب ولد ليس ولدهن مثلما يحببن أولادهن من صلبهن. إلا أنه، مع ذلك،

تبقى حقيقة بسيطة وهي أن محبة الوالدين هي شكل محبة مختلف عن سائر أشكال المحبة، ولا يشعر به الكائن البشري العادي إلّا تجاه أولاده من صلبه، وليس تجاه أي كان. لقد ورثنا هذا الانفعال عن جدودنا من الحيوانات. وفي هذا الصدد، يبدو أن فرويد لا يفرد، في اعتباراته، مكاناً كبيراً للبيولوجيا (علم الأحياء)، لأن من يراقب أنثى مع صغيرها، سيلاحظ أن تصرّفها مختلف كلياً عن تصرُّفها تجاه الذكر الذي تقيم علاقات معه. وهذا التصرّف الغريزي نفسه الذي يتجلّى متبايناً في الحالتين، موجود بين البشر. ولو لم يكن لهذا الشعور من وجود، لما استطعنا اعتبار الأسرة مؤسسة، ما دام بالوسع ترك أمر العناية بالأولاد إلى مربّين محترفين. وفي الظروف الحاضرة، مع ذلك، تكون المحبة الخاصة التي يكنّها الوالدان لأولادهما ـ شرط أن تكون غرائزهما مصابة بالضمور ـ ذات قيمة كبيرة سواء بالنسبة إلى الوالدين أو إلى الأولاد.

والثمين في محبّة الوالدين هو أن بوسعنا أن يكون لنا ثقة فيها أكثر من ثقتنا بأي محبة أخرى. أصدقاؤك يحبّونك من أجل مزاياك، والعشاق يحبّون من أجل الجاذبية والفتنة، فإذا ما اختفت المزايا والجاذبية والفتنة، بوسع الأصدقاء والعشاق أن يختفوا كذلك. ولكن، بالوسع أن يجد المرء ملاذاً لدى والديه في حالة الشقاء والتعاسة، وفي حالة المرض أو في حالة فقدان الحظوة، شرط أن يكون الوالدان والدين بحقّ وحقيق. نحن نُسرّ جميعاً عندما يعجب الآخرون بمزايانا، ولكن معظمنا من التواضع في قرارة نفوسنا، بحيث ندرك أن هذا الإعجاب عابر. والدونا يحبّوننا لأننا أولادهم، وذلك واقع لا يتغيّر؛ ولذا نحن نشعر أننا في أمان أكثر معهما منا مع الآخرين جميعاً. وقد يبدو كل ذلك في لحظات النجاح تافهاً، ولكن في لحظات البلوى، تقدِّم الأسرة تعزية وأماناً لا وجود لهما في أي مكان آخر.

من السهل نوعاً ما في كل العلاقات البشرية، إيجاد السعادة بالنسبة إلى الطرفين ، ولكن تأمينها للطرفين معاً أكثر صعوبة. السجّان قد يجد لذة في

حراسة السجين؛ وربّ العمل قد يجد لذة في معاملة مستخدمه بقسوة وخشونة؛ والسلطان قد يجد غبطة في توجيه رعاياه بيد قوية؛ والوالد ذو المبادىء التي عفّى عليها الزمن كان يجد، بكل تأكيد، لذة في ترسيخ الفضيلة في نفس ابنه بضربه بالقضيب. ولكن هذا ليس، مع ذلك، إلا لذة بالنسبة إلى أحد طرفي العلاقة؛ والوضع أقلّ استساغاً بالنسبة إلى الطرف الآخر.

لقد رأينا أن ثمة عنصر عدم رضى في هذه المسرّات الجزئية؛ ونعتقد أن العلاقات البشرية العادلة ينبغي أن تكون مُرضية للطرفين. وينطبق هذا بصورة خاصة على العلاقات بين الوالدين والأولاد، فينجم عن ذلك أن الوالدين يحظيان بترضية أقلّ من أولادهم بالنسبة إلى الماضي، في حين أنه، بالتبادل، لا يتألمون اليوم من والديهم مثل أولاد الأجيال الماضية. ولست أرى أن ثمة سبباً حقيقياً يجعل الوالدين يحظون بترضية أقل من أولادهم من السابق، على الرغم من أنها بالتأكيد القاعدة العامة اليوم. ولا أعتقد كذلك أن ثمة أي سبب يجعل الوالدين يُخفقون في جعل أولادهم أكثر سعادة. ولكن ذلك يتطلب ـ كما تتطلّب هذه المساواة في العلاقات التي تميل إليها في عالمنا الحديث ـ نوعاً من الرقة والحنان، وبعض الاحترام لشخصية الآخرين التي لا تنعم بروح القتال التي تميّز الحياة اليومية. وسندرس الآن السعادة في أن يكون المرء أباً أو أماً، أولاً في كنهها البيولوجي، ثم في هذا الشكل الذي قد ترتديه لدى والدين يلهمهم هذا الموقف تجاه شخصية الآخرين، الذي وصفناه بأنه لا غنىً عنه في عالم يؤمن بالمساواة.

هناك مصدر مزدوج للسعادة في أن يكون للمرء أولاد. من جهة، هناك هذه الفكرة عن إظهار جزء من الجسد، الذي تمتدّ بواسطته الحياة إلى ما وراء الموت بشكل فرد جديد، يمكنه، بدوره، إظهار جزء من ذاته، مؤمّناً هكذا خلود البروتوبلازما (الجبلة أو الوذقة ـ المادة الحية الأساسية في خلايا الحيوان والنبات). ومن الناحية الأخرى، هناك مزيج من القوة والحنان. والكائن

البشري الصغير الذي يولد هو بلا أي وسائل دفاع، ويجد لـدى الوالـدين دافعاً لتلبية حاجاته، دافعاً لا يُرضي، وحسب، حب الوالدين للطفـل، ولكن حبهما لقوّتهما. وما دام الطفل دونما دفاع، فـإن المحبة التي تُكّن لـه لا يُشعر بهـا كأنها أنانية ما دامت من طبيعة الحـماية نفسهـا المقدَّمـة إلى نقطة غـير منيعة في ذاتـه. ولكن، سرعان ما ينشأ نزاع بين الرغبة في السيطرة من جانب الوالدين والقلق على خير الولد، مع كون السلطة على الولد، مفروضة بطبيعة الأشياء، فـإنه من المستحبّ أن يتعلم الـولد، سريعـاً جـداً أن يكـون مستقـلاً من كـل النـواحي الممكنة؛ ولكن هذا يعاكس رغبة القوة لدى الـوالدين. هنـاك والدون لا يعـون مطلقاً هذه النزاعـات ويبقون طغـاة حتى يثور أولادهم. وآخـرون، مع ذلـك، يدركون هذه الحالة، ويغدون هكذا فريسة انفعالات متناقضة.

في هذا النزاع، تُدمَّر سعادتهم الأبوية أو الأمومية. وعقب إغداقهم هـذا القدر من العنايةعلى ولدهـم، يدركون أنه يُمسي مختلفـاً جداً عـما كانـوا يأملون، لفرط خيبتهم. كانوا يريدون أن يجعلوا منه جندياً، فيرون أنه غدا محباً للسـلام، أو، مثل تولستوي، كانـوا يرغبـون أن يجعلوا منه محبـاً للسلام، فينضـوي تحت لواء الهوصار (جنود من الخيّالة) الذين يندفعون إلى الموت. غـير أن الصعوبـات لا تظهر، وحسب، في هذه التطورات الأكثر تقدماً. إذا أنت غذّيت طفـلاً بات في وسعه أن يقتات، فـإنك تقـدّم حب السلطة على حب الـطفل، مـع أنك لا تعتقد أنك تتصرَّف إلا بدافع الـطيبة لانتشـاله من الارتبـاك. وإذا أنت حذّرتـه من كل أنواع الأخطار بكثير من الحماسة، فإنك ربمـا تصرَّفت بدافـع الرغبـة في إبقائه تحت وصايتك. وإذا أنت أغدقت عليه محبة غير مكتومة ترجو ردّاً عليهـا، فإنك قد تجتهد في شـدّه إليك بـالانفعالات التي يشعـر بها. بـألف طريقـة، في الأمور الصغيرة مثل الكبيرة، تُضلُّ الرغبة في التملك الـوالدين، مـا لم يكونـوا شديدي الحذر والفطنة، وذوي نيّات جـدّ سليمة. ويفقـد الوالـدون العصريون الـواعون هـذه المخاطـر أحيانـاً ثقتهم في العلاقـات مع أولادهم، وقـد يسيئون إليهم بعد أكثر مما لو ارتكبوا عفوياً الأخطاء؛ ذلك بأن لا شيء يقلق فكر الولـد

مثل فقدان الثقة واليقين لدى الراشد. إذاً، يُستحسن أن يكون للمرء قلب أكثر من أن يكون شديد الفطنة. والوالدون الذين يقلقون، عفوياً، على خير الولد أكثر من سلطتهم الشخصية عليه، لن يكونوا بحاجة إلى كتب في التحليل النفسي لتطلعهم على ما يتعيّن عليهم عمله أو عدم عمله، لأن غريزتهم ستكون بالنسبة إليهم مرشداً أميناً. وفي هذه الحالة الأخيرة، ستكون العلاقات بين الوالدين والأولاد متناغمة من البداية إلى النهاية، ولا يثيرون أي ثورة لدى الولد أو الشعور بالإحباط لدى الوالدين. غير أن ذلك يتطلّب، منذ البدء، من جانب الوالدين، احتراماً لشخصية الولد، وهو احترام لا ينبغي أن يكون، وحسب، قضية مبادىء، أخلاقية أو فكرية، ولكن شعور جدّ قوي، وقناعة صوفية تقريباً يُشعر بها بعمق، بحيث تصبح روح التملك مستحيلة كلياً. طبعاً إن مثل هذا الموقف ليس مستحباً، وحسب، تجاه الأولاد؛ إنه كذلك مهم جداً في الزواج والصداقة، مع أنه في الصداقة، يسهل كثيراً تحقيقه. في عالم كامل ومثالي، هذا الموقف يتسلّل إلى العلاقات السياسية السائدة بين جماعات البشر؛ ولكن ذلك أمل خيالي، وليس ضرورياً أن نتوقف عنده كثيراً. إن هذه الحاجة إلى المحبة عامة، ولكن الأولاد، بصورة خاصة، هم الأكثر حاجة إليها، لأن بنيتهم الدقيقة، وقدهم الصغير، وضعفهم - كل ذلك يجعلهم حقيرين في عيون المألوف.

ولكن، بالعودة إلى القضايا التي تشغلنا، فإن المسرات الأكثر غنى التي يمكن الوالدين، في أيامنا هذه، أن يحسّوا بها لا تُعطى إلا إلى القادرين على الاحساس بعمق بشعور الاحترام هذا تجاه الولد الذي تحدّثت عنه. ذلك بأنه لن يكون أمامهم المهمة العامّة لتقييد حب السلطة، ولن يكونوا بحاجة، كذلك إلى الخوف من الخيبة المريرة التي يشعر بها الوالدون الطغاة وهم يرون أن أولادهم يتحررون من وصايتهم. والوالدون الذين يتبنّون هذا الموقف يشعرون بغبطة أكبر من الغبطة التي يشعر بها الطاغية وهو في ذروة سلطته الأبوية. وهذا الحب الذي طهّرته المحبة من كل ميل إلى الطغيان سيمنح مباهج أشهى، وأرقّ، وأقدر على تحويل المعدن الخسيس المصنوعة منه الحياة اليومية إلى ذهب

خالص من النشوة الصوفية، أكثر من أي انفعال آخر يشعر بـه الإنسان الـذي يتخبّط ويكافح لتأمين سيطرته في العالم المتقلّب.

إذا أنـا علّقت قيمة استثنـائية عـلى حبّ الوالـدين، فـإنني لن أستخلص النتيجة (ليست سوى سائدة تماماً) بأنه ينبغي للأمّهات أن يقمن بـأنفسهن بكل شيء من أجل أولادهن. هناك في هذا الموضوع، أفكار مقبولة عـلى العموم قـد تـلائم العصر الذي كنـا نعـرف فيـه، وحسب، من شؤون العنـايـة بـالأولاد، المبادىء المجزّأة وشبه العلمية التي كانت العجائز ينقلنها إلى الصبايا. واليوم، في ما يتعلّق بالعناية التي تُغدق على الأولاد، تمّ تحقيق تقدُّم كبير من جـانب الذين قاموا بـدراسات خـاصة لجـزء من هذه القضيـة. وهذا معـترف به في مـا يتعلق بالقسم من التعليم المسمّى «تربوياً». لا يُطلب من الأم، مهما يكن حبهـا لابنها كبيراً، أن تعلّمه الحسـاب. في ما يختصّ بـالمعرفـة الكتبية، المعـروف أن الولـد يستطيع اكتسابها بفائدة أكبر على أيدي الذين يمتلكونها، منه على يدّ الأم التي لا تمتلك ذلك؛ ولكن في ما يتعلق بميادين التربية الأخرى الكثـيرة، لا يُقرّ بـوجهة النظر هذه، لأن الخبرة المكتسبة لم يُعترف بها بعد. من الواضح أن بعض الأمور تصنعها الأم بطريقة أفضل، ولكن مـع نمو الـولد، يُصنـع عدد كبـير من الأمور دوماً بطريقة أفضـل من جانب شخص آخر. وإذا بات ذلك حقيقة عامـة، فإن الأمهـات سـيرين أن كثيـراً من المهـام قـد أُعفـين منهـا هي عبء عليهن لأنهن يفتقرن إلى المقدرة المهنية المطلوبـة. وينبغي للمرأة التي اكتسبت مهـارة مهنية في عمل ما، من أجل مصلحتها الشخصيـة ومصلحة المجتمـع، أن تكون حـرّة في مواصلة ممارسة مهنتها على الرغم من الأمومة. وقد لا تكون في حالة تسمـح لها بالعمل خلال الأشهر الأخيرة من عملها وخـلال فترة الإرضـاع، ولكن طفلاً في شهره التاسع لا ينبغي أن يشكّل عائقاً في سبيل أنشطة أمه المهنية. وفي كل مرة يـطلب المجتمع إلى الأم أن تضحّي فـوق الحدّ من أجـل ولدهـا، ستنتظر هـذه الأم، إن لم تكن سليمة بصورة استثنـائية، من ابنهـا تعويضـات أكبر كثيـراً من تلك التي يحقّ لهـا المطالبـة بها. والأم التي يعـزو إليهـا الكـلام السـاري فضيلة نكران الذات، هي في كثـير من الحالات أنـانية إلى أقصى حـدّ؛ تجاه أولادهـا،

لأن الأمومة، على أهميتها في الحياة، فإنها لا تحمل أي ترضية إذا ما اعتُبرت الهدف الكامل في الحياة، والأم غير الراضية قابلة لأن تتحوَّل أُمّاً تكون محبتها طاغية. لذا، من الضروري أيضاً، من أجل خير الولد، وخير الأم كذلك، ألا تحرمها الأمومة من كل اهتماماتها وأنشطتها. فإن هي شعرت بنزعة حقيقية إلى الأولاد، وإن كانت تستطيع الاهتمام بطريقة ملائمة بولدها، ينبغي لها أن تمنح قدراتها مجال نشاط واسعاً؛ ينبغي لها أن تتعهد جماعة من الأولاد يكون بينهم ابنها كذلك، وتتخذ تلك مهنة. صحيح أن للوالدين رأيهم في تعليم أولادهم وفي من يعهدون إليهم بذلك ما داموا لا يبحثون عن هؤلاء المربين خارج إطار الأشخاص المؤهلين لذلك، شرط أن يلبّوا الحدّ الأدنى من المطالب التي تفرضها عليهم الدولة. ولكن لا ينبغي أن يكون هناك تقليد يفرض على كل أم أن تقوم شخصياً بما تستطيع امرأة.أخرى القيام به أفضل منها. والأمهات اللواتي يشعرن بأنهن مضطربات وغير مؤهلات تجاه أولادهم (كما هي الحال بالنسبة إلى كثيرات من النساء)، لا ينبغي أن يترددن في أن يعهدن بالعناية بأولادهن إلى نساء موهوبات في هذه المهمة، وقد تلقّين تدريباً خاصاً. ليس ثمة غريزة إلهية تملي على الأمهات ما ينبغي أن يفعلن من أجل أولادهن، والعناية المفرطة ليست سوى قناع للرغبة في التملّك. كثيرون من الأولادمسمّمون سيكولوجياً بسبب أمّ جاهلة أو عاطفية. وقد قيل منذ القديم ان الآباء لا يسعهم أن يفعلوا الكثير من أجل أولادهم، ومع ذلك، فإن هؤلاء مستعدون كثيراً لحب آبائهم أكثر من أمهاتهم. وإذا شئنا أن تتحرر النساء من عبودية لا طائل منها، ويتمكن الأولاد من الإفادة من المعرفة العلمية التي تنمو أكثر فأكثر في ما يتعلّق بالعناية التي ينبغي لهن أن يخصّصن بها روحهن وجسدهن، فإن العلاقات بين الأم والولد ينبغي لها في المستقبل أن تشبه أكثر فأكثر تلك العلاقات القائمة، في الوقت الحالي، بين الأب والإبن.

١٤

العمل

سواء أكانت حياتك سعيدة أم غير سعيدة، فإن المرء قد يعتمد على عملك بقدر ما يعتمد على أيّ عامل آخر. إن العمل يستغرق حوالى نصف ساعات اليقظة لدى معظم الناس. ويتوقف على عملك كونك فقيراً أم غنيّاً، وكونك تشعر بالنجاح أو بالفشل.

حتّى لو أنك لا تستمتع بالعمل بحدّ ذاته، فإنه إنّما يفعل الكثير ليُسعف سعادتك. أولاً، بالطبع، يؤمّن لك المعيشة، ولكنه، فضلاً عن ذلك، يمنح حياتك غاية واضحة، وينقذك من السأم بتعزيز الاستمتاع بساعات الفراغ.

إن هذه الميزات أو الحسنات لا تتوقف على طبيعة عملك، ويمكن الاستمتاع بها حتى لو كان العمل بحدّ ذاته كريهاً نوعاً ما. غير أن الكثير من العمل قد يكون في حدّ ذاته نوعاً من المتعة.

إن ذلك ليس صحيحاً بالنسبة إلى كل عمل ضروري. فأنا لا أحسب أن

أيّاً كان يمكنه الاستمتاع بكونه وقّاداً في باخرة في المناطق الاستوائية، أو أن يكون عمله تنظيف المجارير أو البواليع.

في النظام المثالي، يُكافَأُ أولئك الذين يقومون بأعمال كريهة لا يمكن تجنُّبها، بساعات عمل أقلّ، وبمرتّبات أعلى، غير أن العمل الذي يجب أن يكون كريهاً يُستحسن أن يُخفَّض إلى أدنى حدّ باستخدام الآلة.

هناك عدد كبير من الناس يجدون، حتى والأمور على ما هي عليه، سعادة أكبر في القيام بعملهم أكثر ممّا لو كانوا يتقاضون أجراً لقاء بقائهم متعطلين. ولحسن الحظ أن أذواق الناس تختلف: قد يستمتع الواحد بنوع من العمل، في حين أن آخر يستمتع بعمل آخر. قد تهتمّ أنت بالنباتات، ولديك القدرة والموهبة على إنمائها، ومن هنا يمكن أن تستمتع بعمل البستاني أو المزارع، أو لعلّك تستمتع بالقيام بعمل الصفّاح أو السمكري، وتجد رضا في العمل كميكانيكي محرّكات.

من المرجّح أنك تقوم بعملك على أحسن وجه، إذا كنت ذا ميل طبيعي إلى هذا النوع من العمل، وإذا كان عملك من النوع الذي يوفّر أيّ مجال للطموح، فبوسعك أن تستمد السعادة من النجاح. وقليلون من الناجحين البارزين هم غير سعداء.

في اعتقادي أن العمل الذي يرضي حقاً ينبغي أن يكون من النوع الذي يتيح المجال للمبادرة الشخصيّة. ومن هذه الناحية، ليس العالم الحديث في وضع ملائم مثل السابق عندما كان العمل أقلّ ميكانيكيّة، وأقلّ تنظيماً ممّا هو عليه الآن. فالعمال الذين شيّدوا الكاتدرائيّات في القرون الوسطى لم ينفّذوا، وحسب، تصاميم المهندس المعماري، ولكنهم كانوا يستطيعون إطلاق العنان لأذواقهم في التفاصيل، مثل أشكال الميزاب الناتىء من جانب السطح على صورة إنسان أو حيوان...

إن الشخص الذي يعمل في المصنع الحديث لا يتمتّع بهذه الحرّية. فكل

عامل على خط التجميع عليه أن ينفّذ تماماً ما هو مفروض، فإذا ما سمح لنفسه بارتكاب أيّ خطأ فردي، فتكون النتيجة مدمّرة. وأحسب أن هذا إنّما هو نتيجة موقتة للمكننة. فالعمل الممكنن ينبغي أن يتمّ بواسطة الآلة، والعمل المتروك للكائنات البشرية ينبغي أن يكون من النوع الذي يحرّك القوى البشريّة ويطلقها.

وبسبب العيوب في النظام الاقتصادي، فقد كانت كلّ وسيلة للاقتصاد في اليد العاملة البشرية حتى الآن، في الدرجة الأولى، مصدراً للألم بإحداثها البطالة، ومن هنا بات البشر يعتقدون أن الاقتصاد في اليد العاملة ليست دوماً أمراً حسناً.

ولكن، في ظلّ نظام اقتصادي حسن، فإن الشخص الذي يغدو فيه عمله السابق من عمل الآلة، لا ينبغي أن يتألم، بل ينبغي أن يُدرَّب على عمل جديد فيه نوع أقلّ من المكننة. إن طرق الانتاج الحديثة، على الرغم من أنها تتطلّب، في الوقت الحاضر، الكثير من العمل الميكانيكي، فإنها تتطلّب أيضاً الكثير من المهارة الجديدة، وبعضها من النوع الرفيع جداً.

ليس ثمّة أيّ سبب في أن يكون هذا الاتجاه موضوع أيّ تحديد. أنا أحسب أنه لما استُخدمت الخيول للمرة الأولى لكي تجرّ الأحمال، عضّ الجوع العبيد الذين كانوا يجرّونها سابقاً، تماماً كما جاع الحرفيّ في الأيام الأولى للثورة الصناعية. غير أنه ليس ثمة سبب وجيه لمثل هذه الحماقة الوحشية، لأن إحداث التغييرات في أساليب الانتاج بوسعه أن يلاشي شرور البطالة.

إذاً، أنا أرى أن من الحكمة أن نأمل أنه مع تطوّر المكننة، ستبقى نسبة أكبر فأكبر من العمل باستمرار متروكة للكائنات البشرية، وتكون من تلك الأعمال التي يمكن القيام بها باهتمام واستمتاع. هناك مصادر قلّة أكبر للسعادة غير العمل الخلّاق حقاً. ففي أعلى درجاته، ينبغي أن يكون العمل دوماً امتيازاً للموهوبين بصورة استثنائية، ولكن في أشكاله الأكثر تواضعاً، قد يكون عادياً جداً.

لكي لا يكـون العمل مضجـراً، ينبغي ألا يكون، بـالـطبـع، مفـرطـاً، وينبغي أن يدع هامشاً كبيراً للفـراغ يمكن أن يُنسى العمل خـلاله. ومن الخـطأ الفادح أن تترك عقلك قلقاً من ناحية العمل عندما لا تعمل.

كثيرون من الأشخاص، وبخاصّة أولئك الذين عملهم في طبيعته مسؤول وصعب، يجـدون من المستحيـل تقـريبـاً أن يـطردوه من تفكـيرهم في أوقـات فـراغهم. وهذا مـا يجعل أفكـارهم موهنـة، وأدمغتهم مرهقـة. وهـذا لا يتيـح الفـرصة لتلك العمليـات الـلاواعيـة التي تنضـج بـواسـطتهـا الأفكـار، وتُحـلّ الصعوبات.

لقـد تبيّن لي من خـبرتي الشخصية، ولاحـظت لدى الآخـرين، أن أحد أعـراض التعب المفـرط هـو الاعتقـاد غـير المـلائم في أهمّيـة عمـل الشخص. فالأشخاص الـذين هم على حـافة الانهيـار العصبي سيُلقون بـأنفسهم من فوق الحافة لشعورهم أن العالم سينتهي إذا هم استرخوا واستراحوا لحظة واحدة. إن هذا الشعور لهو إشارة أكيدة إلى أنك بحاجة إلى راحة.

ومع أن كثيرين من الرجال يجدون صعوبة في نسيان عملهم عنـدما ينبغي لهم ذلـك، فإنـه أسهل عـلى الرجـال القيام بـذلك بـالقياس إلى أولئـك النساء اللواتي يقتصر عملهن على شؤون المنزل.

بالنسبة إلى ربة بيت لها أولاد صغار، فإن ذلك غير ممكن، والحال على ما هي عليه. فعملها لا يتمّ مطلقاً، لأن الأولاد إنما يتطلّبون عنايـة في كل لحـظة، ولا أحسب أن معـظم عملها هـو من النوع الـذي يمكن تأديتـه بطريقـة أفضـل بواسطة الآلة.

وتعمل المدرسة الكثير لتخفيف هـذا العبء، ولكنها لا تستـطيع أن تمنـع كـونه جـدّياً. ومـا يمكن قولـه ان هذا الشر هـو أقلّ ممـا كان في السـابق، ليس بسبب المدارس، وحسب، بل كذلك لأن الأُسر لم تعد كبيرة، والعمل المنزلي لم يعد تقريباً قاسياً كما كان في الماضي.

لقد انطوى إحلال النور الكهربائي محلّ المصابيح، على توفير كبير بالنسبة إلى العمل، فغسيل الملابس والطهو، بفضل الأدوات الحديثة، يتطلّبان عملاً أقلّ كثيراً من السابق. ومن هذه الناحية تُعتبر المغاسل العامّة هبة كبيرة.

وإذا كان يجب القضاء على الشعور المحتمل بأن ثمّة ظلماً، فمن الأهمية بمكان كبير ألّا يتوقّف المرتّب لقاء العمل على من يؤدّيه. وإنه لمن الخطأ الفظيع أن تتقاضى النساء مرتّبات أدنى من مرتّبات الرجال لقاء العمل نفسه.

كان أحد أسباب النقمة في أفريقيا حتّى زمن قريب أن العبيد يقبضون أجوراً أدنى من أجور البيض عندما يكونون متساوين من حيث الفعالية. ولا أعتقد أن ثمّة أيّ دفاع عقلاني ممكن لمثل هذا التمييز. إن حالة غريبة من نوع غير مشابه هي حالة لفكاديو هيون. كان شديد الاعجاب باليابانيين، وكان أستاذاً في جامعة يابانية منذ أكثر من نصف قرن خلا. وأخيراً قرّر التجنّس.

غير أن اليابانيين كانوا يدفعون مرتّبات أقلّ إلى الأساتذة اليابانيين، بالمقارنة مع الأوروبيين، بحيث أنه لما تجنّس يابانياً، ألفى نفسه قد افتقر. وقد خفّض ذلك إعجابه باليابان، وفي كتابه الأخير غدا أكثر نقداً.

يعيش البشر في هذه الأيام، بفضل التحسّن في الطبّ، أطول ممّا كانوا يعيشون، ويحتفظون بقوّتهم حتى سن متأخرة. ولذا، فإنه من الخطأ الإلحاح على التقاعد الاجباري في سن مبكرة من الحياة، كما كانت الحال تقضي في السابق. وإنّي لأحسّ بذلك إحساساً قويّاً، وأنا أتحدث كامرىء عجوز.

من حسن الحظ، أن عملي الخاص هو من النوع الذي ليس فيه سنّ محدّدة للتقاعد، إلا أنني عرفت رجالاً كثيرين، ما يزالون قادرين وأقوياء كما كانوا، وقد أُكرهوا على ترك العمل الذي وفّر لهم طوال سنوات كثيرة الاهتمام الرئيسي في حياتهم.

إن هذا لهو جور كبير!.. إنه يحرمهم من شعورهم بالأهمّية، ومن

إحساسهم بأن في وسعهم التـأثير فـي الأحداث. إنـه يدعهم في فـراغ مفرط لم تعلّمهم الخبرة السابقة كيف يملأونه. فإذا بهم يقعون فريسـة السأم، والسخط، الأمر الذي يجعلهم ينفّسون عن ذلك بإرسال الرسائل الكثيرة الشكوى.

قلّما يسع الرجـل النشيط أن يكون سعيـداً من دون عمل. إنـه يحتاج إلى شيء ما لكي يتصدّى له. إنه يحتاج إلى الشعور بأنه جزء من الأعمال الجـدّية في الحياة. إن الأغنياء المتعطلين، بحسب خبرتي، هم أقلّ سعادة من أولئك الذين حقّقوا نجاحهم بالعمل الجدّي.

لست أعتقـد أن هناك سـماء من الاستمتـاع السلبي تعتـبر مُـرضيـة، إلا بالنسبة إلى أولئك الذين أرهقهم العمل خلال حياتهم الدنيويّة. وأولئـك الذين كان عملهم كافياً بالمـرام، ولكن ليس مفرطـاً، فلن يكونـوا سعداء إلا إذا كـان ثمة بعد شيء للإنجاز بجهدهم الخاص.

إن أولئك الذين يُلهون أنفسهم بتصوّر اليـوطوبيـا (أو المدينـة الفاضلة)، ينبغي أن يفكروا فيها على أنها مكان يجـد فيه كـلّ واحد العمـل الذي ينـاسبه، ولكن ليس الكثير منه، بحيث يجعله عـاجزاً عن الاستمتـاع بوقت الفـراغ. إن العمل الذي يرضي المرء يتوقّف، بالطبع، عـلى قدرتـه. وهو، عمـوماً، العمـل الأصعب الذي يقدر عليه، لأن في إظهار المهارة سروراً.

أولئـك الذين يمكنهم ممـارسـة لعبـة الشـطرنـج، لا يجـدون متعـة للعب الـداما، والـذين يستطيعـون إنجاز أعـمال صعبة حقـاً، يغتاظـون إذا ما اقتصر عملهم على ما هو سهل. بالوسع العمل أكثر مما عُمـل حتى الآن لإيجاد العمـل الملائم للرجل الملائم، ولإتاحة المجال للمبـادرة الشخصية، بـالنسبة إلى أولئـك الذين يضطرّون للعمل تحت إشراف رؤساء رسميين.

يتباين نوع العمل الأكثر احتراماً من بيئة إلى أخرى. فقد كان هنـاك حتى فترة قصيرة، بلدان هـامّة لا يُحـترم فيها إلا الجيش والبحـرية احـتراماً كلّيـاً. ولم

يكن أيّ عمل آخر يُعتبر جديراً بـ «الجنتلمان».

في إنكلترا، كانت السياسة دوماً محترمة، ولكن في بلدان عدة، وربما ظلماً وعدواناً، يُنظر إلى السياسيين نظرة دونية. في بريطانيا معظم الناس يحترمون أستاذ الجامعة أكثر من رجل الأعمال الذي يحصّل الدخل نفسه، ولكن في الولايات المتحدة الأميركية، العكس هو الصحيح.

إن الاحترام الذي يُمنح إلى أيّ نوع من العمل في بيئة معيّنة هو، بصورة عامة، قضية تقليد. غير أن التقليد يتوقف، عادة، على توزيع السلطة عندما نما التقليد. فالجيش محترم في الدكتاتورية العسكرية، ورجل الأعمال محترم في النظام البلوتوقراطي ـ حكومة الأثرياء. وقد كان الحكيم محترماً في الصين التقليدية لأن السلطة الحكومية كانت تُمنح بواسطة الامتحان التنافسي.

أنا أعتقد أن بيئة حكيمة ستحترم العمل بالنسبة إلى فائدته، ولكن لم تكن بيئات كثيرة حكيمة في هذا الصدد. وقد نشأ نوع جديد من انعدام الحكمة في يومنا هذا، بإخضاع رجال علم بارزين إلى الشرطة في روسيا وأميركا. ولكن شيئاً مماثلاً قد وُجد طوال عصور.

من السهل أن يغدو المرء متشائماً جداً حول الحاضر إذا هو نظر إلى الماضي نظرة متفائلة جداً.

عندما يتأمل المرء الشرور المرعبة التي نجمت عن التصنيع كما وجد لما كان يعدّ جديداً، والتقدم الهائل الذي حدث في السنوات المائة الماضية، فإنه يصبح مسموحاً الشعور ببعض التفاؤل إذا ما أمكن حلّ القضايا الدولية.

هذه القضايا، في الوقت الحاضر، تلقي ظلّها على عالمنا، ولكن، إذا أمكننا التخلّص منها، فإن لنا المعرفة، وأعتقد أنه ينبغي أن تكون لنا الإرادة الطيبة، على أن نجعل من الممكن تحويل العمل من واجب مضجر إلى مصدر للسعادة، إلا، طبعاً، بالنسبة إلى الأقلّية!..

١٥

الاهتمامات غير الشخصية

في هذا الفصل، لا أودّ النظر في الاهتمامات الكثيرة التي تُبنى عليها حياة الإنسان، بل سأتناول هذه الاهتمامات الصغيرة التي تملأ ساعات فراغه، وتوفّر استرخاء للتوتر الذي تحدثه مشاغل أكثر خطورة. في حياة الإنسان المتوسط، يحتل كل من زوجته وأولاده، وعمله ووضعه المالي الحيّز الأكبر من تفكيره وهمومه. حتى إذا كانت له مغامرات غرامية خارج إطار الزواج، فإنها لا تؤثّر فيه بقدر ما تؤثّر انعكاساتها المحتملة على أسرته. في الوقت الحاضر، أنا لا أعتبر الاهتمامات التي تشدّه إلى عمله اهتمامات غير شخصية. فرجل العلم ينبغي له أن يظل على اطلاع على البحوث التي تدخل ضمن نطاقه وميدانه. وإزاء هذه البحوث، يشعر بالدفء وبالحيوية كما لو كانت شيئاً متصلاً بصورة حميمة بعمله؛ ولكن بروح مختلفة كلياً، غير مهنية، وأقل استخفافاً، وأكثر لا مبالاة، تراه يقرأ المقالات حول البحوث الجارية في فرع علمي غير الفرع الخاص به.

وحتى لو اضطر إلى بذل مجهود فكري لمتابعة ما هو مكتوب، فإن قراءته ستكون استرخاء بالنسبة إليه، ذلك بأنها لا تورّط مسؤولياته. وإذا شغف بالكتاب، فإن اهتمامه يبقى غير شخصي، بمعنى لا يمكن أن ينطبق على الكتب التي تعالج ميدانه العلمي الشخصي. عن هذه الاهتمامات التي تقع خارج نشاطات الإنسان الرئيسية، أودأن أتحدث في هذا الفصل.

إن أحد مصادر الشقاء الأخلاقي، والتعب، والتوتر العصبي، هو العجز عن الاهتمام بكل ما ليس ذا أهمية عملية في الحياة. وينجم عن ذلك أن الوعي لا يسعه التخلّص من عدد محدود من الموضوعات التي ينطوي كل منها على همومه وارتباكاته الخاصة. في أثناء الرقاد، وحسب، لا يستطيع الوعي البتة أن يضرب صفحاً، في حين أن اللاشعور ينضج تدريجياً في الحكمة. وتحدث انفعالية، وانعدام فطنة، وإثارة، وفقدان حسّ الأبعاد. كل هذا هو في آن سبب ونتيجة للتعب. وبقدر ما يصبح الإنسان متعباً أكثر فأكثر، تخبو اهتماماته الخارجية، وما إن تختفي، حتى يفقد الاسترخاء الذي كانت تحمله إليه، ويتعب بعد أكثر. هذه الحلقة المفرغة لا يمكن إلا أن تؤدي إلى انهيار عصبي. والمريح في الاهتمامات الخارجية، هو أنها لا تتطلب أي عمل أو نشاط. إن اتخاذ المرء قرارات وممارسة إرادته أمر منهك، لا سيما إذا كان المرء على عجل ولا يسعه استشارة عقله الباطن. والمقتنعون بأنه ينبغي لهم أن ينتصحوا من وسادتهم قبل بلوغ قرار مهم، هم على صواب تماماً، ولكن ليس في النوم وحده يمكن أن تحدث العمليات الفكرية الخاصة بالشعور الباطن (ما تحت الشعور).

بوسعها كذلك أن تعمل عندما يكون الوعي مستغرقاً في مشاغل أخرى. ومن يستطيع نسيان عمله عندما ينهيه، ولا يعود يفكر فيه حتى اليوم التالي، يجيد القيام بعمله أكثر من ذاك الذي لا يفتأ يفكر فيه باستمرار. وإذا كان للمرء اهتمامات أخرى غير عمله، فإن نسيانه يكون أسهل عندما يجب نسيانه. والمهم، مع ذلك، ألا تشغل هذه الاهتمامات القوى الفكرية التي تكون قد أنهكت بفعل عمل النهار. ينبغي ألا تتطلّب اشتراك الإرادة أو القرارات

الباغتة، ولا ينبغي أن تنطوي على عنصر مالي، كالمقامرة مثلاً، ولا ينبغي، بصورة عامة، أن تكون مثيرة إلى حدّ إحداث تعب عاطفي، وامتصاص اللاشعور والوعي معاً.

كثير من أنواع اللهو تفي بهذه الشروط. مشاهدة المباريات والألعاب، التردد على المسرح، ممارسة لعبة الغولف ـ هوذا من وجهة النظر هذه ـ ما هو مشاغل ممتازة. بالنسبة إلى من يحب المطالعة، فإن قراءة ما ليس متصلاً بمهنة الشخص جدّ مُرضية. ومهما يكن السأم كبيراً، لا ينبغي لنا التفكير فيه طوال اليوم.

من هذه الناحية، هناك تباين كبير بين الرجال والنساء. على العموم، بوسع الرجال نسيان عملهم بسهولة أكبر مما تستطيع النساء. بالنسبة إلى النساء اللواتي يعملن في المنزل، فإن ذلك طبيعي، لأنهن لا يستطعن تبديل أماكنهن كما يفعل الرجل وهو يغادر مكتبه ويبدّل هكذا حالته الفكرية. ولكن، إذا لم أكن مخطئاً، فالنساء اللواتي يعملن في الخارج يختلفن في هذه الناحية عن الرجال مثلما تختلف النساء اللواتي يلازمن المنزل. ما أودّ قوله إنهن يجدن صعوبة كبيرة في الاهتمام بشيء لا يكون مهماً من الناحية العملية بالنسبة إليهن. إن مشاريعهن تحكم أفكارهن وأنشطتهن، ونادراً ما يستغرقن كلياً في اهتمام ما لا يورّط مسؤوليتهن. ولست أنكر أن ثمة استثناءات، ولكنني أتحدَّث عما يبدو لي أنه القاعدة. ففي كلية للبنات، تتحدث الأستاذات، في غياب الأساتذة، مساءً عن شؤون المدرسة، في حين أن الأساتذة في كلية للشبان لا يفعلون ذلك. إن ذلك يبدو للنساء كدرجة أعلى من الضمير المهني أكثر من موقف الرجال، إلا أنني لا أعتقد أن ذلك، على المدى الطويل، يمكن أن يحسّن نوعيات عملهن. ويميل ذلك إلى إحداث نوع من ضيق التفكير غالباً ما تكون نتيجته روح التعصّب.

إن لكل الاهتمامات غير الشخصية، بغضّ النظر عن أهميتها كوسيلة

للاسترخاء، استعمالات أخرى. أولاً، إنها تساعد المرء على الاحتفاظ بحسّ الأبعاد لديه.

من السهل جداً علينا أن نغدو مستغرقين كثيراً في مشاريعنا الشخصية، ووسطنا الخاص، وعملنا الشخصي بحيث ننسى أي جزء صغير يمثّل ذلك في مجمل النشاط البشري. وكم من الأشياء في هذا العالم لا تتأثر البتة بما نقوم به. إنك تتساءل: لماذا ينبغي لنا أن نذكّر أنفسنا بذلك؟ عن هذا السؤال، هناك أجوبة عدة. الأول هو أنه يُستحسن أن يكون هناك صورة عن العالم أمينة بقدر ما تسمح أنشطتنا الضرورية. نحن لسنا في هذا العالم لنبقى زمناً طويلاً جداً، وخلال السنوات القليلة من حياتنا، ينبغي لنا أن نتعلّم أن علينا أن نتعرّف إلى هذا الكوكب الغريب وإلى مكانه من الكون. ومن يجهل احتمالات المعرفة هذه، مهما تكن غير كاملة، شبيه بمن يذهب إلى المسرح دون أن يصغي إلى الرواية. العالم مليء بالأمور المأساوية، أو الهزلية، أو البطولية، أو الغريبة، أو الشّاذة، والذين لا يسعهم الاهتمام بالمشهد الذي تقدّمه إليهم، يتخلّون عن أحد الامتيازات التي يمكن أن تمنحهم إياه الحياة.

فضلاً عن ذلك، إن حسّ الأبعاد أمر مقدَّر، وأحياناً جدّ مريح. نحن جميعاً نميل إلى أن نُثار، ونتوتر، ونتأثر فوق الحدّ بسبب أهمية الركن الصغير من العالم الذي نعيش فيه، وقصر الفترة الزمنية في ما بين مولدنا وموتنا. ليس ثمة شيء حسن في هذه الإثارة، وهذا التقدير المبالغ فيه لأهميتنا الشخصية.

صحيح أن ذلك قد يجعلنا نعمل بقوة أكبر، ولكن ليس بطريقة أفضل. إن عملاً قليل الأهمية، ولكنه موجّه نحو هدف له قيمة لهو أفضل من عمل طويل يكون هدفه محتقراً، مع أن دعاة الحياة المفعمة بالجهود لا يبدون متفقين على هذا الأمر. والذين يهتمون كثيراً بعملهم هم دوماً ميّالون إلى الاستسلام إلى التعصّب؛ والمتعصّبون يتذكّرون، وحسب، شيئاً أو شيئين مرغوب فيهما، وينسون ما تبقّى، ويحسبون، في سعيهم وراء هذه الأهداف، أن الشر الذي قد يحدث خارج ما يشغلهم لا أهمية له. ليس ثمة أي دفاع أفضل ضدّ هذا

الموقف التعصّبي من الإدراك الكبير لحياة الإنسان ومكانه في الكـون. وقد يبـدو ذلك شيئاً جدّ مهمّ لكي يُذكر في هذا الصدد، ولكن هذا الاستعمال الخاص إذا ما وُضع جانباً، أمر ذو قيمة كبيرة في حدّ ذاته.

إن أحَد عيوب التعليم العالي في أيامنا الحاضرة، هو أننا طوّرنا، بإفراط، اكتساب نوع من النباهة، ولم نُشرِ بما فيه الكفاية الفكر والقلب، بنـظرة غير متحيزة إلى العالم. تقول، يمكنك أن تكـون مستغرقـاً في صراع سياسي والعمـل بقوّة من أجل انتصار حزبك. حتى الآن، كل شيء على خير ما يرام. ولكن قد يحدث خلال الصراع، أن تعرض مناسبة لإحراز النصر الـذي يتطلّب أسـاليب من شأنها أن تضاعف في العـالم الحقد، والعنف، والـريبة. ويمكنـك أن تلاحظ أن أفضـل طريقـة لبلوغ النصر، هي شتم بلد أجنبي. وإذا كان فكـرك محدوداً بالحاضر، أو إذا كنت متشرّباً بالنظرية التي يكـون، بحسبها، الهـدف هو الأمـر الـوحيد الـذي يُحسب له حسـاب، فإنـك ستعتمد هـذه الأساليب المشبـوهـة. وبفضلها ستحرز النصر في أهدافك المباشرة، حتى لو كانت النتائج الأكثر بعداً مـدمّرة. وعـلى النقيض، إذا كان فكـرك غنيّاً بكـل مـاضي الإنسـان، وبـبروزه البـطيء والجزئي من عصـور الهمجية، وبقصر وجـوده الكامـل بـالمقـارنـة مـع العصور الفلكية أقـول، إذا كانت هـذه الأفكار قـد شكّلت مشاعـرك العاديـة، سيتبينّ لك أن المعركة المـوقتة التي تكـون قد خضتهـا لا يمكن أن تساوي خـطر السـير القهقرى شـطر الظلمات التي بـرزنا منهـا ببطء. أكثر من ذلـك، إذا أنت مُنيت بالهزيمة بالنسبة إلى هدف مباشر، فإنـك ستكون مـدعومـاً بالشعـور بقصر هـذه الهزيمـة الذي سيحـول بينك وبـين استخـدام أسلحـة مخـزيـة. في ما وراء أنشـطتك الفورية، سيكـون أمامـك أهداف بعيـدة وتتحقّق ببطء، إذ إنك لست فـرداً منعـزلاً ولكنـك عضـو في الجيش الكبـير المؤلف من الـذين قـادوا البشرية نحو حياة متحضّرة. إذا أنت بلغت هذا المفهوم، فإن الغبطة الهادئة لن تتخلّ عنك مطلقاً، مهما يكن قدرك الشخصي. وتغدو الحياة اتصالاً بين الرجال الكبار من كل الأعمار، ولن يكون الموت الشخصي أكثر من حدث لا يُعتدّ به.

لـو كـان بـوسعي تنـظيم التعليم العـالي حسب ميـولي، لكنت حـاولت

استبدال الديانات القديمة التقليدية ـ التي لا تجتذب إلا القلة من الشباب، والأقل ذكاء والأكثر ظلامية (الظلامي هو من يعارض تثقيف العامة) وحسب ـ بشيء لا يستحق أن يُسمّى ديناً، ما دام ليس سوى ميل إلى الاهتمام بوقائع جدّ معروفة. وكنت حاولت أن أساعد الشباب على التعرّف إلى الماضي بحدّة، وإدراك أن مستقبل الإنسان سيكون، حسب كل الاحتمالات، أطول من ماضيه؛ وكنت علّمتهم أن الكوكب الذي يعيشون عليه صغير، وأن الحياة ليست سوى عرض موقت؛ وفي الوقت عينه، الذي تحاول فيه الوقائع إبراز دور الفرد التافه، كنت قدّمت إليهم مجموعة أخرى مختلفة من الوقائع، الغاية منها إفهامهم العظمة التي يقدر عليها الإنسان، ولأظهرت لهم أن في كل أعماق الفضاء النجمي ليس ثمة شيء مما نعرفه له مثل هذه القيمة. منذ زمن بعيد، كتب سبينوزا عن العبودية والحرية البشريتين؛ والشكل الذي عرض فيه بيانه أو شرحه، ولغته، يجعلان فكره صعب التناول بالنسبة إلى كل طلاب الفلسفة، ولكن زيدة ما أودّ بيانه لا تختلف إلا قليلاً عما قاله.

إن من لاحظ، حتى موقتاً وبإيجاز، ما يصنع عظمة الروح البشرية، لا يسعه أن يكون سعيداً البتة، إن هو سمح لنفسه بأن يكون حقيراً، وأنانياً، تزعجه الحوادث التافهة، وممتلئاً بالخوف مما قد يخبّئه له المستقبل. إن الشخص القادر على العظمة سيفتح كل نوافذ فكره على مصاريعها، تاركاً الهواء ينفخ فيها بحرّية، من كل جهات الكون، وسيكون له عن ذاته، وعن الحياة والكون، صورة حقيقية بقدر ما تسمح بذلك حدودنا البشرية واعياً صغر الحياة البشرية؛ وسيدرك أيضاً أن في فكر الإنسان يتركّز كل ما يمكن أن يكون ذا قيمة في الكون الذي نعرفه. وسيرى أن من يعكس فكرة العالم يغدو تقريباً كبيراً كالعالم. وبتحرّره من المخاوف التي تقضّ مضجع عبد الظروف، سيحسّ بغبطة عميقة، وسيبقى في قرارة نفسه، عبر كل مفاسد حياته الاجتماعية، إنساناً سعيداً.

لنتخلّ عن هذه التكهنات الجريئة، ولنعد إلى موضوعنا الأقرب، أي

قيمة الاهتمامات غير الشخصية؛ فسنرى أن هناك عاملاً يسهم كثيراً في السعادة. حتى في حياة الأشخاص الذين خصّهم القدر بأكبر الحظوظ، هناك لحظات شدة وضيق. قليلون هم الرجال الذين لم يتشاحنوا مع زوجاتهم، باستثناء العازبين؛ وقليلون هم الوالدون الذين لم يشعروا بقلق شديد بالنسبة إلى أولادهم المرضى؛ وقليلة هي الأعمال التي لم تعرف لحظات أزمة؛ وقلة هم المفكّرون الذين لم يعانوا من فترات كان الإخفاق فيها محتوماً. في مثل هذه اللحظات، تكون القدرة على الاهتمام بالأمور الغريبة خيراً كبيراً. في مثل هده اللحظات، عندما لا يكون ثمة حلّ مباشر على الرغم من القلق، يلعب الواحد بالشطرنج، ويقرأ الآخر رواية بوليسية، ويستغرق ثالث في علم الفلك المبسّط، والرابع يتعزّى بالتزوّد بالمستندات والوثائق المتعلقة بحفريات أور، في موطن الكلدان. هؤلاء يتصرّفون بحكمة، بينما من لا يأتي عملاً لتحويل تفكيره عن همومه ويدعها تتسلّط عليه كلياً، يتصرف تصرّف غير الفطن، لأنه سيكون أقلّ قدرة على مصارعة أعدائه عندما تحين اللحظة الحاسمة.

وتنطبق اعتبارات مماثلة تماماً على المحن التي لا تعوَّض من مثل فقد إنسان عزيز علينا ومحبوب كثيراً.

في مثل هذه المناسبات، ليس ترك المرء نفسه يغرق في الحزن علاجاً. الألم لا مهرب منه، وينبغي توقّعه، ولكن ينبغي لنا بذل كل ما في وسعنا للتخفيف منه. ومن قبيل العاطفة (حالة الشخص العاطفي) وحسب، أن نحاول، كما يفعل البعض، استئصال آخر نقطة شقاء من المصيبة. أنا لا أُنكر أن رجلاً قد يحطمه الحزن، ولكنني مقتنع بأن الإنسان يجب أن يبذل كل ما في وسعه للهرب من هذا القدر، ويجب أن يبحث عن تسلية، ولو كانت مبتذلة، شرط ألا تكون مضرّة، ولا مُذلّة. ومن التسليات التي اعتبرها مُحطّة، أذكر السكر، وإدمان المخدرات الذي يهدف إلى تدمير التفكير، موقتاً على الأقل. إن الطريقة الجيدة ليست تدمير التفكير، ولكن طبعه باتجاه جديد، أو على الأقلّ إبعاده عن المصيبة الحالية. ومن الصعب القيام بذلك إذا كانت الحياة مركّزة

حتى ذلك الحين على عدد صغير جداً من الاهتمامات، وتكون هذه غارقة في الحزن.

ولتحمُّل المصيبة بشجاعة عندما تقع، ينبغي أن يكون المرء كرّس نفسه، في أوقات أكثر سعادة، لاهتمامات أوسع، بحيث يستطيع الفكر أن يحضّر للألم مكاناً هادئاً يدعو إلى تداعي أفكار آخر وانفعالات أخرى غير تلك التي تجعل الحاضر صعب الاحتمال.

إن الشخص المتمتع بالحيوية الكافية سيتغلّب على كل هذه المحن بفضل ظهور جديد، عقب كل صدمة، لاهتمام جديد في الحياة وفي العالم الذي لا يمكن أن يضيق بحيث يجعل كل خسارة قاتلة. إن كون المرء منهزماً بفعل خسارة واحدة، أو حتى بخسارات عدة، لا ينبغي النظر إليه بإعجاب واعتباره برهاناً على الاحساس، بل ينبغي أن يكون ذلك مدعاة للرثاء لأنه افتقار إلى الحيوية. إن كل انفعالاتنا هي تحت رحمة الموت الذي قد يضرب في كل لحظة الذين نحبّهم. لذا تقضي الضرورة بألا يكون لحياتنا هذه القوة المقيّدة التي تضع كل معنى وكل هدف في حياتنا تحت رحمة حادث ما.

ينجم عن ذلك أن الإنسان الذي يسعى وراء السعادة بحكمة، ينبغي أن يجهد نفسه في التمتع ببعض الاهتمامات المساعدة فضلاً عن تلك التي هي مركزية، وعليها تُبنى حياته.

١٦

جهد واستسلام

البين بين مذهب قليل الأهمية، وأذكر أنني في صباي كنت أنبذه باحتقار وسخط، لأنني في تلك الفترة كنت أُعجب بالأطراف البطولية. مع ذلك، الحقيقة ليست دوماً مهمة، ونحن نؤمن كثيراً بأشياء لأنها مهمة، بينما ليس هناك، في الواقع، أي دليل آخر في مصلحتها. البين بين حالة من هذا النوع؛ قد يكون مذهب ما قليل الأهمية، ولكن من وجوه عدة، تبرره الوقائع.

من الضروري أن يقف المرء بين بين في ما يتعلّق بالموازنة بين الجهد والاستسلام. ولهذين المذهبين مدافعون عنهما متعصّبون. مذهب الاستسلام بشّر به القديسون والمتصوّفون؛ ومذهب الجهد دافع عنه خبراء في الإنتاج ومسيحيون ذوو عضلات. وكل واحدة من هاتين المدرستين المعاكستين رأت قسماً من الحقيقة، لا الحقيقة كلها. وفي هذا الفصل، سأحاول وضع حساب ختامي، وسأبدأ بمذهب الجهد.

ليست السعـادة، إلا في حـالات نـادرة جـداً، شيئـاً يسقط في الفم مثـل الثمرة الناضجة، بواسطة مشاركة الظروف الملائمة البحت؛ لـذا دعوت كتـابي «غزو السعادة». ذلك بأنه في عالم مشحون بالمصـائب المحتومـة وغير المحتـومة، وبالأمراض والتعقيدات السيكولوجية، وبالمنازعات، وبالبؤس، وبسوء الإرادة، ينبغي للرجل أو للمرأة اللذين يودّان أن يكونا سعيدين، إيجاد وسـائل الصراع ضد أسباب الشقاء العديدة التي يتعرض لها الإنسان. وفي حـالات جدّ نـادرة، ليس مطلوباً جهد كبير. بـوسع الإنسـان المتمتع بـطبع سهـل، وقد ورث ثروة ضخمة، ويتمتع بصحة جيدة، ويمتلك ميولاً بسيطة، الإنـزلاق بكل راحـة عبر الحيـاة، والتساؤل لماذا يتكلف الآخرون في تصرّفـاتهم. وإذا ما اقـترنت امـرأة جميلة ذات ميول لا مبالية برجل ثريّ لا يتطلّب منها أي شيء غـير عادي، وإذا لم تكن تخشى أن تسمن بعـد الزواج، فـإن بوسعهـا كـذلـك الاستمتـاع ببعض الـراحة الكسـول شرط أن تكون محـظوظـة بـأولادهـا. غـير أن هـذه الحـالات استثنـائية. معـظم الناس ليسـوا أثريـاء، ومعظمهم لا يـولدون متمتعـين بـطيبـة طبيعية، كثيرون لهم مشاعر مضطربة تجعل الحياة الهادئة والمنتظمة تبـدو لهم غير محتملة؛ الصحـة نعمة لا يـطمئن أحد إلى الحفـاظ عليها؛ والـزواج ليس دومـاً مصدر سعادة. كل هذا يحتّم أن تكون السعادة بالنسبة إلى معظم الناس إنجـازاً أكثر منها هبة من الله تعالى. وفي هذا الإنجاز، ينبغي أن يلعب الجهد الداخـلي والخارجي معاً دوراً كبيراً. والجهد الـداخلي يمكن أن يتضمّن جهـد استسلام لا مفرّ منه؛ إذاً، في الوقت الحاضر، لن ندرس سوى الجهد الخارجي.

بالنسبة إلى كل رجل وكل امرأة يتعينّ عليهما أن يعملا ليعيشا، الحاجة إلى الجهد في هذا الصدد جلية جداً بحيث لا نضطر إلى الإشارة إليها. صحيح أن الفقـير الهندي يسعـه العيش دونما جهـد بتقديمـه، وحسب، طـاسـاً من خشب التـماساً لتـبرعات المؤمنـين، ولكن في بلدان الغرب، لا تنـظـر السلطات مطلقـاً بعين الرضا إلى هذه الطريقة لتأمين دخـل. فضلاً عن هـذا، فإن المنـاخ يجعل ذلك أقل استساغة منه في البلدان الحارّة والجافة: في الشتاء، على الأقلّ، تكون قلّة من النـاس من الكسـل بحيث تفضّـل التبـطل والتسكـع في الشـوارع عـلى

العمل في حجرة مدفّأة. لذا، فإن الاستسلام وحده ليس سبيلاً لبلوغ السعادة.

في الغرب، معظم الرجال يطلبون شيئاً آخر غير المرتّب البسيط: يرغبون كذلك في النجاح. في بعض المشاغل، من مثل البحوث العلمية، قد يبلغ هذا الشعور رجال لا يحرزون مرتّباً مرتفعاً، ولكن في غالبية المشاغل يُقاس النجاح بالمرتّب. هنا نحن نخوض في مجال حيث عنصر الاستسلام، هو في معظم الحالات، مرغوب فيه، ذلك بأن النجاح البارز، في عالم ممزّق بالمنازعات، ليس ممكناً إلا لأقليّة وحسب.

في الزواج، قد يكون الجهد مطلوباً أو غير مطلوب، تبعاً للظروف. وعندما يكون أحد الجنسين من الأقلية، كما هي الحال بالنسبة إلى الرجال في انكلترا، وبالنسبة إلى النساء في أوستراليا، فإن أشخاص هذا الجنس ليسوا بحاجة، عموماً إلى بذل جهود كبيرة للزواج حسب رغبتهم. وتنعكس الحالة تماماً بالنسبة إلى أفراد الجنس الذي هو أكثرية، فالجهود المبذولة في هذا الاتجاه والأفكار المكرسّة للزواج من جانب النساء عندما يكنّ الأكثرية هي جلية لكل الذين سيدرسون إعلانات الصحف النائية، وعندما يكون الرجال هم الأكثرية، تراهم يعتمدون في معظم الأوقات أساليب أكثر سرعة، من مثل المهارة في استعمال المسدس. وهذا أمر طبيعي ما دام الرجال دوماً هم الأكثرية عندما تكون الحضارة على وشك الزوال. أنا لا أدري ما يفعل الرجال، إذا أصبحوا الأكثرية في انكلترا، فيما لو حدث وباء عرف كيف يختار ضحاياه: ينبغي لهم أن يعودوا إلى عادات الشجعان في الأزمنة السالفة.

إن الجهود التي يبذلها الناس في التّعليم والمفهومة جيداً من أولادهم جليّة تماماً، بحيث أن لا أحد ينكرها حتماً، والبلدان التي تؤمن بالاستسلام، وبما ندعوه خطأً مفهوماً «روحياً» للحياة هي بلدان تكون فيها وفيات الأطفال جدّ مرتفعة. فالطب، وعلم الصحة، والتعقيم، والحمية المناسبة هي أمُور لا نحققها دون مشاغل مبتذلة، إنها تتطّلب طاقة وذكاء يطبقّان على الظروف

المادية. ويميل من يحسبون أن المادة ليست سوى وهم إلى التفكير نفسه بالنسبة إلى القذارة، وهذا الموقف مسؤول عن موت أولادهم.

بالوسع القول، من وجهة عامة، إن شكلاً من السلطة يؤلف الهدف العادي والمشروع لكل شخص لا تكون رغباته الطبيعية مهزولة. والسلطة التي يرغب فيها الإنسان تتوقّف على أهوائه المسيطرة؛ واحد يرغب في السيطرة على أمثاله، والآخر يرغب في السيطرة على أفكارهم، والثالث يرغب في السيطرة على مشاعرهم. واحد يضع أمامه هدف تغيير المحيط المادي، والآخر يرغب في السلطة الناتجة عن سيطرة فكرية. إن كل عمل عام يتضمّن الرغبة في السيطرة، ما لم يكن يُمارس، وحسب، بنيّة الحصول على الثروة من طريق الفساد. ويرغب من يدفعه الألم الغيري المحض الناشيء عن رؤية الشقاء البشري في مؤاساة هذا الشقاء، إذا ما كان ألمه صادقاً. والشخص الوحيد اللامبالي كلياً بالسلطة هو الشخص اللامبالي كلياً بأمثاله. إذاً، ينبغي أن تُقبل الرغبة في السلطة على أنها تؤلف جزءاً من عتاد هؤلاء الرجال الذين يستطيعون توفير مادة مجتمع سليم. وتنطوي كل رغبة في السلطة على شكل مترابط من الجهد، ما دامت ليست معاكسة. وقد يبدو هذا الاستنتاج فكرة عامة في الذهنية الغربية، ولكن كثيرين هم في أوروبا، الذين يغازلون ما ندعوه «حكمة الشرق»، في الوقت ذاته الذي يتخلّى فيه الشرق عنه. وما ذكرناه قد يبدو لهم موضوع نقاش، وإذا ما كان كذلك فلن نكون تحدّثنا بلا طائل.

إن الاستسلام، مع ذلك، ينبغي أن يمثّل أيضاً دوراً في غزو السعادة، وليس هذا الدور أقلّ من الدور الذي يليه الجهد. والحكيم، على الرغم من أنه لا يستسلم إلى المصائب التي يسعه التكهّن بها، لن يضيع وقته وانفعالاته من أجل المصائب التي لا يمكن تجنّبها، وسيستسلم حتى إلى المصائب الممكن تجنّبها، إذا ما استطاع الوقت والجهد المطلوبان لتجنّبها، إزعاجه في متابعة إنجازأهم .كثيرون من الناس يغضبون لمجرد خطأ بسيط، فيهدرون هكذا كمية كبيرة من الطاقة يمكن استخدامها استخداماً أفضل. حتى في متابعة إنجاز مهّم

حقاً، ليس من الحكمة البتة ان يمنح المرء انفعالاته دوراً كبيراً جداً إذا باتت فكرة الإخفاق المحتمل تهديداً متواصلاً لهدوء البال. لقد علّمت المسيحية الإذعان لمشيئة الله تعالى، وحتى أولئك الذين لا يسعهم تقبُّل هذا التشدّق الكلامي، ينبغي أن يكون ثمة شيء مماثل يحرّك كل أنشطتهم. ليس النجاح في سمل عملي نسبياً مع الانفعال الذي نضعه فيه. في الواقع إن الانفعال هو أحياناً عقبة في سبيل النجاح. والموقف المرغوب فيه، إذاً، هو أن يبذل المرء ما في وسعه، ويدع الباقي للقدر. ويتجلى الاستسلام بهذين المظهرين: أحدهما جذوره في اليأس، والآخر جذوره في الأمل الذي لا يُقهر. الأول مسيء؛ والآخر ليس مسيئ. بوسع من مني بهزيمة من الخطورة بحيث أنه تخلّى عن كل رجاء أو أمل بنجاح جيّد، أن يتعلّم استسلام اليأس، وإذا ما فعل، يتخلّى عن كل نشاط جدّي. بوسعه أن يقنّع يأسه بالحكم والأمثال الدينية، أو بالعقيدة القائلة ان التأمل هو هدف الإنسان الوحيد؛ ولكن مهما يكن هذا القناع المتخذ لإخفاء هزيمته الداخلية، فسيبقى بالضرورة غير ذي فائدة، ويبقى الإنسان شقياً تماماً.

إن من كان استسلامه قائماً على أمل لا يُقهر يتصرّف غير هذاالتصرّف كلياً، ولكي يكون الأمل غير قابل للقهر، ينبغي أن يكون رحباً وغير شخصي. مهما تكن مشاغلي الشخصية، فقد أكون مهزوماً من الموت أو من الأمراض؛ وقد أُغلب من أعدائي؛ وبوسعي أن ألاحظ أنني غامرت في طريق خطر لا يمكن أن يؤدي إلى النجاح. من زوايا كثيرة، إن الأخفاق في الآمال الشخصية البحت يمكن تجنّبه، ولكن إذا كانت هذه المشاريع الشخصية جزءاً من رجاء أوسع يتعلّق بالبشرية، فإن الإخفاق النازل لا يؤدي إلى الهزيمة المطلقة نفسها. العالِم الذي يرغب أن يقوم بنفسه باكتشافات كبيرة قد لا ينجح، أو قد يتخلّى عن عمله عندما يقع شيء ما على رأسه، ولكنه يرغب كثيراً في تطور العلم، ولا يرغب، وحسب، في إسهامه الشخصي في تحقيق ذلك، إنه لن يحسّ باليأس الذي يشعر به من كانت لبحوثه دوافع أنانية بحتة. وقد تُبعد الحرب إلى المرتبة الثانية جهود الإنسان الذي أخذ على عاتقه مهمة إصلاح ذات خطورة كبرى،

وقد يضطر إلى إدراك أن العمل الذي أنهمك فيه لن يتحقق مطلقاً وهو في قيد الحياة. ولكن، من أجل ذلك، فهو ليس مضطراً للاستغراق في اليأس إذا كان يهتمّ بمصير البشرية دون اعتبار للدور الذي يقوم به شخصياً في هذا المجال.

إن الظروف التي درسناها هي تلك التي يكون فيها الاستسلام الأمر الأسهل؛ ولكن ثمة ظروفاً كثيرة أخرى يكون فيها الاستسلام أسهل. وذلك عندما تخفق المشاريع الثانوية بينما تواصل الأهداف النهائية في الحياة توفير فرص النجاح. مثلاً، إن شخصاً منهمكاً في عمل مهم، يدلّل على فقدان الاستسلام إذا ما تحوّل عن هذا العمل بسبب مشاكل زوجية، فإذا كان عمله حقاً شاغلاً إلى هذا الحدّ، ينبغي له النظر إلى هذه الارتباكات العابرة بالطريقة نفسها التي يتصرّف فيها المرء إزاء يوم ممطر، أي على أنه أمر مزعج، ومن السخف أن يجعل منه مأساة.

هناك أشخاص عاجزون عن أن يتحملّوا بصبر هذه المزعجات الثانوية التي تؤلف، إذا نحن منحناها الحق، قسماً كبيراً جداً من الحياة. تراهم يستشيطون غضباً عندما يصلون إلى المحطة متأخرين عن موعد انطلاق القطار، ويثورون عندما لا يجدون الطعام طيباً، ويغرقون في اليأس عندما تدخّن المدفأة، ويطلقون التهديدات ضد كل النظام الصناعي إذا ما تأخرت عودة ملابسهم من المصبغة. إن الطاقة التي يهدرها هؤلاء الناس في هموم تافهة تكفي، إذا ما استُخدمت، لإقامة أمبراطوريات وتدميرها. الحكيم لا يلحظ الغبار الذي لم تنظفّه الخادمة، والبطاطا التي لم تطهها جيداً الطاهية، والسخام (سواد الدخان) الذي لم يكنسه منظّف المواقد والمداوىء. أنا لا أريد أن أقول إنه لا يتخذ التدابير الضرورية لمعالجة هذه القضايا إذا اتسع أمامه الوقت: أعتقد، وحسب، أنه يهتم بها دونما انفعال. فالشؤم، والإنزعاج، والهياج انفعالات لا تفيد شيئاً، وبوسع من هم فريسة هذه الإنفعالات القول انهم ليسوا في وضع السيطرة عليها، ولست واثقاً من أن بالوسع التغلّب عليها بغير الاستسلام الأساسي الذي تحدَّثنا عنه آنفاً. والتركيز نفسه على الآمال العريضة وغير الشخصية التي

تساعد الإنسان على تحمل إخفاق شخصي في العمل، أو هموم الزواج التعسة - كل هذا يتيح له أن يكون صبوراً عندما يفوته القطار، أو عندما تسقط منه مظلته في الوحل. إذا كان طبعه ميالا إلى الغضب، فأنا لست متأكداً من أن أي شيء آخر غير روح الاستسلام يمكن أن يشفيه.

يجد من تحرّر من سيطرة القلق الحياة أكثر غبطة منها عندما كان فريسة الإثارة والهياج. وغرابات أصدقائه التي كانت تحمله على الصياح، في ما سلف، ستبدو له الآن مسلية وحسب. وعندما يروي فلان للمرة الـ ٣٤٧ نكتة، فإنه يلهو بتسجيل الرقم الذي بلغه الراوي، ولا يحاول تحويل الانتباه بسرد نكتة من مجموعة نوادره ونكاته الشخصية. وعندما ينقطع سير حذائه صباحاً وهو يسرع لكي لا يفوته القطار، يقول بينه وبين نفسه، بعد بضع شتائم مناسبة، إن هذا الحدث لن يكون له سوى رنين ضعيف في تاريخ الكون. وعندما يقاطعه جار مزعج في اللحظة نفسها التي يقدّم فيها طلباً للزواج، يحسب أن البشرية بأسرها قد تعرّضت لهذه الكارثة، باستثناء آدم، وحتى أبو البشر كانت له مشاكله. ليس هناك بالنسبة إلى المحن الثانوية من حيث الأهمية، حدود للتعزية بوسعنا أن نجدها في تشابهات غريبة ومتوازيات شاذة. أنا أعتقد أن كل كائن بشري متحضّر يصنع صورة لذاته، ويحسّ بأنه منزعج عندما يحدث ما يفسد هذه الصورة. وأفضل علاج هو أن يكون هناك، لا صورة واحدة، بل معرض صور، واختيار تلك التي تكون ملائمة للحالة الحاضرة. وإذا كان بعض الصور يبعث على الضحك قليلاً، فلا بأس؛ ليس مستحباً أن ترى نفسك طوال اليوم في سماء أحد أبطال المسرحيات التراجيدية. أنا لا أقول بأنه ينبغي أن يرى المرء نفسه دوماً المهرّج، ذلك بأن الذين يتصرّفون على هذا النحو هم، بعد، أكثر بعثاً على الإزعاج؛ قليل من اللباقة مطلوب في اختيار دور ملائم للوضع. بالطبع سيكون أروع كثيراً إذا استطعت أن تنسى ولا تمثّل أي دور. ولكن إذا كان تمثيل دور ما أصبح طبيعة ثانية، قل بينك وبين نفسك إن لديك مجموعة من الأدوار، وتجنّب هكذا الرتابة.

كثيرون من الأشخاص النشيطين يعتقدون أن أصغر ذرّة من الاستسلام، والبصيص الخفيف من السخرية والظرف، يدمّران الطاقة التي يقومون بها بعملهم، وروح القرار الذي يحسبون أن به يبلغون النجاح. في يقيني، هؤلاء الأشخاص يخطئون. العمل الذي يستحق عناء أن يُنجز، يمكن أن يقوم به أولئك الذين لا ينخدعون بأهميته، أو بالسهولة التي يُصنع بها. والذين لا يستطيعون القيام بعملهم ما لم يدعمهم الوهم، يحسنون صنعاً إذا هم تعلّموا معاناة الحقيقة قبل أن يواصلوا عملهم، فعاجلاً أم آجلاً، تجعل الحاجة إلى مساندة الأوهام عملهم مضرّاً وليس ملائماً. يُستحسن ألا نصنع شيئاً، بدلاً من أن نصنع الشرّ.

إن نصف ما يُصنع من المفيد في العالم هو محاربة العمل المسيء. إن وقتاً قصيراً يُقضى في تعلّم كيفية تقدير الوقائع تقديراً صحيحاً، ليس وقتاً مهدوراً، والعمل الذي سيُصنع في ما بعد ستكون فرص إذيته أقلّ من العمل المصنوع من أناس يتطلبون انتفاخاً مستمراً لأناهم يكون بمثابة إثارة لطاقتهم. هناك بعض الاستسلام في إرادة مجابهة الحقيقة عن الذات؛ هذا الاستسلام، الذي قد يسبّب في البدء بعض الحزن، ينتهي إلى توفير حماية - هي في الحقيقة الحماية الوحيدة الممكنة - ضد خيبات الأمل والأوهام التي يتعرّض لها من يكذب على نفسه. وليس ثمة ما هو متعب أكثر، ولا هو على المدى الطويل، مُغضب أكثر من الجهد اليومي في الاعتقاد بأشياء تصبح، كل يوم، أقلّ جدارة بالإيمان بها. والتحرُّر من هذا الجهد هو الشرط الذي لا غنىً عنه للسعادة المتينة والدائمة.

١٧

الإنسان السعيد

بديهيٌّ أن السعادة تتوقَّف جزئياً على الظروف الخارجية، وجزئياً على الإنسان. وفي هذا الكتاب، اهتممنا وحسب، بالسعادة التي تتوقف على أنفسنا، وتوصّلنا إلى الخلاصة أن وصفة السعادة جدّ بسيطة. كثيرون من الناس(منهم الكاتب كراتش الذي تحدّثنا عنه في البداية) يحسبون أن السعادة مستحيلة دون إيمان ديني تقريباً. وكثيرون من الناس التعساء يعتقدون أن أحزانهم مصدرها معقّد، وفكري رفيع. أنا لا أعتقد أن ذلك يمكن أن يكون السبب الحقيقي لا للسعادة ولا للتعاسة؛ أعتقد أن ذلك ليس سوى العَرَض أو الدلالة. الإنسان التعس سيتبنّى، عموماً، إيماناً متشائماً، في حين أن السعيد سيعتمد إيماناً متفائلاً. كل واحد منهما سيُغرى بأن يعزو سعادته أو تعاسته إلى معتقداته، في حين أن العكس هو الصحيح. هناك بعض الشروط الضرورية لسعادة غالبية البشر، ولكنها أمور جدّ بسيطة: المأكل، والمأوى، والصحة، والحب، والعمل المكلّل بالنجاح، واحترام المحيط. وإنجاب الأولاد، بالنسبة

إلى بعض الأشخاص، أمر ضروري كذلك. وعندما يُفتقر إلى هذه الشروط. وحده الإنسان الاستثنائي، يستطيع تحقيق سعادته؛ ولكن إذا ما نفِّذت هذه الشروط أو كان بالوسع بلوغها بجهد موجّه، فإن الإنسان الذي ما فتىء يشعر بأنه تعس، بعد، يكون مصاباً بفقدان التوازن السيكولوجي؛ وإذا كان فقدان التوازن هذا خطيراً جداً، فإنه قد يتطلّب تدخُّل طبيب نفسي، ولكن، على وجه العموم، يمكن أن يعالج المريض نفسه بنفسه، شرط أن يواجه القضية من الزاوية الصحيحة؛ وحيثما لا تكون الشروط الخارجية غير معاكسة بوضوح، ينبغي أن يُحقق الانسان سعادته الشخصية إذا كانت أهواؤه واهتماماته موجّهة شطر العالم الخارجي، وليست مركزّة على ذاته. إذاً، علينا أن نسعى، في التعليم وفي الجهود للتكيّف مع العالم في الوقت نفسه، إلى تجنُّب هذه الأهواء الأنانية، واكتساب هذه الانفعالات وهذه الاهتمامات التي تمنع أفكارنا من التركيز أبداً على ذواتنا. ليس في طبيعة غالبية البشر أن يكونوا سعداء في السجن، والانفعالات التي تحجزنا في أنفسنا هي أسوأ السجون. بين هذه الانفعالات، يُعتبر الأكثر شيوعاً الخوف، والحسد، والشعور بالإثم، والرثاء الذاتي، والإعجاب بالنفس. وفي كل هذه الانفعالات تتركّز رغباتنا في ذواتنا: نحن لا نهتمّ حقاً بالعالم الخارجي، ولكننا نقلق للتفكير في أنه يستطيع أن يجرح «أنانا» أو يرفض تغذيته . والخوف، بخاصة، هو المسؤول عن كره البشر كثيراً الاعتراف بالأحداث، وعن كونهم جدّ مهتمين بالتدثُّر بثياب الخرافة الدافئة. غير أن الأشواك تمزّق اللباس الدافىء، والزوابع المثلجة تتسلل عبر المزق، ومن اعتاد على الدفء يتألم، بعد، أكثر من هذه الزوابع، وأكثر من ذاك الذي تصلّب ضدها على الفور. أكثر من ذلك، أولئك الذين يخدعون أنفسهم، يعرفون في قرارة نفوسهم، انهم إنما يفعلون ذلك ويحيون هكذا في حالة خوف، وخشية حدث مزعج قد يجلب لهم التعاسة.

إن إحدى العقبات الكبيرة في الانفعالات الأنانية هي أنها توّفر القليل من التنوع في الحياة. فالإنسان الذي يُحبّ ذاته، لا يمكن، الحق يقال، اتهامه بالتشوّش

في محبته، ولكنه على المدى الطويل، محكوم عليه بالتألم من ملل لا يُطاق سببه رتابة هدف أخلاصه.

ويتألم من يحسّ بشعور الإثم من شكل خاص من الأنانية، فالشيء الذي يبدو له الأهمّ في هذا الكون الواسع هو أن يكون شخصياً فاضلاً. أنه لعيب خطير في بعض الديانات التقليدية أن تكون شجعت هذا النوع الخاص من حبّ الذات.

إن الإنسان السعيد هو ذاك الذي يحيا موضوعياً، وتكون له انفعالات حرة واهتمامات واسعة، وذاك الذي يستمد سعادته من هذه الاهتمامات والانفعالات، ومن كون هذه، بدورها، تجعله هدف اهتمام ومحبة بالنسبة إلى كثيرين من الآخرين. إن الإفادة من الانفعالات سبب قوي للسعادة، ولكن من يتطلّب المحبة ليس هو من يتلقّاها. إن الإنسان الذي يتلقّى السعادة، هو عموماً، من يمنحها، ولكن لا فائدة من محاولة منحها بالحساب نفسه الذي نقرض به المال لقاء فائدة، لأن المحبة المحسوبة ليست صادقة، ومن يكون هدفاً لها يشعر بذلك.

ماذا يبقى، إذاً، أن نفعل من أجل الإنسان التعس لأنه منطوٍ على نفسه؟ طالما هو يواصل التفكير في أسباب دائه، فإنه لن يفتأ محتجزاً في ذاته، ولن يخرج من هذه الحلقة المفرغة. إذا شاء الخروج منها ينبغي ذلك بواسطة اهتمامات صادقة، وليس بأشباه اهتمامات، معتمدة، وحسب، العلاجات. وعلى الرغم من كون الصعوبة حقيقية، فإنه إذا أحسن تشخيص دائه، تكون أشياء كثيرة في متناوله. مثلاً، إذا كان اضطرابه عائداً إلى الشعور بالإثم الواعي وغير الواعي، يستطيع أن يبدأ بإقناع وعيه بأنه ليس لديه أي سبب لكي يكون مذنباً؛ ثم، يعتمد التقنية لتي درسناها في بداية هذا الكتاب: يزرع هذه القناعة الفكرية في لا وعيه، ويهتم في هذه الأثناء، بنشاط محايد نوعاً ما. فإذا نجح في طرد هذا الشعور بالإثم، فمن المحتمل أن تنشأ اهتمامات موضوعية حقيقية بطريقة عفوية. وإذا كان داؤه متأتياً من رثاء ذاتي مفرط، بوسعه التصرّف بالطريقة

عينها، بعد أن يقتنع، سلفاً، أن حالته غير ميؤوس منها. وإذا كان الخوف سبب دائه، يتعيّن عليه ممارسة تمارين خاصة بمنحه الشجاعة. فالشجاعة في زمن الحرب، اعتُرف منذ أبعد العصور بأنها فضيلة مهمة، وكان قسم كبير من تنشئة الأولاد والشبان مكرّساً لإنشاء نموذج من الرجال القادرين على إظهار البسالة والإقدام في المعركة. غير أن الشجاعة الأدبية والشجاعة الفكرية لم تُدرسا كفاية، ولها كذلك تقنيتها. إعترف، يومياً، بحقيقة واحدة على الأقل: فإنك لن تلبث أن ترى أن ذلك مفيد كفائدة عمل طيّب يومي يقوم به الكشّاف. تعلّم أن تؤمن بأن الحياة تستحق، مع ذلك، أن تُحيا، إذا لم تكن - كما أنك بالطبع - متفوقاً كثيراً على أصدقائك في مجال الفضيلة والذكاء. هذه التمارين، المكرّرة خلال عدة سنين، ستتيح لك على المدى البعيد أن تنظر إلى الأحداث مواجهة، وستحرّرك من سيطرة الخوف في مجالات عدّة. وما ستكون عليه الاهتمامات الموضوعية التي ستنشأ عندما تكون قد قهرت الأنانية، ينبغي أن يُترك للمبادرة العفوية لطبيعتك، أو لعناية الظروف الخارجية. لا تقل بينك وبين نفسك سلفاً: «سأكون سعيداً فيما لو استطعت الاهتمام بالطوابع البريدية»، ولا تعمد من فورك إلى جمع الطوابع، ذلك بأنك قد لا تجد هذا الشاغل مشوّقاً على الإطلاق. وحدها الأشياء التي تهمك حقاً تستطيع أن تكون مفيدة لك. ولكن ثق بأن اهتمامات موضوعية سرعان ما ستظهر فور توقّفك عن الانطواء على ذاتك.

الحياة السعيدة، هي إلى حدّ كبير، مرادف للحياة الجيدة. إن علماء الأخلاق المحترفين أشادوا بنكران الذات، وشدّدوا بذلك على ما لم يكن ينبغي التشديد عليه. إن النكران الواعي يترك الإنسان مستغرقاً في ذاته، ويحفظ له ذكرى ما ضحى به، ولهذا فإنه يفقد غالباً هدفه المباشر، وهدفه النهائي دائماً تقريباً. لا أحد يطلب إلى الإنسان أن يضحي بنفسه، بل يطلب إليه أن يضع مصالحه خارج ذاته، الأمر الذي يؤدي عفوياً وطبيعياً إلى الأعمال عينها التي يستطيع القيام بها شخص مستغرق في مطاردة فضيلته الشخصية، بفضل تضحية واعية.

وضعت هذا الكتاب كمُتَعيّ (نصير مذهب المتعة ـ وهذا المذهب يقول بأن اللذة والسعادة هما الخير الأوحد أو الرئيسي في الحياة) غير أن الأفعال التي نصحت بها كمُتعيّ هي، في مجملها، نفسها التي يوصي بها أخلاقي معافى، فالأخلاقي، بالمقابل، يميل كثيراً، وليس دوماً، إلى الإلحاح على الفعل بدلاً من حالة الفكر. وستختلف النتائج التي يُحدثها الفعل في مَنْ يتصرّف كثيراً بحسب الحالة الفكرية الحاضرة. إذا شاهدت ولداً على وشك الغرق، وإذا حُملت على إنقاذه بحركة عفوية، فإنك لن تخرج فقيراً أخلاقياً. ولكن، على النقيض، إذا قلت بينك وبين نفسك: «إن من الفضيلة أن يساعد المرء المحتاجين إلى المساعدة، ولما كنت أودّ أن أكون فاضلاً، ينبغي لي إنقاذ هذا الولد»، فإنك ستكون بعد أسوأ مما كنت قبلاً. وما ينطبق على هاتين الحالتين المتضادتين، ينطبق على الكثير من الأمثلة الأقل وضوحاً.

هناك أيضاً اختلاف آخر، أدقّ نوعاً ما، بين الموقف تجاه الحياة كما اوصيتُ بها، وتلك التي أوصى بها الأخلاقيون التقليديون. فالأخلاقيون التقليديون سيقولون إن الحب ينبغي أن يكون منزهاً. إنهم على صواب في ناحية ما، لأن الحب لا ينبغي أن يكون أنانياً إلى حدّ الإفراط ولكن، بحسب كل الأدلة، ينبغي أن يكون مثل ارتباط سعادة المرء بنجاحه. إذا طلب رجل إلى إمرأة أن تقترن به قائلاً لنفسه إنه يرغب بحرارة في صنع سعادتها، وإذا ما اعتبر في الوقت نفسه أن ذلك سيكون بالنسبة إليه مناسبة مثالية لممارسة نكران الذات، فلست أعتقد أنها ستستحسن عرضه. يتعيّن علينا، ولا شك، أن نرغب في سعادة الذين نحبهم، ولكن لا يتعيّن علينا أن نعتقد أن هذا يستبعد سعادتنا. في الواقع، يختفي كل التناقض بين الأنا وسائر الناس الذي ينطوي عليه مذهب نكران الذات، فور اكتسابنا أي اهتمام صادق بالكائنات والأشياء. وبفضل هذه الاهتمامات، يتوصل الإنسان إلى الشعور بأنه جزء من تيّار الحياة، وليس مثل كيان منعزل وصلب، ككرة البلياردو التي لا يمكن أن يكون لها علاقات أخرى بسائر الكيانات المماثلة إلا بالصدمة. إن كل فقدان للسعادة ينجم عن تفتّت أو عن فقدان التكامل؛ هناك تفتّت أو تفكّك في الأنا بفقدان

التنسيق بين الوعي واللاشعور؛ هناك فقدان للتكامل بين الأنا والمجتمع حيث هما غير مرتبطين بقوة الاهتمامات والانفعالات الموضوعية.

إن الإنسان السعيد هو ذاك الذي لا يشكو فقدان أي من مكوّنات هذا التركيب؛ الإنسان السعيد هو ذاك الذي لا تكون شخصيته منقسمة على ذاتها، وليست في خصام مع العالم. مثل هذا الإنسان يحسّ بأنه مواطن في الكون، يتمتع بكل حرية بالمنظر والمباهج التي يقدّمها إليه العالم، لا تزعجه فكرة الموت، لأنه لا يشعر حقاً بأنه منفصل عن الذين يأتون بعده. ففي هذا الاتحاد العميق والغريزي مع تيار الحياة، نستطيع أن نجد المباهج الأكثر حدّة وقوة!

الفهـــرس

هذا الكتاب

«هذا الكتاب لا يتوجّه إلى البحّاثة أو إلى أولئك الذين يجدون في قضية عملية مجرد موضوع للثرثرة. ففي الصفحات التالية، لن تجدوا فلسفة عميقة، أو تبحُّراً واسعاً. إن هدفي الوحيد كان جمع بعض الملاحظات المستوحاة مما أحسبه الفهم أو الإدراك السليم. والفضل الوحيد الذي أدّعيه بالنسبة إلى الصيغ المقدّمة إلى القارىء، يكمن في واقع أنها مؤكّدة بتجربتي الشخصية ومراقبتي، وأنها أثرت سعادتي في كل مرة تصرفّت وفقاً لها. ومن هنا، أجرؤ على أن آمل أن بعضاً من الرجال والنساء الذين يشكون دون أن يسرّوا في ألمهم، سيجدون تشخيص حالتهم وسبل معالجتها. واقتناعاً مني بأن الكثيرين من التعسين يستطيعون أن يجدوا السعادة بفضل مجهود حسن التوجيه، وضعت هذا الكتاب».

برتراند رَسِلْ

من مقدمة كتاب «غزو السعادة»

(Conquest of Happiness)

الدولية للثقافة والنشر

بيروت ـ لبنان ص. ب ٥١٩٦/١١٣ ـ الحمراء